جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

A-PDF Image To PDF Demo. Purchase from www.A-PDF.com to remove the watermark

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي

رسالة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

اعداد
ابراهيم زعرور

بإشراف
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهــداء

الرفيق القائد المناضل حافظ الأسد ..

من قيمكم ومثلكم استلهمت .. فكتبت هذه

الرّسالة بروح عربيّة علميّة أصيلة.

إلى سيادتكم ... أهديها

إبراهيم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر

إلى كل من ساعدني في انجاز هذا العمل

العلمي شكري وإمتناني وأخص بذلك

الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي أعطاني

من وقته وجهده وعلمه، فله مني ......

كامل الشكر والإمتنان والتقدير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" المقدمـــــة "

تعد الابحاث في التاريخ الاجتماعي من أحدث فروع علم التاريخ وأكثرها صعوبة وتنبع المصاعب لامن عدم اتفاق مدارس البحث الاجتماعي فحسب بل من شح المواد ذات المضامين الاجتماعية في المصادر ، يضاف الى هذا ان العلم الذي أتى فيه ابن خلدون مجليا بالنسبة للعالم اجمع (هو حديث جدا لدى الباحثين العرب من مؤرخين وسواهم ، وهذه الحداثة مركبة من كثير من الجوانب ذلك ان الابحاث العربية القليلة مثلها مثل كثير من الابحاث في التاريخ العربي لم تخرج عن سنن التقليد اللاواعي للابحاث التاريخية الاجتماعية الاوربية المحضة ، والابحاث التاريخية الاستشراقية ، وبات من المقرر ان مسيرة التاريخ العربي مسيرة تختلف تمام الاختلاف عن مسيرة التاريخ الاوروبي ، وللتاريخ العربي هوية وشخصية مستقلة تمام الاستقلال ، ففي الوقت الذي عاشت فيه اوروبا في ظلام العصور الوسطى ، عاش العرب في ظل نور المعرفة والعطاء الحضاري اللامحدود ، ثم ان مراحل تطور التاريخ الاوربي تختلف اقتصاديا واجتماعيا واداريا وعقائديا وسياسيا لابل في كل جانب من مراحل التاريخ العربي ، لهذا تقضي قواعد البحث العلمي والتمسك بالهوية العربية بضرورة التفتيش الدؤوب والمتبصر عن قواعد للبحث في التاريخ الاجتماعي للامة العربية في مختلف المراحل والبقاع .

لقد وضعت هذا نصب عيني عندما شرعت بمحاولات كتابة الفصل الاول من اطروحتي ، وكنت اثناء جمعي لمواد هذه الاطروحة قد تعرفت على عدد من المؤرخين الذين ملكوا حسا اجتماعيا راشدا مثل المقريزي والقلقشندي ، وابن عبد الهادي والسيوطي ، ابن طولون ،وطبعا على رأس هؤلاء وسواهم شيخ علم الاجتماع العلامة العربي الكبير ابن خلدون .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أفدت الى أبعد الحدود مما ورد لدى هؤلاء الرواد انما تعاملت مع اوصافهم مثلما يتعامل المؤرخ المعاصر مع مختلف الروايات التاريخية حول حادثة تاريخية ما سياسية او عقائدية او عسكرية أي بكلمة اخرى اعتبرت اوصافهم بمثابة روايات تاريخية حول حدث من الاحداث وعالجت هذه الروايات وفق مناهج البحث التاريخية الحديثة ، ومجددا أكد هذا الزامي بضرورة التقصي والتفتيش عن منهج عربي يحقق الهدف المنشود في ايجاد مدارس عربية علمية أصيلة للبحث في مختلف جوانب التاريخ العربي .

ان هذا الالتزام على درجة كبيرة من الصعوبة وهو طريق السير عليه محفوف بالمخاطر ، ولعل من أصعب الامور ان يحاول الباحث شق الطريق للمرة الاولى . وأعلن هنا بكل صراحة ووضوح انني افدت الى أبعد الحدود مما نشأت عليه ونهلته خلال عمل سياسي عمره بعمر الثورة في هذا القطر.

لقد كان لمدرسة البعث العربي الاشتراكي العظيم وعقيدته ومبادئه وأهدافه كما جسدها نضال ومنهج وقيم الاب القائد المناضل حافظ الاسد أعظم الاثار علي 6 من مدرسة القائد حافظ الاسد استلهمت وعلى هديه سرت وبحثت حتى توصلت الى مايمكن عده منهجا جديدا للبحث في التاريخ الاجتماعي العربي وخاصة في العصرين الايوبي والمملوكي في بلاد الشام ، لقد انطلق معظم الكتاب من مسلمة قديمة ان المجتمع العربي الاسلامي تألف من كتلتين (طائفتين) اجتماعيتين هما :

الخاصة والعامة ، وتمسك بهذا المفهوم الباحثون العرب وغير العرب وقمت بتفحص هذا المفهوم بكل دقة وطرحت عدة اسئلة منها : هل شكل الخاصة قط في العصرين الايوبي والمملوكي او

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سواهما طائفة اجتماعية ؟ أو بكلمة اخرى هل كان السلاطين والمماليك فئة اجتماعية متميزة ومستقره لها جذورها تواجه الفئة الاجتماعية الاساسية التي حملت اسم العامة وتميزت بالاستقرار والديمومة .

وامكن استخلاص الجواب على هذا السؤال من عمليات استعراض للتاريخ السياسي خاصة للعصرين الايوبي والمملوكي منذ البداية وحتى النهاية ، فرجال السلطة من الايوبيين ثم المماليك هم بالاصل مرتزقة ورقيق جلبت للاستخدامات العسكرية وسواهما وعندما تولى هؤلاء السلطة حكم التنافر والشك والريبة والتمزق والصراع المدمر العلاقات بينهم جميعا ، حتى بين الزوج وزوجه وبين ابناء البيت الايوبي في الشام ومصر ، لقد تحارب سلاطين بني أيوب فيما بينهم وهادن بعضهم الفرنجة وسلمهم القدس حتى يتفرغ لحرب أهله وذويه ثم ان العلاقة بين عز الدين ايبك وشجر الدر وبين قطز وبيبرس وبين قلاوون وابناء بيبرس لابل بين قلاوون وابنائه فيها مايكفي من التوضيح.

وغالبية السلاطين والمماليك من لم يمت منهم في المعارك مات غيلة او قضى في السجن او منفيا وأبدا لم يستطع السلاطين من بني أيوب ومن بعدهم المماليك طول تاريخهم عبر قرون تكوين وحدة اجتماعية فيهما ادنى تواؤم او تعاون او تجانس .

لقد ظلوا جميعا يعيشون في غربة من بعضهم بعضا وظلوا غرباء عن الشعب الذي حكموه وعاشوا بمثابة قشرة عسكرية مستبدة ولذلك حين اقتلعوا لم يجد مقتلعهم لهم في الارض أدنى جذور ، وحين كان واحد من سلاطين بني أيوب او من المماليك يقوم بازالة آخر عن العرش أو من وظيفته ، كانت العملية لاتخلف وراثها اكثر من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النزاع العسكري السلطوي ولقد حكم المماليك الاتراك فترة طويلة واستطاع برقوق ان يحل الجراكسة محلهم دون ان ينجم من ذلك نتائج حتى - على الصعيد السياسي - كبيرة ، وعندما جاء العثمانيون أحل الغرباء الجدد انفسهم في السلطة محل الغرباء القدماء بكل يسر ودنما اية صعوبة تذكر ، وعندما فتك محمد علي ببقايا المماليك لم يبق لهؤلاء في اذهان الناس الا ذكريات سوداء.

بالمقابل في تاريخ العرب والاسلام بعدما تمكن معاوية من الاستيلاء على مقاليد الخلافة بات لحزب آل البيت مكانة بين الجماهير اكبر منها بكثير مما كان عليه وهم على رأس السلطة وبعد زوال الخلافة الاموية ظل شعراء عدة قرون يرشحون هذه الخلافة وآمن كثير من الناس بعقيدة السفياني المنتظر . ان البحث في التاريخ ليس المادة بعينها ولكن هو طبيعة التعامل مع المادة التاريخية وطرق النظر اليها ورؤيتها وعلى هذا لايمكننا التسليم بأن المجتمع في العصرين الايوبي والمملوكي تكون من فئتين اجتماعيتين هما : الخاصة والعامة ، فالخاصة لم يكونوا ابدا فئة اجتماعية بل كانوا تجمعا غير منتظم من المرتزقة والرقيق ممن احترف العمل العسكري واحتكره وظل يحكم هذا الاحتكار والطغيان والاستبداد يتحكم بمصير الشعب لعدة قرون .

لقد عرف العصران الايوبي والمملوكي فئة اجتماعية واحدة هي ما اطلق عليه اسم العامة وعاشت هذه الفئة ونشاطت في معظم الميادين متجاهلة للسلطة متحفزة تنتظر الفرصة المناسبة للتخلص منها وعبرت عن نشاطاتها الاجتماعية وتطلعاتها من خلال بعض المظاهر على شكل تكتلات وتنظيمات واصناف او على شكل نشاطات يومية وموسمية وعاش سكان بلاد الشام في المدن والارياف والبادية وانحدروا جميعا من اصل عربي واحد وقامت علاقات فيما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين بعضهم بعضا وتمازجوا ولم تقم بينهم حواجز طبقية . ان بنيان المجتمع العربي في بلاد الشام وفي غيرها من القطار الوطن العربي جذوره العربية بداياتها مع بدايات التاريخ وظلت هكذا طوال عصره ، ولولا عروبة هذا المجتمع لما استطاع بنو أمية ان يجعلوا من بلاد الشام مقرا لدولة عربية سيطرت على معظم اجزاء العالم القديم ، ولولا متانة هذه الجذور وقوة بنيان هذا المجتمع لعصفت به رياح التغيير العرقي بفعل غزوات الغز والفرنجة والمغول وغيرهم.

جاءت رسالتي في أربعة فصول رئيسة مع مدخل وخاتمة درست في المدخل أهم المصادر التي عدت اليها دراسة نقدية وبعدما عرفت بكل واحد من المصادر أوضحت مزاياه وجوانب الفائدة التي حصلتها منه ، ولقد امتاز العصر المملوكي وقبله عصر بني أيوب بغزارة الانتاج التاريخي ، وظهر الى الوجود عدد كبير من المؤرخين الحوليين ومؤرخي البلدان والموضوعات الخاصة والسير والتراجم ، لكن مما يؤسف له ان الفوائد التي امكن تحصيلها من هذه المصادر لم ترتق الى المستوى المطلوب والامل المنشود لذلك عدت الى كتب الرحالة العرب وافدت منها كثيرا ،وافدت اكثر من كتب الفتاوى والوعظ والتصوف وبكلمة موجزة لقد عدت الى جل محتويات المكتبة العربية للعصرين الايوبي والمملوكي على اختلاف موضوعات كتبها وتعددها ، ولم ادع كتابا مخطوطا او مطبوعا الا وقرأته وبحثت في ثناياه عن مادة استثمرها ، وأعلن هنا ان ماقرأته وعدت اليه يبلغ أضعاف الكتب التي أثبتها في جرد المصادر والمراجع في نهاية هذه الرسالة ، ولم أثبت الا الكتاب الذي ورد ذكره في حاشية من الحواشي ، ويعني هذا ان شطرا كبيرا من وقتي تم تبديده بلا فائدة مباشرة فمنذ عام ١٩٨٤ وأنا اقرأ واراجع المصادر والمراجع وأجد نفسي مع مادة قليلة لاتثمن ولاتغني من جوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أفدت من القراءات بشكل غير مباشر وترسخت معلوماتي عن العصرين الايوبي والمملوكي وهذا بلا شك سيفيدني في مستقبل الايام، وبعدما فرغت من دراسة المصادر بدأت بكتابة الفصل الاول الذي حمل عنوان " بلاد الشام في العصرين الايوبي والمملوكي - عرض عام للاوضاع السياسية " .

عرضت في هذا الفصل باختصار غير مخل تاريخ الأيوبيين منذ صلاح الدين وحتى مابعد معركة عين جالوت وزوال جميع الدويلات الايوبية باستثناء مملكة حماة التي غدت نيابة مملوكية يحكمها ملك أيوبي .

وواجهت صعوبات جمة في أن أعرض تاريخ قرابة أربعة قرون في أقل من ستين صفحة .

لقد ابرزت اهم احداث التاريخ الايوبي أيام صلاح الدين موسس الدولة ثم بعده ووقفت لدى الصراعات الايوبية وبينت نتائجها وآثارها السلبية ثم بحثت في قيام الدولة المملوكية في مصر وانتقال سلطانها الى بلاد الشام اثر معركة عين جالوت . وتناولت تاريخ كل نيابة من النيابات الثمان لبلاد الشام في العصر المملوكي ، وكانت غايتي الاساسية من وراء هذا العرض السياسي العام في توجيه مواده وجهة تخدم أغراض البحث الاجتماعي - ولولا ذلك لاحتاج استيفاء البحث في الجوانب السياسية او العسكرية عدة مجلدات كبيرة .

وحمل الفصل الثاني عنوان " طوائف الشعب وتنظيماته - العلاقات مع السلطة " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطرحت في مطلع هذا الفصل مسألة منهجية البحث في التاريخ الاجتماعي العربي وهو ما أشرت الى ملخصه قبل قليل وبعدما فرغت من قضية المنهج استعرضت احوال المجتمع بشكل عام في الأحياء والأسواق وأماكن العبادة ومراكز الحرف والادارات وبقية القطاعات ، وأوضحت ان النظامين الايوبي والمملوكي وظفا جميع الادارات لخدمة مصالح السلطة ولم توجد اية ادارة اوقفت على رعاية وخدمة مصالح الشعب ، ولقد اعتبر الشعب هذه الحكومات حكومات طغيان وتسلط لذلك لجأ الى الدفاع عن مصالحه بعدة أساليب واشكال كان ابرزها التنظيمات الشعبية شبه العسكرية من زعر وحرافيش وغير ذلك .

وهكذا درست احوال الزعر والحرافيش وجميع التنظيمات الشعبية وركزت جهودي على دور العلماء ورجال الدين كقوة وسيطة بين السلطة والشعب وخلصت الى ان دور رجال الدين كان في غالب الاحيان له تأثيرات سلبية على الشعب .

وميزت بعض الشيء بين حركات التصوف وأدوار العلماء والقضاة وتناولت التصوف كظاهرة اجتماعية وحاولت قدر الامكان تجنب الخوض في المسائل الدينية واللاهوتية .

وسعيت دوما خلال البحث في أن أضرب الامثلة بما يغطي بلاد الشام أجمع لكن لم اوفق دوما في هذا المسعى ، فالمؤرخون اهتموا بدمشق وبحلب وأهملوا ما سواهما ومع هذا عندي مثلت دمشق المجتمع الشامي افضل تمثيل ثم ان هذا المجتمع كان بينه وبين المجتمع العربي في مصر كل التجانس والتمازج والتفاعل فأهل الشام ومصر جزء من الامة العربية ، انهم قلب الامة وخير من يمثلها .

٢٩٧٧٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوقفت الفصل الثالث على البحث في مظاهر الحياة الاجتماعية وأوجه النشاط في المدن الشامية .

وتوزعت اماكن النشاط فيما بين الاحياء السكنية والاسواق والساحات الحمامات وأماكن النزهة والمساجد والتكايا والاربطة والزوايا والمشافي ووقفت عند كل ظاهرة من مظاهر النشاطات الاجتماعية وبحثت في الاحتفالات والاعياد والمناسبات وطرق التعبير عن الافراح والاتراح فكان ان خصصت موكب الحج بالعناية وعادات الزواج والافراح والختان وطرائق التسلية وبعض العادات الاجتماعية الايجابية والسلبية من تناول للخمور وتعاطي للحشيش والشذوذ الجنسي ، وختمت هذا الفصل بتصوير طرائق القصاص ، وتنفيذ العقوبات ودلالات ذلك الاجتماعية ، واخيرا لم اغفل الازياء والملابس بل تعرضت اليها بما يخدم توجهات هذه الاطروحة .

اما الفصل الرابع فقد جاء الحديث فيه عن القطاع الاكبر من جماهير الشعب في بلاد الشام وأعني لذلك الفلاحين والبداة فقد توزع سكان بلاد الشام بين المدن والقرى والبادية ولم يحظى سكان القرى والبادية الا بأدنى نصيب من العناية من قبل الباحثين المعاصرين ومن المؤرخين من قبل ، وبذلت كل جهد ممكن حتى تمكنت من كتابة صفحات رسمت فيها اولا صورة لاوضاع الفلاحين في ظل حكم العسكريين الغرباء فلقد عسف الاقطاع العسكري متعاونا مع الاقطاع الديني بالفلاح الشامي عسفا شديدا فانتزع منه أرضه وحرمه من ثمار جهده وحوله الى قن يتملكه المقطع وأسرته مع الارض .

لقد عاش الفلاح الشامي بتعاسة مابعدها تعاسة وعانى من الظلم والحرمان ومع هذا ظل مربيا اصيلا تمسك بالارض فقاوم الفرنجة الصليبيين وقاتل ضد المغول ولاشك انه اسهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الثورات ضد المماليك وغيرهم لكن المصادر أغفلت الحديث عنه ، والفلاح هو الذي زود المدينة الشامية بالدم العربي الفتي بشكل مستمر فاستطاعت المدينة ان تقاوم وتحافظ على هويتها العربية بكل نقاء ، ذلك ان المجتمع العربي لم يعرف قواعد تحدد سكنى المدن والانتقال من الارياف الى المدينة ، كما ان تجربة الفلاحين وانتقالهم الى الحياة المدنية تختلف تماما عما عرفته اوروبا الاقطاعية وولادة الطبقة البرجوازية .

وكان البدو أوفر حظا من الفلاحين فلقد توفرت بعض المادة الاخبارية حولهم ولحسن الحظ ان المواد المتوفرة وثائقية وبعدما استعرضت دور البداة العرب في صنع احداث تاريخ بلاد الشام عرضت لاثار هجرة شعوب الغز في القرن الحادي عشر على قبائل الجزيرة وشمالي بلاد الشام ومن ثم أوضحت كيف ظهرت قبائل بني ربيعة الطائية وزحفت من الجنوب الشامي نحو الوسط مشكلة جمهرة بدوية جديدة .

لقد درست عادات البداة وتقاليدهم من جميع الجوانب الداخلية وسواها . واستطعت أن أثبت ان العادات الاجتماعية وسواها لدى البداة العرب ظلت هي من حيث الجوهر نفسها كما كانت قبل الاسلام .

كان قوام الحياة البدوية الرعي والتنقل في طلب الكلأ ولم يتوقف البداة من اعمال الغزو والغارة وشغلوا في الوقت نفسه دور المدافع عن حدود بلاد الشام مع دولة الايلخانيين المغول المتحكمة بالعراق ، وكان هؤلاء البداة كرماء يرعون حق الجوار ، يكرمون من مر بهم او جاءهم مستغيثا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكـان للمـرأة دورهـا فـي الاسرة البدويـة حيث تشكل البداة مـن مجموعـات من الأسـر والعشائـر والأفخـاذ والبطـون والقبائـل وكـان لكـل جماعـة شيخهـا كما كـان لبنـي ربيعـة عدد مـن الأمـراء¹ .

وظـل البداة أقـل النـاس تمسكـا بأهداب الديـن لذلـك خضعـوا في امورهـم القضائيـة وفـي فـض خلافاتهـم الـى الاعـرا ف والتقاليـد والتسويـات بدلا من الخضـوع لاحكـام الشريعـة ، وزود البـداة القرى بشكـل متواصـل بالمـادة البشريـة ، اضـف الى هـذا ان النظـام القبلـي تحكـم بالنـاس بالاريـاف وداخـل المـدن كمـا ان سكـان المناطـق الجبليـة خاصـة جبـل لبنـان عاشوا فـي ظـل اوضـاع عشائريـة لم تختلـف من اوضـاع قبائل الباديـة وأودعـت الخاتمـة خلاصـة ما توصلـت اليـه فـي الفصـول الاربعـة وزدت على ذلـك حديثـا تناولـت فيـه تفسخ الحيـاة الاجتماعية وتهاوي النظـام واضطـراب الاوضـاع الاقتصـادية والسياسيـة ، وان هذه العوامل مجتمعة قـد حالـت دون استثمـار بعض بوادر النهضـة التـي ظهـرت في اواخـر العصـر المملوكـي وسهلـت من بعـض الجوانـب مهمـة العثمانيين في وراثـة النظـام المملوكـي .

◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" مدخـــــل "

" المصادر (دراسة وتعريـــــف)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" مدخــــــل "

" المصـادر (دراسـة وتعريــــف) "

يلاحـظ الدارس لتاريخ الفكـر العربـي والحركة الثقافية في العصريـن الايوبـي والمملوكـي ازدهارا عاما كبيـرا[1] كـان للتاريخ بفروعه المختلفـة والجغرافيـة والرحلات والفتـاوى والتصوف ورصـد بعض التبدلات الاقتصاديـة والسياسيـة نصيبـا وافيـا مع اهتمـام كبيـر بكتابـة الموسوعـات الحاويـة لمختلـف الفنون والآداب ، وتساعـد غـزارة المـواد الاخبـارية الباحـث علـى التعـرف علـى تاريـخ هـذين العصـرين مـن مختلـف الجوانـب اللهـم الا باستثنـاء الجوانـب الاجتماعيـة فالمـوءرخ فـي هذيـن العصريـن درج علـى سنن مـن تقدمـه مـن المـوءرخيـن فاهتـم بجوانـب الحيـاة السياسيـة والعسكرية والعلميـة والدينيـة ، ويسبـب هـذا الحـال ردعـا مباشـرا لكـل باحـث تسـول لـه نفسـه بالاهتمـام بالحيـاة الاجتماعيـة وجوانبهـا المتعددة .

ومـع هـذا لقـد نشأنـا علـى ان نقابـل التحـدي بتحـد أعظـم وانـه لابـد مهمـا كانـت الصعوبـات مـن ان يحـاول الانسـان البحث فـي الحيـاة الاجتماعيـة ، فهـذا الجانـب علـى درجـة عاليـة مـن الاهميـة والخطورة ذلـك ان التاريـخ هو تـاريـخ الشعـوب لاتاريـخ السلاطين والملـوك والسلاطيـن والملـوك الـذين تقلبـوا علـى الحكـم فـي بـلاد الشـام فـي العصريـن الايوبـي والمملوكـي زالـوا من الوجـود وطمسـت معالمهـم وآثارهـم الـى أبعـد الحـدود لكـن الشعـب العربـي القاطـن فـي بـلاد الشـام ظـل متجـذرا فـي الارض ومتمسكـا بهويتـه العربيـة قائمـا بأدواره خيـر قيام وسيبقـى كـذلك حتى نهاية الحيـاة ، وعلـى هـذا ان الشعـب يستحـق ان يتعـب الانسـان نفسـه وان يجشمهـا كـل مشـاق فـي سبيـل الكشـف عـن تاريخـه وجوانـب حياتـه ، ويـزداد هـذا الايمـان قـوة لـدى كـل مواطـن يعتـز بأصالته العربيـة ويفاخـر بانتمائـه الـى الشعـب وانحـداره منه وليـس من السلاطيـن والملـوك .

---

(١) - قام الدكتور عمر موسى باشا بالتأريخ للادب العربي في العصرين الايوبـي والمملوكي في مجلديـن كبار طبعا في بيروت ١٩٨٩ ثم الحقها بمجلـد ثالث عن العصر العثمانـي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد وضعت هذا نصب عيني عندما وقع اختياري على موضوع أطروحتي وازداد تشبثي به مع مرور الايام ومع ازدياد قراءتي للمصادر المطبوعة منها والمخطوطة وخروجي بمحصلات جد متواضعة، وقرأت وعاودت القراءة وبحثت في جوانب معظم الاخبار ولكن بدون ثمرات تعتبر .

وكادت نفسي تراودني في أن أقدم على تغيير الموضوع لحاجتي الماسة الى الوقت لكن بعد مداولات مع استاذي المشرف تقرر المثابرة ومضاعفة الجهد لأهمية الموضوع وريادته واقتنعت بان القراءات التي قمت بها كونت لدي قاعدة مفيدة جدا واخذت بمنهج استنطاق حتى الحوادث السياسية والعسكرية وكل حادثة استخلصت منها كل ما أمكن بما يفيد الغرض الاجتماعي حتى ان تمكنت من جمع مادة متفاوتة المقادير أمكن بوساطتها كتابة فصول هذه الاطروحة .

انني اذ أقول هذا تتولاني الحيرة حول أي مصادر أدرس وبأيها أعرف ، خاصة وعددها كبير جدا ، وساتولى دراسة أهم المصادر التي استفدت منها وهي على عدة انواع لاتنتمي الى فن واحد منها كتب في التاريخ وكتب بالتراجم وهناك كتب بالتصوف واخرى هي سجلات رحلات وجغرافية ، كما انني افدت كثيرا من كتب الحسبة والفتاوى .

كان اول المصادر التي عدت اليها لاتعرف الى مقدمات العصر الايوبي كتاب تاريخ دمشق تصنيف حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي المشهور باسم ابن القلانسي ٤٧٠ - ٥٥٥هـ/ ١٠٧٧ - ١١٦٠ م لقد ارخ ابن القلانسي الى دمشق منذ ماقبل العصر الفاطمي وحتى بعيد اخفاق الحملة الصليبية الثانية وتسلم نور الدين لمدينة دمشق وتوحيده بلاد الشام أجمع وهو كمؤرخ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثقة لايستغني أي باحث في تاريخ الحروب الصليبية والعصر الاتابكي أي قبل قيام العصر الأيوبي عن العودة اليه والاعتماد على مواده، وبالفعل أفدت منه في هذه الجوانب كما أفدت في التعرف الى بعض آثار مانجم عن دخول الفرنجة الى بلاد الشام ومن الصراعات بين دويلات التركمان وغيرها من القوى المسلحة (١).

وكما سلف بي القول ان المواد التي أودعها ابن القلانسي في كتابه تشكل المدخل الطبيعي لتاريخ العصر الايوبي، وبداية هذا العصر ترتبط فعليا ورسميا بحياة صلاح الدين الايوبي موءسس الدولة الايوبية وأعظم شخصياتها في التاريخ، ومصادر تاريخ عصر صلاح الدين جاءت بالعربية وبعدها باللاتينية وأهم المصادر العربية اعمال كتاب خمسة هم :

- القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي (ت : ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)
- العماد الاصفهاني الكاتب محمد بن محمد (ت : ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)
- ابن ابي طي يحيى بن حميدة (ت : ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)
- ابن الاثير الجزري علي بن محمد (ت : ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)
- بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع بن تميم (ت : ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)

كان القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين ووزيره والرجل الاول بعده في دولته، وقد كتب اكثر من كتاب في التاريخ، أرخ بواحد منها الحوادث اليومية لحكم صلاح الدين، ولكتابات القاضي الفاضل التاريخية

---

(١) - نشر كتاب تاريخ ابن القلانسي في بيروت سنة ١٩٠٨ محققا من قبل المستشرق هـ . امدروز ثم اعاد تحقيقه الدكتور سهيل زكار وطبعه في دمشق سنة ١٩٨٣، وعلى هذه الطبعة اعتمدت، انظر مقدمة المحقق ص: ز - س .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكانة كبيرة كما ان لرسائله مكانة وثائقية تاريخية متميزة فقد شهر القاضي الفاضل ببراعته الانشائية وبقدرة فائقة على صياغة الرسائل وهو الذي تولى الرسائل التي وجهها صلاح الدين وكتب اجوبة ما تلقاه صلاح الدين من رسائل ، ان رسائل القاضي الفاضل موجودة كما أخبرت - شفويا - في أكثر من مجلد مخطوط في استنبول وهي لم تستثمر بعد ولم استطع الوقوف عليها مثلها في ذلك مثل كتب القاضي الفاضل التاريخية ، فهذه الكتب تعد في حكم المفقود ، تعرفت الى بعض محتوياتها والى بعض نصوص رسائله من خلال النقول التي اوردها العماد الاصفهاني الكاتب في كتبه وابن العديم في كتابة بغية الطلب في تاريخ حلب وهو مما ساشير اليه فيما ياتي .

عندما ورث صلاح الدين ملك نور الدين ورث ادارته أيضا وكان ابرز الاداريين الذين ورثهم العماد الاصفهاني الكاتب ، وكان العماد قد نشأ في العراق واتقن مع العربية اللغة الفارسية فهو أحد النقلة من الفارسية الى العربية ، وكان قد التحق في مطلع حياته بالادارة السلجوقية في العراق ثم توجه للعمل في ادارة نور الدين ، وبعد وفاة نور الدين آل الامر به ان اصبح أبرز شخصيات الادارة في الدولة الصلاحية بعد القاضي الفاضل .

كان العماد خصب الانتاج ومتنوعه ترجم وكتب وصنف في التاريخ والأدب وكان يعتمد بشكل مسرف على الصنعة والسجع ، ولهذا ان التعامل مع كتاباته عملمرهق فيه تبديد للوقت ذلك ان العماد غالبا ماضيع الفكرة على حساب اللفظ وهذا مادعا بعض الكتاب في العصر الايوبي الى اقتباس بعض رواياته كما فعل ابو شامة في الروضتين ، أو الى تهذيب بعض ماكتبه وتنقيحه كما فعل الفتح البنداري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان على رأس الكتب التاريخية التي صنفها العماد كتاب مطول حمل اسم "البرق الشامي" وآخر كانه استخلص منه نشر باسم "الفتح القسي بالفتح القدسي"، لقد طبع الفتح القسي اكثر من مرة وصنفه العماد للتأريخ لتحرير القدس من قبل صلاح الدين بعد حطين، أما الكتاب الثاني فقد جعله العماد في سبعة اجزاء وقد وصلنا معظم اجزاء الكتاب في جزئين موجودين في مكتبة البودليان وقد نشرا مؤخرا في الاردن وفي عدة اجزاء اطلعت على نسخة مخطوطة منها خاصة محفوظة في مكتبة الدكتور سهيل زكار.

ويعد كتاب البرق الشامي أوسع مصدر عربي لتاريخ الحروب الصليبية ولعصر صلاح الدين وأيضا لعصر نور الدين، ولصعوبة التعامل مع مواد هذا الكتاب قام الفتح البنداري بتهذيبه بكتاب حمل عنوان " سنا البرق الشامي " نشر بعضه في بيروت وكله في القاهرة. وحين يقرأ الانسان ماكتبه العماد عن صلاح الدين يلاحظ انه كان معجبا به، لكنه كان معجبا اكثر بنور الدين، ولهذا بحكم تمرسه بالعمل السياسي والاداري نجده كثيرا ما يوجه النقد لبعض قرارات صلاح الدين وجاء هذا النقد اما من باب النصيحة في حضرة صلاح الدين او لدى مقارنته أعمال صلاح الدين مع اعمال نور الدين وكان العماد مرهف الاحاسيس معتدا بنفسه وبمواهبه ويخرج القارئ لكتاب " البرق الشامي " بانطباعات منها ان العماد حين كتب هذا الكتاب كان في ذهنه التاريخ لادواره وأعماله في حوادث الدولتين النورية والصلاحية، وليس من الغلو بمكان القول ان البرق الشامي سيرة ذاتية للعماد الاصفهاني مثلما هو تاريخ لصلاح الدين والحروب الصليبية، وهذا الموقف هام بالنسبة لنا لاننا نواجه سوء الا نصه : هل الانجازات الكبيرة التي تمت في أيام صلاح الدين جاءت وليدة عبقرية صلاح الدين لوحده ام جاءت نتاجا لجهاد شعب استثمرته ادارة ناجحة وجدت على رأسها بحكم الظروف قائدا عسكريا اسمه صلاح الدين يوسف بن أيوب ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان في هذا دعوة لاعادة النظر حتى في التاريخ السياسي ومن ثم انصاف الاجهزة الادارية العربية التي استطاعت ان تحشد طاقات أمة وتزجها طوال قرنيين في أطول ملحمة صراع عرفها التاريخ الانساني ، وعلى هذا يمكننا القول ان الدولة العربية عاشت في ظل المؤسسات الاداريسة الحاكمة أو مايطلق عليه في أيامنا اسم عصر المؤسسات .

ومهما يكن من امر ان الفوائد التي جرى تحصيلها من كتابات العماد التاريخية ساعدت على كتابة الفصل التمهيدي الاول من هذه الاطروحة ، كما ان كتاب العماد الاخر وهو خريدة القصر وجريدة العصر ساعد على ايجاد خليفة مكنت من فهم بعض القضايا الاجتماعية (١).

وكان ابن ابي طي شيعيا حلبيا معاديا لنور الدين محمود لأسباب مذهبية لكنه كان معجبا بصلاح الدين الى أبعد الحدود فاهتم به وبأخباره واعتنى بمآثره عناية فائقة ، وصنف ابن ابي طي عددا من الكتب أوقف واحدا منها على حلب دعاه باسم معادن او سلال الذهب في تاريخ حلب وأرخ ابن ابي طي في هذا الكتاب لحلب في عصر صلاح الدين ولم يهتم بحوادث ماقبل صلاح الدين مثلما فعل من بعده ابن العديم حين سرد اخبار حلب ايضا عصرا تلو الاخر وما زال كتاب ابن ابي طي بحكم المفقود ،غير انه وصلتنا منه نقول كبيرة جدا اوردها ابن العديم في كتابيه : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٢).

---

(١) - محمد بن محمد العماد الكاتب ، خريدة القصر وجريدة العصر - دمشق ١٩٥٥- ١٩٥٩ مقدمة المحقق - الجزء الاول .

(٢) - حاجي خليفة - كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، ط . لايبزغ ، ١٨٣٧م ج ٢ ، ص : ١٢٦ - ١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من الاهمية الكبيرة لما كتبه ابن ابي طي عن صلاح الدين يبقى ابن الاثير الجزري اوسع شهرة منه واكثر انتاجا في ميدان التاريخ العام والخاص ولارائه بصلاح الدين مكانة خاصة فابن الاثير كانت اسرته قد انقطعت لخدمة اتابكة الموصل والاتابكة هؤلاء كانوا خصوما لصلاح الدين ، فصلاح الدين انتزع منهم بلاد الشام وعلى هذا فان ابن الاثير يعبر عن موقفه من صلاح الدين عن وجهات النظر الناقدة له ان لم نقل المعادية ، والمؤرخ المنصف عليه ان يستمع لجميع الآراء ، وأشهر ماكتبه ابن الاثير كتابه الكامل في التاريخ ، وهو كتاب هام فيه مايفيد المؤرخ حول عصر صلاح الدين وتاريخ الدولة الايوبية ، لكن أهم منه وأعزر فائدة بالنسبة لنا كتابه الموسوم ب " الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية " ويحتوي هذا الكتاب على معلومات على درجة عالية من الاهمية عن صلاح الدين وعصره لكن كما اشرت ينبغي التعامل معها بروح نقدية (١) .

وكان بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد والمكنى بأبي المحاسن قد تعرف الى صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٨م وهو في طريق عودته من الحج يريد التوجه الى القدس المحررة لزيارتها وكان من كبار علماء الموصل لذلك عندما سمع به صلاح الدين استدعاه وسأله الالتحاق به فاستجاب ، وصار بمثابة مستشار لصلاح الدين ونديم خاص ، رافقه بقية ايام حياته وأعجب به كل الاعجاب ، وبعد وفاة صلاح الدين استقر ابن شداد بحلب وهناك أخرج كتابا صنفه سيرة لصلاح الدين سماه " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " .

---

(١) - ابو الحسن علي بن محمد بن الاثير الجزري - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية - ط . القاهرة ١٩٦٣، مقدمة المحقق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدو ان مسودات هذا الكتاب ومواده كان قد دونها ابن شداد قبل وفاة صلاح الدين وقام باخراجها فيما بعد ، ونال كتاب ابن شداد هذا شهرة واسعة ليس بسبب مكانة كاتبه فحسب وانما لأسلوبه فهو قد تميز بالاستقامة والسهولة ، وصور صلاح الدين تصويرا انسانيا بديعا ولم يكن هو حين كتب عن بطله صلاح الدين ممن يأخذ بمبدأ عبادة الابطال او تقديسهم لكنه كان معجبا بصلاح الدين البطل اعجاب صديق نزيه مستقيم الطريقة لايخادع صديقه ولايغشه لذلك لم يعمد ابن شداد على حبه لصلاح الدين الى اخفاء اية حقيقة او تحويرها(١).

وابن نظيف هو أبو الفضائل محمد بن علي الحموي (ت : ٦٤٤هـ - ١٢٤٦م) كان مؤرخا كبيرا وسياسيا شغل دورا هاما في احداث القرن السابع للهجرة وفي الصراعات الايوبية خاصة ، فهو قد عمل كاتبا لدى الملك المجاهد شيركوه (ت : ٦٣٧هـ - ١٢٤٠م) صاحب حمص ،كما عمل لدى غيره ، وصنف ابن نظيف عدة كتب في التاريخ أهمها كتاب " الكشف والبيان في حوادث الزمان " وكان كتابا جامعا وافيا والان بحكم المفقود يدلل على مكانته وأهميته اعتماد ابن الفرات عليه اعتمادا كبيرا ، ونقله عنه تفاصيل واسعة حول العصر الايوبي ، ووصلنا مختصر لهذا الكتاب أعده ابن نظيف نفسه حمل اسم تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان وشهر باسم " التاريخ المنصوري " وقد طبع هذا الكتاب بالتصوير في موسكو عام ١٩٦٠م ثم طبع الجزء الاخير منه في دمشق ١٩٨٢م ، وذكر محقق هذا الجزء ان لابن نظيف كتاب اسمه " مختصر سير الاوائل والملوك ووسيلة العبد المملوك " هناك نسخة مخطوطة واحدة منه محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس .

---

(١) - سهيل زكار ، حطين ، ط ، دمشق ١٩٨٤ ، ص : ١٤- ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا الكتاب فوائد كبيرة تتعلق بالتاريخ للدولة الايوبية فيأواخر حكمها ومن هنا جاءت الفائدة منه ، ولم استطع استثماره في المناحي الاجتماعية[1].

واذا ما استعرضنا باحثين أسماء كبار المؤرخين الشاميين نجد أن أعظمهم على الاطلاق كان الصاحب كمال الدين عمر بن احمد بن أبي جرادة المشهور باسم ابن العديم (ت : ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م).

عاش ابن العديم في مدينة حلب بعد ابن عساكر بجيل واحد ونال ثقافة واسعة ، وشهر بين علماء عصره في الشام وغيرها وتسلم مناصب عالية كان من بينها وزارة حلب وقد عاصر الغزو المغولي لبلاد الشام وبسببه ذهب الى مصر حيث قضى بقية ايام حياته .

وعلى الرغم من كثرة مشاغله كان ابن العديم غزير الانتاج خاصة في ميدان التاريخ وأهم ماكتبه في هذا الميدان كتابين هما : بغية الطلب في تاريخ حلب ، وزبدة الحلب في تاريخ حلب ، وهذا الكتاب الثاني أودع فيه المصنف زبدة مواد كتابه الكبير بغية الطلب الذي جاء في اربعين مجلدة مدت على أكثرها الايام فحجبتها عنا فكان ما وصلنا منه عشرة اجزاء بخط المؤلف وقد نشرت مؤخرا في دمشق .

كانت الفوائد التي حصلتها من كتابي ابن العديم كبيرة وهامة ساعدتني في الفصل السياسي وفي الفصول الاجتماعية لاسيما بعض ما تعلق بعادات وتقاليد بداة الشام[2].

---

(١) - محمد بن علي بن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، ط . دمشق ١٩٨٢ ، مقدمة المحقق ، ص ٥ - ١٨.

(٢) - عمر بن أحمد بن أبي جرادة - بغية الطلب في تاريخ حلب - ط . دمشق ١٩٨٨ ، مقدمة المحقق ، ج ١ ، ص ٥- ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبو شامة هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي (ت : ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م) كان من كبار علماء دمشق في القرن السابع للهجرة له علاقاته بأعيان المدينة وعلمائها ، وقد اهتم بالتاريخ خاصة موضوع التصدي للصليبيين مع موضوع الاجتياح المغولي ، فكتب كتاب " الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية " ثم ذيل عليه ، وبعد ذلك أعاد النظر فيه تهذيبا وزيادة ودعاه الان باسم " عيون الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية " كما اختصر سيرة جلال الدين منكبارتي بكتاب سماه " نزهة المقلتين" للنسوي .

يعد كتاب الروضتين بين أهم ما كتبه المؤرخين العرب في تاريخ الحروب الصليبية ، فهو يغطي أخبارها تغطية شاملة معتمدا بالدرجة الاولى على كتابات العماد الاصفهاني والقاضي الفاضل واستثمرت مواد هذا الكتاب لدى امدادي للفصل الاول السياسي ، كما ان بعض الاخبار التي وردت في الذيل كانت مفيدة في الدراسة الاجتماعية خاصة لدى التعرف الى حياة بعض العلماء الذين كانت لهم علاقات بالزعر والحرافيش(١).

وابن شداد هو عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد أبو عبدالله الانصاري الحلبي (ت : ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، وكان قد عاصر قيام دولة المماليك ، ولد في حلب وغادرها اثر الغزو المغولي لها فتوجه الى مصر والتحق بخدمة بيبرس وظل معه حتى وفاته .

---

(١) - يوسف غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ، ط . عمان ١٩٨٢ ، ص ٢٨ . وقد حقق كتاب عيون الروضتين وقدم كرسالة جامعية لنيل الماجستير في كلية الاداب ، وهو قيد الطباعة الان ، كما تحتوي مكتبة الدكتور سهيل زكار على نسخة مصورة عن كتاب نزهة المقلتين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان ابن شداد مؤرخا وجغرافيا صنف عدة كتب أهمها الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة " ونظرا لغلبة الطابع الجغرافي على هذا الكتاب سأعود الى ذكره بين المصادر الجغرافية ، لذلك سأقتصر هنا على الاشارة الى كتابه الذي أرخ به لحياة السلطان بيبرس فهذا الكتاب بلا شك أهم مصدر عن عصر بيبرس حوى من تفاصيل الاخبار ودقتها ماليس موجودا في مصدر آخر لكن لسوء الحظ ماوصلنا منه يشكل قطعة من آخر الكتاب فيها مواد ثمينة استثمرتها في اكثر من مكان في الدراسة السياسية والاجتماعية (1).

ولايقل مكانة عن ابن شداد القاضي محي الدين عبدالله بن رشيد بن عبد الظاهر(ت : ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م ، الذي كان كاتبا في ديوان الانشاء في القاهرة عندما تولى حكمها بيبرس وقد عاصر على هذا قيام السلطنة المملوكية وكان ممن شارك في معركة عين جالوت ، وظل طوال أيام بيبرس شاغلا لوظيفة كاتب الانشاء ، وتابع ذلك أيام السلطان المنصور قلاوون ثم ابنه الاشرف خليل من بعده .

ودون ابن عبد الظاهر سيرة لكل من هؤلاء الثلاثة الكتاب الاول منها هو الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، والثاني تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، والثالث " الالطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية "

ولم تصلنا نسخ هذه الكتب كاملة لكن ما وصلنا منهاونشر فيه ثراء بالمعلومات لانكاد نجده في مصدر آخر . وأفدت من مواد

---

(1) - نشر كتاب تاريخ الملك الظاهر في بيروت ١٩٨٣ - انظر مقدمة المحقق ، ص ٩- ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتب ابن عبد الظاهر في الفصل الأول وفي اكثر من مكان من بقية الفصول[1].

وابن واصل هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم الحموي (ت : ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) كان ابن واصل حموي الاصل واسع المعرفة تنقل بين بلدان الشام والعراق والحجاز ومصر وعمل لدى الايوبيين في أكثر من مكان وقد صنف أعظم كتاب في تاريخ بني أيوب هو " مفرج الكروب في أخبار بني ايوب " .

هذا الكتاب عمدة بين المصادر يحتاجه كل باحث في العصر الايوبي ولقد أفدت منه في اكثر من مكان وعدت الى الاجزاء التي طبعت منه اكثر من مرة[2].

ويحتوي كتاب " ذيل مرآة الزمان " لقطب الدين أبي الفتح موسى ابن محمد اليونيني البعلبكي (ت : ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م) على مواد اخبارية هامة حول أحوال بلاد الشام في بداية العصر المملوكي وهذه المواد وان عرضت بشكل مشوش بعض الشيء ، ان ماورد خلال اخبار الحوليات وفي داخل تراجم الوفيات ثمين تمت الافادة منه في عدة أماكن من اطروحتي[3].

---

(١) - نشر كتاب الروض الزاهر في بيروت محققا سنة ١٩٧٦ - انظر مقدمة المحقق وقبله كان قد نشر كتاب تشريف الايام والعصور في القاهرة عام ١٩٦١ ، وقبل ذلك بستة عقود من الزمن نشر الجزء الثالث من كتاب الالطاف الخفية في لايبزغ ١٩٠٢.

(٢) - نشر الجزء الاول من مفرج الكروب في القاهرة سنة ١٩٥٧ وعلمت ان الجزء السادس والاخير منه نشر موخرا في القاهرة . انظر مقدمة المحقق للجزء الاول .

(٣) - نشر كتاب ذيل مرآة الزمان في أربعة اجزاء في حيدر آباد الدكن - الهند سنة ١٩٥٤ - ١٩٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان المماليك بعدما استولوا على بلاد الشام قد تولوا تصفية الدويلات الأيوبية باستثناء مملكة حماة الايوبية وهكذا عاشت هذه المملكة في ظل المماليك وكان ابرز الذين حكموها من الأيوبيين ابو الفداء اسماعيل بن علي (ت : ٧٣٢هـ /١٣٣٢ م) ، ويتمتع ابو الفداء بشهرة واسعة جدا نبعت من اسهاماته الثقافية خاصة في ميدان علمي التاريخ والجغرافية فلقد خلف لنا في التاريخ كتاب "المختصر في أخبار البشر " وحمل كتابه في الجغرافية اسم " تقويم البلدان " وسنشير اليه بين كتب الجغرافية .

وأهم مافي كتاب المختصر المواد الاخبارية عن الاحداث التي شهدها أبو الفداء أو شارك بها وفيما عدا ذلك لايتعدى نقول مختصرة خاصة من كتاب " الكامل في التاريخ " ولقد عدت الى ماحواه كتاب أبو الفداء وجهدت في سبيل الافادة من مواده بشكل مباشر او غير مباشر في جميع فصول الرسالة ، ذلك ان مواد عدد من المؤرخين ساعدتني على تكوين الارضية التي مكنتني من استيعاب مشاكل العصرين الايوبي والمملوكي(١).

كان من مزايا النشاط الفكري في العصر المملوكي التاليف الموسوعي ومن أشهر موسوعات هذا العصر كتاب " نهاية الارب في فنون الأدب " لأحمد بن عبد الوهاب النويري (ت : ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثين جزءا طبع منها حتى الان سبع وعشرون وعلمت ان اكثر من جزء من المتبقي قيد الطباعة في القاهرة ،وموسوعة النويري تاريخية ادارية جغرافية عامة ، ولقد استفدت منها أيما فائدة اثناء دراستي لأوضاع الفلاحين فالمواد التي اوردها النويري

---

(١) - لكتاب المختصر في أخبار البشر طبعة عثمانية غير محققة جاءت في أربعة أجزاء وقد اعيدت طباعته بالتصوير في بيروت من قبل دار المعرفة بلا تاريخ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي فريدة في بابها ، قمت باستثمارها بشكل كامل(1).

ويعد شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن قايماز الذهبي (ت : ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م) امام مؤرخي العصر المملوكي وأغزر علماء هذا العصر انتاجا ، فهو قد شهر كمحدث اختص ايضا بعلم الرجال من جميع الجوانب وكان أهم ما كتبه في التاريخ كتاب " تاريخ الاسلام " واستخرج من هذا الكتاب عدة كتب مع شيء من الاضافات وطبع من هذا الكتاب عدة اجزاء في محاولات متعددة لنشره وكان من بين الكتب التي استخرج موادها في تاريخ الاسلام " كتاب العبر " وكتاب " دول الاسلام" ولقد استفدت من كتب الذهبي ومواده بشكل مباشر وغير مباشر اثناء البحث في اوضاع الزعر والحرافيش ودور العلماء(2).

---

(1) - موسى باشا ، المرجع نفسه ، (العصر المملوكي) ص ٨٤ - ٨٥

(2) - نشر تاريخ دول الاسلام في القاهرة في جزئين عام ١٩٧٤ ، ونشر كتاب العبر في الكويت في خمسة اجزاء ١٩٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعد كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير بين اشهر كتب تاريخ الاسلام العامة واهمها ذلك أنه يحتوي على مواد تاريخية غنية وعلى تراجم للوفيات على درجة كبيرة من الفائدة اضف الى هذا ان ابن كثير عماد الدين اسماعيل القرشي (ت : ٧٧٤هـ /١٣٧٢م) كان ممن عاش في دمشق المملوكية وشهد عددا كبيرا من الاحداث ونقل عمن تقدمه من المؤرخين حتى كاد ان يستوعب كتاب تاريخ البرزالي (ت : ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) المعروف باسم "المقتفى على تاريخ ابي شامة "

لقد افدت من مواد ابن كثير في أكثر من مكان من فصول رسالتي ذلك ان الاشارات الاجتماعية في هذه المواد أفضل منها عند غيره .

واخبار ابن كثير ذات المكانة الاجتماعية دونها في معرض سرده لأخبار بعض الاحداث أو نقله عن غيره ، انما لاتعطينا هذه الاخبار الانطباع بعمق الاحاسيس الاجتماعية لديه وذلك بالمقارنة مع غيره من المؤرخين الذين سنتعرض اليهم فيما يلي(١).

ومثلما نبغ في بلاد الشام عدد كبير من المؤرخين حدث الامر نفسه في مصر فكان ان اقدم عدد من العلماء على التصنيف بالتاريخ العام بشكل حولي أو بالتاريخ الخاص ،وكان من هؤلاء الحسن ابن عمر بن حبيب (ت : ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) وصنف ابن حبيب عدة كتب

---

(١) - طبع كتاب البداية والنهاية في أربعة عشر جزءا فيها بين ١٩٣٢- ١٩٤٠ بالقاهرة ، واعيد طبعه مرارا بطريقة الاوفست وغيرها ، والكتاب بحاجة للتحقيق وضبط نصه بشكل دقيق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوقفها على أخبار المماليك الأتراك الاوائل كان من بينها كتاب " درة الاسلاك " ثم كتاب " تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه " واستعرت صورة نسخة مخطوطة عن الكتاب الاول كانت على درجة عظيمة من السوء لذلك لم استفد منها اما الكتاب الاخر فقد نشر منه جزءان في القاهرة وهو وان حوى بعض الاخبار كانت درجة الافادة منه محدودة جدا لغلبة الطابع الادبي والصنعة على الكتاب (١).

ويعد ناصر الدين محمدبن عبد الرحيم بن الفرات المصري (ت :٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م) من أعظم المؤرخين المصريين في العصر المملوكي وذلك انه أودع في كتابه الكبير " تاريخ الدول والملوك " : موادا ثمينة جدا وتفاصيل عن الاحداث السياسية والعسكرية ليست موجودة عند غيره ذلك أن جل مصادرة التي استقى منها معلوماته ما تزال محجوبة عنا ، ولقد اعتمدت ما نشر من تاريخ ابن الفرات وأفدت منه في مختلف جوانب الرسالة ذلك ان بعض أخباره أمكن استغلالها اجتماعيا (٢).

كان ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت : ٨٠٨هـ /١٤٠٦م) من المؤرخين العرب الذين امضوا شطرا من حياتهم في مصر والشام وهو اشهر من أن يعرف ،وشهرته نابعة مما جاء في مقدمة كتابه في التاريخ الذي حمل عنوان " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر.

---

(١) - نشر الجزء الاول من تذكرة النبيه في القاهرة سنة ١٩٧٦ ، ونشر الثاني سنة ١٩٨٢ ، انظر مقدمة المحقق ،وهناك قطعة منشورة من درة الاسلاك لم اتمكن من الوقوف على نسخة منها.

(٢) - جاء كتاب ابن الفراتفي عشرة مجلدات وتوجد نسخة خطية منه بخط المؤلف تسعة مجلدات منها في فينا والعاشر في مكتبة الفاتيكان ، وهناك اجزاء مخطوطة اخرى في الخزانة العامة بالرباط ،ونشرمنهذا الكتاب حتى الان خمسة مجلدات ثلاث منها في بيروت ، التاسع سنة ١٩٣٦، والثامن سنة ١٩٣٨ ، والسابع سنة ١٩٤٢ واثنان في بغداد ، الرابع سنة ١٩٦٧- ١٩٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمقدمة على درجة سامية من الاهمية فبفضل ماجاء فيها عدا ابن خلدون شيخ علماء الاجتماع لابل مؤسس هذا العلم ومن هنا قد يتوقع الباحث في موضوع اجتماعي توفر مواد كبيرة لديه ، لكن هذا لم يحصل .

أسهب ابن خلدون في كتابه بسرد تفاصيل الاحداث التي عاصرها وتعلق جلها بقيام دولة المماليك الثانية تحت حكم الجراكسة ، وكان ابن خلدون في دمشق لدى حصار ابن تيمور لها وقد اجتمع بتيمور وتحدث عن اجتماعه به في كتاب آخر من كتبه هو : " التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا "

وعدت الى مقدمة ابن خلدون والى اجزاء كتاب العبر والى التعريف ، وأفدت من المقدمة ، اثناء دراستي لأوضاع البداة ، كما أفدت منها ومن مواد كتابيه في أماكن عدة من رسالتي(١).

كان ابن خلدون صاحب مدرسة تاريخية عظيمة التأثير وكان ممن تأثر به بشكل كبير جدا المقريزي ، والمقريزي هو بلا نزاع مؤرخ مصر الاسلامية له مكانة لايزاحمه عليها مؤرخ ، فهو قد قدم أهم المصنفات في المراحل التي مر بها تاريخ مصر الاسلامية وبالنسبة للعصر المملوكي ومقدماته الايوبية كتب المقريزي أهم كتاب حول هذا الموضوع هو كتاب " السلوك " الذي لايمكن لباحث في أي جانب من جوانب تاريخ مصر والشام في العصر المملوكي ان يستغني عنه ، ونظرا

---

(١) - طبع كتاب العبر عدة طبعات في مجلدات كبيرة ، ما من واحدة منها يمكن اعتبارها طبعة علمية دقيقة ، اما كتاب التعريف فقد حققه محمد بن تاويت الطنجي وطبع في القاهرة عام ١٩٥١ وكان المرحوم ابن تاويت قد عكف على دراسة المقدمة مع اصولها حيث جمع عددا كبيرا من النسخ الخطية اكثر من عشرة منها بخط المؤلف نفسه وتوفي في تركيا قبل ان يكمل عمله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للمكانة العالية لهذا المؤرخ يستحق ان نوليه عناية أكثر مما أولينا غيره من المؤرخين.

والمقريزي هو تقي الدين أحمد بن علي ولد في القاهرة سنة (٧٦٦هـ / ١٣٦٥م) من أسرة تنتمي بالاصل الى بلدة بعلبك الشامية قيل انها كانت تقطن في واحد من أحياء البلدة عرف باسم حي المقارزة زالت معالمه ولم يعد أحد يعرفه.

وفي القاهرة نشأ المقريزي في كنف جده لأمه ويعرف باسم ابن الصائغ ، وكان من علماء الحنفية لهذا تأثر الحفيد بالجد فنشأ حنفيا حتى اذا غدا شابا تحول الى المذهب الشافعي ، والذي يعنينا من هذا المثال ان المقريزي تمتع بشخصية متماسكة تمتد باستقلالها الى أبعد الحدود ، وذلك انه حصل على ثقافة واسعة مكنته من الالتحاق بعدد من الوظائف الهامة ، كما قام بزيارة مكة ودمشق وأقام في كل منهما فترة طويلة . وانتهت حياته في القاهرة سنة (٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م).

كان المقريزي غزير الانتاج وواسعه لاسيما في ميادين التاريخ ويمكن تصنيف انتاجه في التاريخ الى قسمين : مؤلفات كبيرة ، ورسائل صغيرة وقد أوقف المؤلفات الكبيرة اما على موضوع من مواضيع التاريخ الاسلامي العام او على تاريخ مصر الاسلامية السياسي والعمراني عبر عدة مراحل اولها منذ الفتح الاسلامي وحتى قيام حكم الخلافة الفاطمية ، وثانيها تاريخ هذه الخلافة حتى سقوطها وثالثها وهو ما يهمنا منذ نهاية العصر الفاطمي وحتى أيامه في العصر المملوكي ، أما الرسائل الصغيرة وهي التي تظهر أصالة المقريزي وعبقريته العظيمة فقد عالج فيها عددا من المواضيع الهامة جدا ارتبط معظمها بمشاكل العصر المملوكي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان بين الرسائل التي عدت اليها وأفدت منها بشكل مباشر أو غير مباشر :

١- الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك .
٢- شذور العقود في ذكر النقود
٣- اغاثة الامة بكشف الغمة .
٤- البيان والاعراب فيمن نزل ارض مصر من الاعراب

لست بحاجة للحديث عن مصنفات المقريزي الكبيرة بل ساعيد الاشارة الى كتابه السلوك لأبين انني استفدت منه في كل جانب من جوانب رسالتي ، واستثمرت أخباره سياسيا ، وفوق ذلك اجتماعيا ، كما استفدت من كتابه في الخطط الذي حمل عنوان " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " واستفدت ايضا من المجلدات المخطوطة من كتابه " المقفى الكبير في تراجم اهل مصر والوافدين عليها " . وكان لرسالته " اغاثة الامة بكشف الغمة " أثرا كبيرا على عملي اثناء اعدادي لرسالتي استفدت منها وعدت اليها مرارا وتكرارا[١].

وفي بلاد الشام كان ابن قاضي شهبة أبو بكر احمد الأسدي الدمشقي (ت : ٨٥١هـ/١٤٤٨م) أعظم مؤرخيها أيام المقريزي وقد كتب كتابا كبيرا في التاريخ أراده ان يكون ذيلا على كتاب " البداية والنهاية" لابن كثير ثم اختصر هذا الكتاب ومع ذلك ظل حجم هذا المختصر كبيرا نشر منه محققا الجزء الثالث وهناك آمال بنشر بقية الاجزاء ، وفي هذا المصنف معلومات شامية غنية جدا تعزز ما أورده المقريزي وتزيد في كثير من الحالات تفاصيل أمكن الافادة منها اجتماعيا في أكثر من مكان في هذه الرسالة[٢].

---

(١) - انظر مقدمة الجزء الاول من كتاب اتعاظ الحنفي طبع القاهرة ١٩٦٧.

(٢)- نشر الجزء الثالث من قبل عدنان درويش في دمشق عام ١٩٧٧ وجاء عمله فيه بمثابة جزء من اطروحة لنيل درجة الدكتوراه (حلقة ثالثة) من جامعة ليون في فرنسا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان حجم الانتاج التاريخي في القرن التاسع للهجرة ، الخامس عشر للميلاد وجودته والمسائل التي تناولها والاحساس النقدي والاجتماعي ووضوح الفلسفة التاريخية لدى غالبية المؤرخين ظاهرة جديرة بالدراسة من جميع الجوانب للتعرف على ذلك العصر ، فيما اذا كان حقا عصر انحطاط كما يدعى عادة ، اما عصر تفتح وتحولات كبيرة ، واذا كان كذلك فما الذي أوقف التفتح وعطل التحولات وقاد الى انتكاسات اجتماعية وسياسية تجلت بسقوط الدولة المملوكية ووقوع بلاد الشام ومصر واجزاء عزيزة اخرى من الوطن العربي في براثن العثمانيين.

أن بعض هذه المسائل مما ساحاول التعمق فيه في خاتمة رسالتي وعلي أن أبين هنا ان ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي المصري المولد القاهري الدار والنشأة (ت : ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) كان من كبار المؤرخين في قرنه .

غير ان ابن حجر بثقافته الموسوعية واهتمامه بدراسة الحديث ورجاله والتاريخ ورجاله وكان غزير الانتاج جيده واهم ما كتبه بالتاريخ والتراجم كتاب " انباء الغمر بأنباء العمر " واودع هذا الكتاب مواد ثمينة ، فالمؤلف كانت له صلات شخصية ببعض السلاطين وكان أيضا من اصحاب الرحلة ، تتبع الاخبار في مصر والشام والحجاز واليمن ، ولقد عدت الى هذا الكتاب وأفدت منه بشكل مباشر وغير مباشر(١).

---

(١) ـ حظي كتاب انباء الغمر بأنباء العمر بعناية كبيرة فنشر في وقت واحد في كل من القاهرة ودمشق وحيدر آباد الدكن في الهند ، وقد اعتمدت طبعة القاهرة بتحقيق حسن حبشي في ثلاثة مجلدات ، انظر مقدمة المحقق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ ان العصر المملوكي قد مر بمرحلتين ارتبطت بداية كل واحدة منهما بغزو مغولي كبير لبلاد الشام فمع بداية عصر الجراكسة اجتاح تيمورلنك دمشق بعدما كان قد اتى على مدن الشام الكبرى هدما وتدميرا ، فمن مزايا الاجتياحات المغولية أنها قتلت الارض واغتالت الانسان والحضارة فقد اعمل تيمور في دمشق أكثر مما اعمله هولاكو في بغداد ومثلما نجم عن غزو هولاكو لبغداد نجم عما قام به تيمور في دمشق ، لقد دمر المدينة وقتل معظم السكان وحمل معه من بعد الشباب من الحرفيين والعلماء وأصحاب الاختصاصات وبذلك أفرغ الشام من مقومات التقدم والنهضة وفي أعمال تيمور بعض جواب للسؤال الكبير الذي أثرناه قبل قليل . ان أهم مؤلف عن حياة تيمور بالعربية هو كتاب " عجائب المقدور في نوائب تيمور " لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي المعروف باسم ابن عربشاه : وقام ابن عربشاه بتصنيف كتابه في دمشق بعدما غادرها تيمور وكان اثناء تصنيفه يرى آثار الدمار قائمة امامه تدلل على همجية المغول وكيف يجري اغتيال الحضارات ولهذا منح كتابه عنوان " عجائب المقدور ، لقد عدت الى هذا الكتاب واستفدت منه في اكثر من مكان من رسالتي (1).

وفي القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي صنف في مصر أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت : ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) موسوعته التاريخية الكبيرة " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ".

---

(1) - نشر كتاب عجائب المقدور اكثر من مرة ، أحدثها في بيروت عام ١٩٨٦ ، انظر مقدمة المحقق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان ابو المحاسن من اصل مملوكي عمل أبوه اتابكا للعساكر بمصر ثم كافلا للمملكة الشامية وأتاح له هذا فرصة الاطلاع على كثير من تفاصيل أخبار عصره السياسية والادارية والعمرانية ، كما تعرف الى محتويات عدد من المصادر العربية خاصة كتاب "مرآة الزمان" لسبط ابن الجوزي ، وعدت الى كتاب ابي المحاسن وحصلت منه ما استطعت من فوائد كانت سياسية أكثر منها اجتماعية (١).

واستمرت حركة التاريخ نشطة في مصر في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي كما أنها استردت بعض نشاطها في بلاد الشام أهم المؤرخين الذين أفدت منهم ومن مصنفاتهم من المصريين علي بن داود الصيرفي المعروف بالخطيب الجوهري (ت : ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) فقد صنف كتابا حمل عنوان : " نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان " وفي ثنايا هذا الكتاب اشارات مفيدة استثمرتها اجتماعيا في فصول دراستي لاسيما لدى البحث في الزعر والحرافيش وسواهم (٢).

وبما انني توليت البحث في كتب التاريخ والتراجم فان محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت : ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) هو الذي يأتي ترتيبه الزمني بعد ابن الصيرفي ، وكان السخاوي من أعظم المؤرخين في العصر المملوكي ، وأغزرهم انتاجا ، كتب عددا من كتب التاريخ والتراجم ، كما أرخ لحركة التاريخ عند المسلمين فقد

---

(١) _ طبع كتاب النجوم الزاهرة محققا من قبل دار الكتب المصرية ، وجاء في ست عشرة مجلدة كبار ، طبع اخرها سنة ١٩٧٢ ، انظر ج ١ ، ص ٣ _ ٢٨

(٢) _ طبع كتاب نزهة النفوس في ثلاثة مجلدات في القاهرة سنة ١٩٧٠ _ ١٩٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذيل على كتاب السلوك بكتاب سماه " التبر المسبوك " كما صنف " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " وهو من أهم كتب التراجم وأوسعها يكمل محتويات عدة كتب بالتراجم سبقته وأعني بذلك كتاب " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي " لابن تغري بردي الذي أودعه ثلاثة آلاف ترجمة وأراد به ان يتمم كتاب " الوافي بالوفيات " للصفدي وأعني ايضا كتاب " الدرر الكامنة " لابن حجر فكتب التراجم واسعة الاهمية يمكن الافادة منها اجتماعيا اكثر من سواها(١).

(١) - يتولى المعهد الالماني في بيروت العمل منذ عام ١٩٦١ على نشر كتاب الوافي بالوفيات للصفدي ، ونشر حتى الان اكثر من نصفه .
هذا وطبع كتاب الدرر الكامنة في حيدر آباد الدكن بدون تاريخ وأعيدت طباعته في بيروت بالتصوير ، ونشر جزء واحد من كتاب المنهل الصافي في القاهرة عام ١٩٥٦ ، ثم أعيد العمل به ونشر منه اربعة اجزاء ، القاهرة ١٩٨٦ .
وطبع كتاب السخاوي (الضوء اللامع) في ستة مجلدات حوى كل منها على جزاين من قبل مكتبة الحياة في بيروت بدون تاريخ ولاتحقيق ولاضبط .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ابن اياس من بين الذين تصدروا ميدان التأليف التاريخي في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، فقد ولد سنة (٨٥٢ هـ /١٤٤٨ م) في القاهرة وهو يشبه ابن تغري بردي من كونه انحدر من أسرة مملوكية مع انه أكثر عراقة كمؤرخ وأعظم انتاجا.

لقد نشأ ابن اياس في وسط مملوكي بحت على اعتبار انه أحد أولاد الناس ، وعاصر أواخر العصر المملوكي ، وقد شهر بتصنيف كتاب في التاريخ حمل اسم " بدائع الزهور في وقائع الدهور"، وهو مصدر أساسي في تاريخ السلطنة المملوكية في عصر المماليك الجراكسة وحتى اوائل العصر العثماني في مصر ، لقد كتب ابن اياس كتابة في احد عشر جزءا وكان في نيته أن يضيف اليه جزءا ليكتمل اثني عشر، لكن موته سنة (٩٣٠هـ / ١٥٢٤ م) حال دون ذلك ، وقد جمع ابن اياس بين اسلوبي كل من المقريزي وابن تغري بردي في عرضه لمواد كتابه " بدائع الزهور " لكنه شذ عنهما فلم يرتب الوفيات ترتيبا تاريخيا ، واكتفى بالاشارة للوفيات بايجاز داخل المواد المعروضة.

لقد استفدت من كتاب ابن اياس بشكل مباشر وغير مباشر وجاءت الفوائد موزعة على فصول الكتاب (1).

ونشأ في دمشق في القرن التاسع للهجرة عالم كبير عاش في الصالحية ذلك أنه كان من أصل مقدسي ، واهتم هذا العالم ببعض الجوانب العمرانية والتاريخية من دمشق ، كما انه امتلك حسا

---

(١) - اعتمدت على طبعة القاهرة ١٩٨٢- لكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور وهي أوفى طبعة له ، انظر مقدمة المحقق ، وانظر ايضا احمد عبد الرزاق احمد ، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ، ط. القاهرة ١٩٧٤ ، ص: ١٦١ - ١٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اجتماعيا متميزا ، انه يوسف بن حسن بن عبد الهادي ، وابن عبد الهادي الذي سنعود لدراسة حياته وكتبه بعد قليل خلف عددا من التلاميذ تصدرهم اعظم مؤرخي دمشق في آخر العصر المملوكي واوائل العصر العثماني ونعني به ابن طولون الصالحي ، وابن طولون هو محمد بن علي بن احمد ولد بالصالحية سنة (٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) وتوفي فيها سنة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) ، وكان علما كبيرا موسوعي الثقافة ألف في مختلف الفنون عددا كبيرا جدا من الكتب جلها في التاريخ حول دمشق من مختلف الجوانب .

وكان ابن طولون قد تسلم عدة وظائف مدنية ودينية وهذا مما مكنه من الاطلاع على ماكانت تشهده دمشق ، كما انه استثمر مؤلفات شيخه ابن عبد الهادي استثمارا كبيرا وذاعت مؤلفات ابن طولون وانتشرت بينما لم تلق مؤلفات ابن عبد الهادي سعة الانتشار نفسها فما من موضوع كتب عنه ابن عبد الهادي الا وكتب عنه ابن طولون وكان خط ابن طولون جيدا سهل القراءة ، لكن خط ابن عبد الهادي لايمكن قراءته وهكذا تداول الناس كتاب ابن طولون عن تاريخ الصالحية ولم يتداولوا كتاب ابن عبد الهادي ويندرج هذا على بقية المؤلفات ويثير هذا الموضوع هنا اشكالية تتعلق بأصالة ابن طولون حيث يبدو انه روى كتب شيخه وأعاد تصنيفها وتطويرها ناسبا اياها الى نفسه .

لقد عدت الى عدة كتب من مؤلفات ابن طولون واستفدت منها كثيرا خاصة من كتابيه " مفاكهة الخلان في حوادث الزمان " " والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية " فالمادة الاجتماعية في كتابيه خاصة في كتاب " مفاكهة الخلان " اوفر منها في أي مصدر آخر اعتمدته لقد حصلت من هذا الكتاب جل ماعرضته عن الزعر والحرافيش ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر ابن طولون أنه صنف كتابا عن الزعر لم يصلنا ، بل وصلنا فقط كتاب ابن عبد الهادي عن هذا الموضوع نفسه ، ولم استطع قراءة مخطوط هذا الكتاب ولاشك ان فيه معلومات على درجة كبيرة من الاهمية . وأهم ما استفدت من كتاب القلائد تعلق بأوضاع الفلاحين الشاميين وآثار الغزو الفرنجي عليهم[1].

ولقد أفدت من كتاب "الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة " تصنيف الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت : ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) ففي هذا الكتاب تراجم عدد كبير من الشخصيات التي عاشت أحداث اواخر العصر المملوكي ، ويمكن اعتباره حلقة متممة لسلسلة كتب تراجم القرون لأبي شامة وابن حجر والسخاوي .

ولم تتعد المواد التي أفدت منها بعض الاشارات التي استثمرتها اجتماعيا[2].

ومن المفيد أن أشير هنا انني استعرضت محتويات كتاب " مرآة الجنان وعبرة اليقظان " لعبدالله بن اسعد اليافي (ت :٦٧٨هـ /١٣٦٧م) ،وكتاب " شذرات الذهب " لعبد الحي بن العماد الحنبلي (ت : ١٠٨٩هـ /١٦٧٨م) فهذان الكتابان من اهم كتب التراجم المتداولة ، كما واستفدت من كتاب

---

(١) ـ طبع كتاب القلائد الجوهرية في دمشق عام ١٩٤٩ ، انظر مقدمة المحقق ، وطبع كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان في القاهرة عام ١٩٦٢ ١٩٦٤ في جزئين .

(٢) ـ طبع كتاب الغزي محققا من قبل الدكتور جبرائيل جبور في ثلاثة مجلدات في بيروت ١٩٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الدرة المضية في الدولة الظاهرية " لمحمد بن صمري ومن كتاب تاريخ بيروت " لصالح بن يحيى ، ومن عدد من كتب البدر العيني مثل " السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي " و " الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر ططر [1].

(1) - طبع كتاب مرآة الجنان في حيدر آباد الدكن سنة ١٣٣٧هـ ،وجاء في اربعة مجلدات ، ثم طبع ثانية في بيروت بالتصوير سنة ١٩٧٠ ، وطبع كتاب شذرات الذهب في ثمانية اجزاء في بيروت من قبل المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بدون تاريخ ، وطبع كتاب تاريخ بيروت ثانية محققا في بيروت سنة ١٩٦٧ ، وطبع كتاب السيف المهند محققا في القاهرة سنة ١٩٦٧ وقبل ذلك في سنة ١٩٦٢ كان قد طبع كتاب الروض الزاهر ، هذا وطبع كتاب الدرة المضية لابن صصري محققا مع ترجمة الى الانكليزية في جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان الباحث في الحضارة العربية الاسلامية يشد انتباهه التطور الاداري وكثرة الكتب التي صنفت حول الادارة ويتجلى هذا في العصرين الأيوبي والمملوكي أكثر من سواهما ، ولكتب الادارة فوائد كبيرة جدا ترتبط بالعلاقات بين الشعب والسلطة ، ولاشك أن الممارسات السلطوية لها في العادة أبعد الآثار على المجتمع أضف الى هذا ان من مزايا كتب الادارة العربية ثرائها العظيم بالوثائق ، والوثيقة خير مايمكن ان يستغل من المواد التاريخية لأغراض الدراسات الاجتماعية .

كان كتاب " التعريف بالمصطلح الشريف " لشهاب الدين احمد ابن يحيى بن فضل الله العمري (ت : ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) على رأس الكتب التي عدت اليها في هذا الباب ، فهو من أقدم الكتب في ميدانه ، فيه معلومات موثقة حول نيابات بلاد الشام ووصف موجز لأعمال كل نيابة ومزاياها ، فاستفدت منه لدى حديثي عن نيابات بلاد الشام في العصر المملوكي كما استفدت منه في اماكن اخرى .

وللعمري كتب أخرى أشهر من كتابه التعريف أهمها كتابه الموسوعي الكبير " مسالك الأبصار في ممالك الامصار " ففي جزء من هذا الكتاب تحدث العمري عن قبائل بلاد الشام في العصر المملوكي والمواد التي اوردها العمري في هذا الجزء اعتمدت عليها الى أبعد الحدود لدى البحث في الفصل الرابع في أحوال مجتمع القبائل البدوية في بلاد الشام(١).

---

(١) - طبع كتاب التعريف بالمصطلح الشريف في مجلدة صغيرة في القاهرة سنة ١٣١٢هـ لكن بدون ضبط للنص أو تحقيق ، وطبع المتعلق بالقبائل من مسالك الابصار محققا في بيروت ١٩٨٥.

- موسى باشا ، المرجع نفسه ، ص: ٨٥ - ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واعتمد شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت :٨٢١هـ/١٤١٨م) في موسوعته العظمية الشهيرة " صبح الاعشى في صناعة الانشا " على كتب العمري فهو قد فصل ما اوجزه العمري في كتاب التعريف وزاد في اعطاء معلومات جغرافية وادارية هامة جدا ، ثم ان النصوص الوثائقية التي اودعها في كتابه لايمكن الاستغناء عنها ، هذا ونقل القلقشندي مواد العمري عن القبائل فأودعه في كتابه " صبح الاعشى " كما انه افردها بكتاب حمل عنوان " قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " و أفادت مواد القلقشندي في تمتين النصوص التي أوردها العمري عن القبائل(١).

هذا ويحتوي كتاب " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت : ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) على معلومات ادارية حول نيابات بلاد الشام عظيمة الاهمية وهو يزودنا بمعارف استفدت منها في الفصل الأول كما استفدت من مواده في اماكن اخرى من دراستي(٢).

ويمكن في هذا المقام ان نتحدث عن عدد من الكتب ذات هوية خاصة و أخص منها بالذكر كتابي : اللمع في الحوادث والبدع " لادريس ابن بيدكين التركماني (كان موجودا أيام الظاهر بيبرس)، وكتاب " معيد النعم ومبيد النقم " لتاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت :٧٧١هـ ١٣٧٠م) ، ففي معرض حديثه عما عده التركماني بدعا امكن التقاط عدد من الاشارات ذات المضامين الاجتماعية الهامة واستفدت من هذه

---

١) - لقي كتاب صبح الاعشى عناية كبيرة وقد نشر محققا في القاهرة سنة :١٩١٠- ١٩٢٠ ١٩٧٢، وجاء في خمس عشرة مجلدة مع الفهارس ، وطبع كتاب قلائد الجمان في القاهرة عام ١٩٦٣

- موسى باشا ، المرجع نفسه ، ص ٨٩- ٩٢

(٢) - نشر كتاب زبدة كشف الممالك محققا في باريس سنة ١٨٩٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاشارات بشكل خاص في الفصل الثاني والثالث من دراستي هذه (١).

والفوائد الاجتماعية التي أمكن تحصيلها من كتاب السبكي أكثر سعة وشمولا من مواد التركماني ، من هنا جاءت الفوائد منه في فصول الدراسة أجمع (٢).

والتعامل مع كتابي التركماني والسبكي يمهدان للحديث عن أهم كتب الحسبة التي عدت اليها واستفدت منها ، فالاصل بالحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كتب التركماني والتاج السبكي ، ووظيفة الحسبة اسلامية عريقة ظلت قائمة في العصرين الايوبي والمملوكي بدورها المتميز .

وفي العصر المملوكي تم تصنيف عدة كتب في الحسبة مدت الى خمسة منها : واحد مخطوط والاربعة منشورة ، اما المخطوط فهو كتاب " الحسبة " للماوردي وهو فقيه شافعي مصري عاش في اوائل العصر المملوكي ، اما الكتب المطبوعة فهي كتاب " الحسبة " لابن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) ، وكتاب " معالم القربة في احكام الحسبة " لمحمد بن محمد بن احمد عرف شهر باسم ابن الاخوة القرشي (ت : ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م) وكتاب " نهاية الرتبة " لابن بسام المحتسب وكتاب " نهاية الرتبة في طلب الحسبة " لعبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت : ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م) .

ولئن تميز كتاب ابن تيمية بسمة الاصلاح السياسي فان الشبه شديد بين محتويات الكتب الاخرى والفوارق تفصيلية فقط وتحتوي كتب الحسبة هذه على معلومات لها مكانتها في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والحرفية ، ومع ان هذه المعلومات عامة ، لكن سعيت الى استثمارها خاصة اثناء اعدادي للفصل الثالث (٣).

---

(١) - طبع كتاب اللمع في جزئين في القاهرة عام ١٩٨٦.

(٢) - طبع كتاب معيد النعم اكثر من مرة ، وقد اعتمدت على طبعة بيروت لعام ١٩٨٣.

(٣) - وقفت على نسخة مصورة من كتاب الحسبة للماوردي في مكتبة الدكتور سهيل زكار، هذا وطبع كتاب الحسبة لابن تيمية اكثر من مرة وقد اعتمدت على طبعة كتاب الجمهورية الديني ، القاهرة بلاتاريخ، وطبع كتاب نهاية الرتبة للشيزري محققا في بيروت للمرة الثانية عام ١٩٦٩ ، كما طبع كتاب معالم القربة في القاهرة محققا عام ١٩٧٦، وطبع كتاب نهاية الرتبة لابن بسام في بغداد عام١٩٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتسم الكتب الاخيرة التي تعرضنا لها بشكل عام بالسمة الدينية ، ومفيد ان نبين هنا ، انني حصلت فوائد كبيرة من عدد من كتب الفتاوى والفقه ذلك ان بعض كتب الفتاوى عالجت مشاكل واجهها اصحابها من العلماء ، علما بأن جل مافي كتب الفتاوى لم يتعد معالجة اسئلة نظرية و احداث توقع بعض الناس وقوعها .

وأبرز كتب الفتاوى التي استفدت منها ، فتاوى السبكي ، والفزاري ، وفتاوى العز بن عبد السلام ، وهناك كتب دينية اخرى استفدت منها ، واعني هنا بعض المصنفات الصوفية التي عالجت مواضيع صوفية محضة مثل كتاب عوارف المعارف للسهروردي ، " والانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية " للشعراني ، ومنها ماترجم للجماعات التي حملت اسم الاولياء مثل كتاب " ابن الملقن " و " الطبقات الكبرى والصغرى للشعراني " ومواد الشعراني في كتبه المختلفة فيها اشارات اجتماعية على درجة كبيرة من الأهمية ، ويبدو أن أهم كتبه كتاب " البحر المورود في الوصايا والعهود " وجهدت في سبيل الوقوف على نسخة من هذا الكتاب فلم اوفق ، ووجدت زكي مبارك يستثمر بعض محتوياته في كتابه : " التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق " وترددت كثيرا لدى محاولتي الاعتماد على نقول زكي مبارك ، وأخيرا تمنعت فالشعراني عاش في مصر مع ان المجتمع الشامي كان مشابهـا للمجتمع المصري الا ان زكي مبارك وجه نقوله وجهة شخصية ، لذلك آثرت عدم النقل منه (1).

وأرى لزاما علي ان اتوقف عند اثنين من أعلام علماء الشام لما في كتبهما من مواد اجتماعية هامة وأعني بهما يوسف بن عبد الهادي والشيخ علوان الحموي ، فلقد سلف وأشرت الى ابن عبد الهادي أثناء الحديث عن ابن طولون .

---

(1) — انظر زكي مبارك ، التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ،ط ، القاهرة ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ٣٣٨ — ٣٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولد ابن عبد الهادي عام (٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م) في صالحية دمشق وقد شهرت هذه الصالحية منذ العصر الاتابكي بنشاطها العلمي المتميز وكثرة مدارسها والعلماء الذين عاشوا فيها ، ومن هؤلاء كان يوسف بن عبد الهادي فهو بين الشاميين كان اشبه الناس بجلال الدين السيوطي في غزارة الانتاج ، وتنوعه فكلاهما اهتم بأكثر الفنون والعلوم التي شاعت في عصره وأعاد النظر في كثير من المفاهيم حتى ليمكن القول بعد تفحص انتاجهما ، ان العرب كانوا في القرن العاشر للهجرة على وشك دخول عصر (نهضة جديدة) .

وكان السيوطي أكثر حظا من ابن عبد الهادي لانه وجد من يعتني به وبآثاره وآن الاوان لان ينال ابن عبد الهادي نصيبه من العناية في الدراسة والتعرف على ماتركه من آثار مع أن نشر مؤلفاته الموجودة بخط يده، على درجة كبيرة من الصعوبة لرداءة هذا الخط وتعذر قراءته ولقد نشر لابن عبد الهادي بعض رسائله مثل كتاب " ثمار المقاصد في ذكر المساجد " ، ورسالة صغيرة عن حمامات دمشق واهتممت بكتابه الكبير الذي حمل اسم" اداب الحمام " وقمت بدراسته اعتمادا على النسخة المحفوظة بمكتبة الاسد الوطنية وهي بخط المؤلف ، فقد جعل ابن عبد الهادي كتابه هذا مؤلفا من خمسين بابا أولف كل باب منها على موضوع من الامور المتعلقة بالحمامات ، وموضوع الحمامات والنذور الذي شغلته في حياة المجتمع الشامي أمر درسته في رسالتي(١) .

وكما فعل ابن عبد الهادي حين اهتم بالحمام وآدابه فعل الشيء نفسه علي بن عطية الحموي المشهور بالشيخ علوان (ت : ٩٣٦هـ / ١٥٣٠م) فقد اهتم بأداب الحمام في مطلع كتابه " مصباح الهداية ومفتاح الولاية " ولم يات بجديد مخالف لمواد ابن عبد الهادي(٢) .

---

(١) ـ طبع كتاب ثمار المقاصد في دمشق سنة ١٩٤٢، ثم أعيد طبعه في بيروت عام ١٩٧٥ وقام المحقق بتقديم دراسة جيدة حول أكثر من خمسين كتابا من كتب ابن عبد الهادي ، اما رسالة ابن عبد الهاديعن الحمامات فقد نشرت في دمشق عام ١٩٨٨ ضمن مجموع حمل عنوان رسائل دمشقية ص ٣٦ـ ٥٩ .

(٢) ـ انظر مخطوطة مكتبة الاسد الوطنية رقم ٦٦٥٥ الورقات ١٠ ـ ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء حديث الشيخ علوان عن الحمامات كضرب من ضروب الاستطراد ، واستطرد ثانية في كتاب آخر من كتبه اسمه " نسمات الاسحار " فقدم لنا وصفا عن أعراس بلاد الشام لانجد له مثيلا في كتاب آخر وسلف للمرحوم عبد الهادي هاشم ان نشر ما اورده الشيخ علوان في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

وحملت من مواد الشيخ علوان هذه على فوائد جمة اثناء اعدادي للفصل الثالث من رسالتي(١).

(١) - انظر مجلة اللغة العربية ، ج٢ ، مجلد ٣٢ ، لعام ١٩٥٨ ، ص ٣٢٧- ٣٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثلما نشط العلماء العرب في مختلف الجوانب استمر نشاطهم في ميدان الجغرافية والرحلات وزار بلاد الشام عدد من الرحالة الكبار خلفوا لنا اوصاف لما شاهدوه ، تمكنت من توظيفها والافادة منها ومن اوائل الرحالة الذين زارو بلاد الشام في أيام صلاح الدين كان كل من الوهراني وابن جبير وقبلهما زار الرحالة بنيامين الطظيلي بلاد الشام وفي الوقت الذي لم اجد لدى بنيامين مايمكن ان اوظفه اجتماعيا لكن المتوفر لدى الوهراني وابن جبير كبير وهام ، فبنيامين جاء لينفذ مهمة يهودية خاصة لذلك لم يختلط بالشعب في بلاد الشام وعلى عكسه فعل الوهراني وابن جبير ، فهما كانا يحملان شعور المواطنة المسؤولة .

الوهراني هو ركن محمد بن محمد بن محرز الوهراني (ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) لانعرف كثيرا من حياته لكن يستشف من تراثه انه كان عالي الثقافة صاحب حس اجتماعي مرهف ، شديد التمسك باهداب الدين على قاعدة المالكية من اهل المغرب .

قدم الى دمشق وأقام فيها مطولا أيام صلاح الدين ، وتعايش مع مشاكل دمشق موجه انتقاداته الى كبار علماء المدينة وقضاتها ورجال الادارة في الدولة الايوبية واتهمهم باقبح التهم من سرقة وشذوذ خلقي وغير ذلك ، وعلى غير قاعدة الرحالة العرب لم يدون الوهراني أخبار رحلته على شكل يوميات ومشاهدات بل جاءت أخبار رحلته على شكل مقامات ورسائل ، والغريب في الامر ان كتابه حمل اسم " منامات الوهراني " وكانت الفوائد التي حملتها من كتاب الوهراني واسعة ولها اهمية قصوى[1] ، خاصة عندما قمت بمقارنتها بما كتبه معاصره ابن جبير.

---

(١) - نشر كتاب منامات الوهراني محققا في القاهرة سنة ١٩٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن جبير هو محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي ولد في بلنسية سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) وعمل بعض الوقت في ادارة غرناطة وفي (٥٨٧هـ / ١١٩١م) ركب البحر من سبتة حتى الاسكندرية على مركب جنوي وهو يقصد الذهاب الى الحج وبعد اقامة وجيزة في مصر ذهب عن طريق البر الى الحج ثم عاد من حجه عن طريق نجد الى العراق فزار الكوفة وبغداد والموصل ثم قصد بلاد الشام فمر بحلب وحماة وحمص والنبك ودمشق وعكا ، ومن عكا اقلع في مركب فرنجي يريد صقلية ومر في طريقه بصور ومن صقلية توجه الى الاندلس فعاد الى غرناطة سنة (٥٨١ / ١١٨٥م) ، ثم عاد راحلا الى المشرق بعدما سمع أخبار النصر المبين في حطين وتحرير بيت المقدس فقابل صلاح الدين وقدم له التهاني بالنصر وألقى بين يديه قصيدة ثم عاد الى غرناطة وبعد وفاة زوجته رجع الى المشرق وفي الاسكندرية قضى بقية حياته حيث توفي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)٠

ان المواد التي أودعها ابن جبير في رحلته لاتقل أهمية عن مواد الوهراني ، وهي متممة لمواد الوهراني خاصة اذا تذكرنا ان ابن جبير كان أقل عنفا من الوهراني ، لذلك نظر الى الامور نظرة تباينت مع نظرة الوهراني ، واستفدت كثيرا من ملاحظات ابن جبير ومشاهداته خاصة اثناء اعدادي للفصل الثالث من رسالتي[1]٠

ومر بأطراف بلاد الشام من فلسطين الرحالة أبو عبدالله محمد ابن محمد العبدري وأودع مشاهداته في كتابه الذي حمل اسم " الرحلة المغربية ، وكان العبدري قد انطلق من حاحه في السوس الاقصى (المملكة المغربية على مقربة من أغادير) في سنة (٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م)

---

(١) ـ اعتمدت على طبعة رحلة ابن جبير المنشورة في القاهرة عام ١٩٥٥ محققة من قبل الدكتور حسين نصار ، انظر ايضا نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب ط ٠ بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٦٨– ١٦٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصل الى مصر برا وكذلك توجه الى مكة برا ، وعندما عاد من الحج مر بفلسطين وهو يريد القاهرة لذلك ترك لنا بعض المشاهدات عن غزة وغيرها من المدن الفلسطينية وهي مشاهدات ليست كبيرة لكنني لم أهملها ووظفتها خير توظيف(١).

وزار بلاد الشام في العصر المملوكي ابن بطوطة الذي هو أشهر الرحالة العرب على الاطلاق هو محمد بن عبدالله اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) قام بعدة رحلات أوسعها تلك التي استفرقت ربع قرن من الزمان شرع بها ايام المرينيين في المغرب سنة (٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) ووصف بلاد الشام التي مر بها أكثر من مرة وصف شاهد عيان قوي الملاحظة لهذا تعد معلوماته على درجة عالية من الاهمية ولايقلل من مكانتها ابدا ان ابن بطوطة أملى أخبار رحلته املاء وانها وصلتنا مع صيغتها من قبل واحد من تلاميذه ، لقد كانت الفوائد التي حملتها من رحلة ابن بطوطة كبيرة وظفتها في رسالتي لاسيما في الفصل الثالث منها(٢).

اما بالنسبة للجغرافيين العرب الذين استفدت من كتاباتهم فاولهم ابن شداد الحلبي الذي سلف الحديث عنه وعن كتابه حول حياة الظاهر بيبرس ، فقد كتب ابن شداد كتاب الأعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة (ففي اجزاء هذا الكتاب مواد مفيدة جدا.

---

(١)ـ نشرت رحلة العبدري في الرباط عام ١٩٦٨ ، كما انها كانت موضوع رسالة ماجستير في قسم اللغة العربية ، بكلية الاداب ،جامعة دمشق ،عام ١٩٨٩ ، انظر ايضا ، زيادة المرجع نفسه ، ص ١٧٠ ـ ١٨٠ .

(٢) ـ لم أشر الى رحلتي ابن بطوطة التاليتين لرحلته الكبرى اذ لاشأن لبلاد الشام بهما ، وقد طبعت رحلة ابن بطوطة اكثر من مرة واعتمدت طبعة القاهرة لعام ١٩٥٨ ـ المكتبة التجارية الكبرى ، انظر ايضا زيادة ، المرجع نفسه ،ص ١٨٧ـ ١٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن بلاد الشام وظفت ما أمكن توظيفه منها(١).

وسلفت ايضا الاشارة الى أبي الفداء صاحب حماة والى كتابه "المختصر في أخبار البشر" وفي الحقيقة ان شهرة ابي الفداء العلمية مستندة على اسهاماته في علم الجغرافية اكثر من اسهاماته التاريخية فقد عد كتابه "تقويم البلدان" في مقدمة كتب الجغرافيين العرب واعتبر من أشهرها واهمها(٢).

ويحتوي كتاب ابي الفداء على معلومات مفيدة عن بلاد الشام، لكن غالبية هذه المعلومات استقاها من مصادر مبكرة التاريخ لذلك لايمكن التعامل معها وثائقيا ولايمكن اعتبارها تمثل عصر ابي الفداء بل عصور مصادره وهي لاتعنينا في دراستنا الان، وأعلى اهمية بالنسبة لموضوع رسالتي المواد التي أودعها شيخ الربوة محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧م) في كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" فمعلومات شيخ الربوة عن نيابات الشام في العصر المملوكي على درجة كبيرة من الدقة كما انه تحدث عن زراعة الحشيش واستخداماته وقدم لنا وصفا رائعا للاحتفالات التي كانت تجري في مدينة حماة أيام الفصح، لذلك لذلك وجدت هذا المصدر من أهم المصادر الجغرافية التي استفدت منها(٣).

ولعل خير ما نختتم به حديث المصادر ان نشير الى اثنين تعاصرا في بلاد الشام وكانا من اعظم أهل الشام ثقافة ومكانة، أما اولهما فقد عاش في الجانب العربي وهو الامير اسامة بن مرشد ابن منقذ الكناني الشيزري، وثانيهم هو المؤرخ وليم رئيس أساقفة صور.

---

(١) - تم الان نشر جميع اجزاء كتاب الاعلاق الخطيرة في دمشق، من قبل المعهد الفرنسي ومن قبل وزارة الثقافة، وكان آخر جزء منه وهو جزء قنسرين قد نشر في مجلة المعهد المذكور منذ عامين.

(٢) - نشر كتاب تقويم البلدان محققا في باريس سنة ١٨٤٠م

(٣) - نشر هذا الكتاب محققا في بطرسبرغ سنة ١٨٦٥م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان أسامة فارسا عربيا قاتل ضد الفرنجة في مختلف الجبهات خاصة في جبهة شيزر وعاش فترة من حياته في دمشق والقاهرة ومع الفروسية والشجاعة امتاز بغزارة العلم ونظم الشعر ، وكان يحب الصيد واستطاع ان يقيم علاقات مع رجال عصره من العرب والفرنجة ، وقد صنف أسامة عدة كتب في الادب والتاريخ والجغرافية واهم ما كتبه بالنسبة لنا سيرته التي أطلق عليها اسم كتاب " الاعتبار " ، فلقد وصف اسامة في هذا الكتاب حياته التي شهدت النور سنة (٤٨٨ هـ /١٠٩٥م) في شيزر على نهر العاصي ، وامتدت ست وتسعون سنة ذلك انه توفي في دمشق بعدما قضت الزلازل على غالبية أهله في شيزر أيام نور الدين . في كتاب اسامة معلومات تمكنت من توظيفها والاستفادة منها اثناء اعداد رسالتي بشكل مباشر وغير مباشر[1].

وكان اسامة اثناء اقامته في مصر معه جل مكتبته ، ولدى عودته الى بلاد الشام استولى الفرنجة على هذه المكتبة ووصلت المطلوبات الى رئيس اساقفة صور ومستشار ملك القدس وليم الصوري ، فاستفاد منها فوائد كبيرة ظهرت في مصنفيه اللذين كتبهما عن " امراء المشرق " وعن " تاريخ الحروب الصليبية " ويعتبر كتابه " امراء المشرق " بحكم المفقود ، اما كتاب " تاريخ الحروب الصليبية فقد وصلنا واستفدت منه اثناء دراستي للاوضاع السياسية في بلاد الشام وفي اماكن اخرى[2].

---

(١) ـ نشر كتاب الاعتبار للمرة الاولى محققا في جامعة برنستون عام ١٩٣٠.

(٢) ـ ترجم كتاب وليم الصوري الى العربية موءخرا وطبع في بيروت عام ١٩٩٠ انظر مقدمة المترجم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الممكن ان نصنف بين المصادر كتابات ثلاثة من المؤرخين الشاميين الذين عاشوا في هذا القرن وهم : الشيخ كامل حسين الغزي صاحب كتاب " نهر الذهب في تاريخ حلب " واحمد وصفي زكريا في كتابه " عشائر الشام " ، والشيخ احمد دهمان في كتاباته عن دمشق في العصر المملوكي ، فقد كان احسن الناس خبرة في تاريخ هذه الفترة .

وقد اودعوا كتبهم مواد غنية واتبعوا اساليب الاوائل في التصنيف ونهلت من كتبهم واستفدت كثيرا اثناء اعدادي فصول الرسالة .

ولست أول من اهتم بالحياة الاجتماعية في بلاد الشام فقد سبقني الى ذلك لابيدوس ، في كتابه من " مدن الاسلام في اواخر العصور الوسطى . وكذلك نقولا زيادة في كتابه " من دمشق في العصر المملوكي وحياة ناصر الحجي في كتابها " احوال العامة في حكم المماليك " وهذه الكتب على الرغم من الجهود المبذولة في اعدادها لم يحاول اصحابها اعادة النظر في المفاهيم والمعايير التي قامت على قاعدة تصنيف الخاصة والعامة وغيرها من القواعد التي هناك حاجة ماسة لاعادة النظر فيها ، وكتاب لابيدوس هو حتى الان افضل الدراسات المتوفرة ، فكتاب الحجي فيه ثغرات كبيرة وهو وصفي خلو من التحليل ، أما كتاب نقولا زيادة فهو أشبه بمجموعة من النصوص منه بكتاب مؤلف يعبر عن وجهة نظر أو فلسفة خاصة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا وعدت أيضا الى مراجع آخرى اهتمت بالجوانب الاجتماعية مثل كتاب " حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي " لمحمد رجب النجار ، و " كتاب العامة في بغداد " لفهمي سعد، ولما كتبه كلود كاهن وشاكر مصطفى عن حركات الاحداث في بلاد الشام .

وأوليت الكتابات المعاصرة عن الحروب الصليبية وعن العصرين الايوبي والمملوكي كل اهتمام واستفدت من كتابات السيد الباز العريني والاستاذ الكبير سعيد عبد الفتاح عاشور والدكتور جوزيف نسيم والدكتور حسنين محمد ربيع ، والدكتورة امينة بيطار ، والدكتور عادل زيتون واحمد مختار العبادي ، واحمد عبد الرزاق احمد .

وقد أثبت أسماء المراجع التي عدت اليها في جريدة المصادر والمراجع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الاول "

بلاد الشام في العصرين الايوبي - المملوكي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الاول

بلاد الشام في العصرين
الايوبي - المملوكي

■ - عرض عام للاوضاع السياسية :

الابحاث التي تناولت أصل الاسرة الايوبية ونشأتها كثيرة جداً تحدثت عن التاريخ المبكر لهذه الأسرة ، ثم عن قيام علاقات بينها وبين عماد الدين زنكي ومن ثم دخولها في خدمة الزنكيين وانتقالها من العراق الى بلاد الشام وركزت هذه الابحاث اهتمامها على اوائل شخصيات البيت الايوبي لاسيما ايوب الذي انتسبت إليه الاسرة وأخيه أسد الدين شيركوه ، واهتمت أيضاً بنشاط ايوب وأسد الدين في أيام عماد الدين زنكي، ثم ابنه من بعده نور الدين،وبالطبع بحثت في الحملات التي قادها شيركوه إلى مصر واصطحابه لابن أخيه يوسف بن أيوب - صلاح الدين المستقبل - معه الى مصر .

لقد تناول الباحثون نتائج حملات شيركوه وتسلمه لمنصب الوزارة في القاهرة ووفاته المبكرة واستخلاف صلاح الدين من بعده ، ولقد جاء هذا كله بمثابة مقدمات للحديث عن صلاح الدين ، وبعد هذه المقدمات وظهور صلاح الدين على مسرح السياسة تناول الباحثون أهم المشاكل التي واجهها صلاح الدين بمصر وعلاقاته بنور الدين وأعماله التوسعية باتجاه ليبيا واليمن.

ان هذه المسائل على أهميتها لاتعنينا هنا كثيراً لذلك نكتفي بالإشارة إليها والانطلاق بالحديث من استيلاء صلاح الدين على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين زنكي ،فالموضوع الذي نحن بصدد معالجته شامي بدايته ترتبط بقيام الحكم الايوبي في بلاد الشام.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توفي نور الدين في ١٥ أيار لعام ١١٧٤م ، دون ان يترك ولداً شاباً يرثه ، فقد كان ابنه الصالح اسماعيل لايتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأشارت وفاة نور الدين مشاكل كبيرة جداً داخل بلاد الشام وفراغاً سياسياً كان يحدث دوما اثر وفاة حاكم الدولة في بلاد الشام ، وتهيأت الفرصة الآن أمام عدد من اصحاب المطامع بالوصول الى منصب المتحكم بالدولة الأتابكية في بلاد الشام عن طريق الوصاية على الصالح اسماعيل أو بوسيلة اخرى ، كما أن وفاة نور الدين كانت فرصة ثمينة بالنسبة للامارات الصليبية في المشرق بالاخص مملكة القدس .

إن الحديث عن اوضاع الصليبين في بلاد الشام خارج نطاق بحثنا وتكفي الاشارة هنا الى ان مملكة القدس كانت تعاني من مشاكل من النوعية نفسها التي عانت منها دولة نور الدين لذلك لم يستفد الصليبيون من غياب نور الدين ولم ينجحوا بالقيام بأية أعمال توسعية في البلدان التي كانت تابعة لدمشق .

وفي القاهرة وقف صلاح الدين يرقب أحداث بلاد الشام ومن موقع الغيرة على الديار الشامية ومن مطامح في نفسه قرر التوجه نحوها مدعيا أنه هو الذي سيتولى الوصاية على الصالح اسماعيل وبتوجهه نحو دمشق رسم نقطة البداية بالنسبة للحكم الايوبي لبلاد الشام، عندما توفي نور الدين كان على عرش المملكة في القدس الملك عموري ، وحاول عموري اغتنام الفرصة بالاستيلاء على مدينة بانياس ، لكنه اخفق بعد حصار دام اسبوعين لها ، ويروى ان الامير ابن المقدم صاحب الكلمة الاولى-انذاك-بدمشق والمتحكم بالصالح اسماعيل بن نور الدين . راسل الصليبين ولاطفهم واشترى منهم انسحابهم مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح بعض أسراهم في دمشق ، فهو كان يخشى من مطامح صلاح الدين الذي عرفه عن قرب وأراد من الصليبين ان يحولوا بين صلاح الدين وبين الوصول الى دمشق وان يقدموا الحماية لحكام دمشق كما كانوا يفعلون من قبل لاسيما اثناء محاولات عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين الاستيلاء على هذه المدينة .

ويروى ان ابن المقدم أوضح للصليبين ان صلاح الدين الذي لم يفكر بالقدوم الى الشام ايام نور الدين يخطط الان لذلك وأن مجيئه يحمل خطرا مزدوجا على سلطات دمشق والقدس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاقى هذا العرض القبول لدى الصليبين فوافق الملك عموري على عقد الصلح مع ابن المقدم ورفع الحصار عن بانياس وكر عائدا الى بيت المقدس ،وعلم صلاح الدين بتفاصيل هذه الاحداث فاستاء كثيرا واعتبر ان التحالف موجه ضده ،فارسل الى المتسلطين على دمشق يقبح مافعلوه ، وفي الوقت نفسه قرر التحرك باتجاه بلاد الشام ، وراسل أمراء الجند في دمشق قائلا :

" لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامي او يثق اليه ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي اعظم ممالكه وولاياته ،وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني وسوف أصل لخدمته وأجاري كل منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده " ونفذ صلاح الدين تهديده فخرج يريد دمشق في سنة ١١٧٤م على رأس قوة كانت تضم سبعمائة فارس ، واستخلف على مصر أخاه الملك العادل ، ووصل دمشق في أواخر تشرين الثاني من السنة نفسها دون ان يصطدم بالصليبين اثناء تحركه (١).

دخل صلاح الدين دمشق دون ادنى صعوبة ، واثر ذلك نشط في سبيل بسط سلطانه على جميع بلاد الشام ولقد صورت بعض المصادر ان صلاح الدين تحرك للاستيلاء على جميع اجزاء بلاد الشام بدافع حب السيطرة والملك ، وانه كان عليه ان يوفر

---

(١) : عبد الرحمن بن اسماعيل (ابو شامة) ، الروضتين في اخبار الدولتين، بيروت، طبعة مصورة ،ج١،ص ٢٣١- ٢٧٩،ج٢ ،ص ٣-٧٤

- محمود بن سالم بن واصل الحموي ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، ط. القاهرة ١٩٥٧،ج٢ ص ١٨.
- ابو الحسن علي بن الاثير الجزري ،التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، ط . القاهرة ١٩٦٣، ص ١٧٦- ١٨٤.
- القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ط. القاهرة ١٩٠٣ ،ص ٥٠-٥٧.
- كمال الدين عمر بن احمد بن العديم،زبدة الحلب في تاريخ حلب ،ط . دمشق ١٩٥٨،ج٣ ،ص ٩-٦٧.
- الفتح البنداري ، سنا البرق الشامي ،ط . بيروت ،١٩٧١،ج١،ص ١٥٥-٣٥٩
- يوسف بن قزا اوغلي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ،ط . حيدر آباد الدكن - ١٩٥١ - ج١ ،ص ٣٢٦ - ٣٨٨.
- احمد بن ابراهيم الحنبلي ،شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ،ط .بغداد ١٩٧٨،ص ٨٤ - ١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجهد والمال ويوجه الطاقات ضد الصليبيين ، وهذا الرأي متحيز مرفوض على اساس سيرة صلاح الدين والانجازات الكبيرة التي حققها ضد الصليبيين بناء على استراتيجية واضحة ترى توحيد البلاد ووضعها تحت قيادة واحدة ضد الصليبيين ، وهذا ما أورده وليم الصوري مؤرخ المملكة اللاتينية في القدس ومستشار الملك وكان معاصرا لصلاح الدين فقد أوضح في اكثر من مكان من كتابه ان مملكة القدس كانت ترتجف هلعا ، وتعيش أسوأ ساعات حياتها خشية ان ينجح صلاح الدين فيرصد طاقات بلاد الشام ليضمها الى جانب طاقات مصر ضد الوجود الصليبي(١).

لقد استهدف صلاح الدين تحقيق الوحدة والقضاء على عوامل الفرقة بقصد مواجهة الصليبيين بصف واحد متراص ، فقد روى ابن واصل ان صلاح الدين قال وهو على اهبة التوجه نحو بلاد الشام " لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد " كما قال " انا لانوءثر للاسلام وأهله الا ماجمع شملهم وألف كلمتهم "(٢).

كان الصالح اسماعيل قد ترك دمشق وتوجه الى حلب قبل وصول صلاح الدين الى الشام ، كما كان ابن عمه صاحب الموصل قد استولى على ممتلكات الدولة النورية في الجزيرة وأراد ان يتحكم بحلب وبالصالح اسماعيل ، الامر الذي رفضه صلاح الدين وفي الوقت نفسه اشتدت الصراعات على السلطة في حلب بين بعض امراء الجيش وعلى الاخص بين كمشتكين وابن الداية وقد فتش كل فريق من المتصارعين عن حلفاء وجعلت هذه الاوضاع المواجهة بين صلاح الدين والمتحكمين بحلب والجزيرة امرا لايمكن تجنبه ، وشعر كمشتكين عندما بات صاحب الكلمة الاولى في حلب انه ينبغي التخلص من صلاح الدين بأية وسيلة ممكنة ، فكان ان راسل راشد الدين سنان شيخ الجبل ومقدم الحشيشية في الشام من اجل اغتيال صلاح الدين وأخفقت هذه المحاولة وصار صلاح الدين منذ ذلك الوقت يقيم داخل برج خشبي حصين، ولما اخفق كمشتكين في مسعاه لاغتيال صلاح الدين أطلق سراح ريموند الثالث صاحب طرابلس من سجن حلب آملا منه ان يتولى

---

(١) : وليم الصوري – تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار ،ترجمة عربية ط ، بيروت ١٩٨٩،ج٢ ،ص ٣٦٣–٣٦٤،٣٧٣– ٣٧٨.

(٢) : ابن واصل ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الامير الصليبي الواسع التجربة ضبط الامور في القدس وتوجيه طاقات الصليبيين ضد صلاح الدين حتى يتمنع من مهاجمة حلب ، ومرة اخرى اخفقت هذه الخطة ، فجمع المتحكمون في حلب ماملكوه من قوات عسكرية وتحالفوا مع سيف الدين غازي صاحب الموصل واتخذوا قرارا بالزحف نحو دمشق لاقتلاع صلاح الدين منها وارسلهم صلاح الدين ورغبهم في الصلح حقنا لدماء المسلمين وعلى ان يقتصر على دمشق فقط ، وجاء عرض صلاح الدين هذا خشية منه من استغلال الصليبيين لهذا الصراع الداخلي لكن المتسلطين على حلب رفضوا عرضه وأبوا عليه الا ان يسلم كل ماكان بيده من بلاد الشام ويعود الى مصر ، وهنا لم يجد صلاح الدين بدا من اللجوء الى القوة العسكرية فجهز قواته واتجه شمالا فالتقى بخصومه في التاسع عشر من رمضان سنة سبعين وخمسمائة للهجرة (١٣ نيسان ١١٧٥م) عند قرني حماه (جبل زين الما بدين وجبل كفراع) وانتصر عليهم انتصارا حاسما ومزق صفوفهم وطاردهم حتى حلب وأخفقت جميع المحاولات في اعتراض سبيله ومنعه من حصار حلب ، ومن جديد تعرض للاغتيال لكنه نجا بعد اصابته ببعض الجراح مما قوى من عزيمته واصراره في الاستيلاء على حلب وامام افلاس المدافعين عن حلب اخرجوا اليه ابنة نور الدين وكانت طفلة صغيرة فقابلها بكل حفاوة واكرام اجلالا لذكرى ابيها واغدق عليها المال والهدايا ومنحها بناء على طلبها اعزاز اقطاعا وردها الى حلب ، ولم يطل به الامر بعد ذلك حتى تسلم حلب وقلعتها فبات سيد الشام بدون منازع وللمرة الاولى(١) منذ سنين طويلة اتحدت الشام ومصر تحت لواء قائد واحد هو صلاح الدين الذي اتخذ قرارا لاعودة عنه ، قضى بتوجيه طاقات البلدين الموحدين في سبيل تحرير الارض والانسان وطرد الغزاة الصليبيين ، ولقد اظهر صلاح الدين انه يمتلك عبقرية عسكرية متميزة وان فيه مؤهلات رجل الدولة السياسي المحنك والاستراتيجي البعيد النظر والكريم مع جنده وسواهم والزاهد في نفسه ، فهو كان يوزع الغنائم والموارد على جنده وعماله ، ولم يعمل قط في سبيل تكديس الاموال او انفاقها على لذاته أو شؤونه الخاصة.

---

(١) : ابو شامة ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٢٤٠.
- ابن شداد ، المصدر نفسه ،ص ٨٢
- ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج٢ ،ص ٣٢
- احمد بن علي المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك ،ط. القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣ ج١ ، ص ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اضطر صلاح الدين في هذه المرحلة لزيارة مصر لمعالجة بعض القضايا الخطيرة بها ، ولكنه لم يقم هناك طويلا ، بل عاد الى بلاد الشام ليبقى مجاهدا حتى آخر حياته .

لقد اوقف صلاح الدين نفسه على الجهاد ضد الصليبيين وصرف كل ماملكه من طاقات في سبيل التحرير لقد ضايق الصليبيين في كل مكان ولم يدع فرصة الا واغتنمها لانزال الضربات الموجعة بهم . لكنه مع ذلك وجد نفسه مرغما على مواجهة امير الموصل وبعض المتملكين لبلدان الجزيرة واخيرا استطاع سنة ٥٧٦هـ، ١١٨٠م ان ينهي الخلافات مع هوءلاء وان يتفرغ كليا لمواجهة الصليبيين لاسيما في مملكة القدس (١).

ودون الدخول في تفاصيل الاعمال الادارية وغيرها التي اتخذها صلاح الدين في بلاد الشام يكفي القول انه اعد العدة وهيأ السبل التي مكنته من انزال ضربة حاسمة بالصليبيين.

لقد كان مايحتاجه المسلمون هو تحقيق انتصار يدمرون به الموءسسة العسكرية للصليبيين وقبل حطين بفترة طويلة شعر قادة الصليبيين ان وجودهم في القدس والمشرق بات محفوفا بالمخاطر ولقد صور وليم الصوري الواقع الصليبي في بلاد الشام بشهادة وشافية رائعة . فبعدما عرض صورة الاوضاع المتدهورة للصليبيين وعلل ماعانوه من اخفاقات منذ ايام عماد الدين زنكي وقف ليشير الى ما احدثه توحيد صلاح الدين لبلاد الشام ومصر ،فقال : "وهكذا اصبحت كما ذكرت من قبل جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد وتنفذ امر رجل واحد وهي مستعدة لتلبية اوامره فقط ، وان تحمل السلاح حتى على مضض لالحاق الضرر بنا ، ولايوجد احد يجروء على الانغماس في اية نزعة خاصة به او ان يتجاهل بغير افلات من تعرضه للعقوبة أوامر سيده الاعلى صلاح الدين ، وصلاح الدين هذا الذي حصلنا على فرصة لنذكره مرارا ، والذي كان ينحدر من اسلاف متواضعين ومن مركز وضيع يسيطر الآن على جميع هذه الممالك حيث كان القدر قد ابتسم له بلطف كثير ... لقد بدا مرغوبا في رأي جميع " الفرنجة " ..وجوب بذل كل جهد ممكن لمقاومة هذا الرجل الرائع في تقدمه السريع من خلال انتصاراته المتتالية ، نحو القمة العليا الطموحة

---

(١) : ابن شداد ـ المصدر نفسه ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الشعور العام انه قد يبرهن وهو يزداد قوة اكثر فأكثر انه العدو الاشد خطرا واضافة بالنسبة لنا)(١).

لم يعش وليم الصوري ليشهد تحقيق ما تنبأ به بزوال مملكة القدس الصليبية من الوجود على أيدي صلاح الدين إثر نيله للنصر المبين في معركة حطين عام ١١٨٧م .

لقد دمر المسلمون في حطين الموءسسة العسكرية الصليبية التي كانت اداة رعب في المشرق منذ قرابة قرن مضى ، وقام صلاح الدين اثر ذلك باستغلال نصره ،فحرر بسرعة خاطفة وببراعة كبيرة معظم الاراضي والقلاع التي كانت في ايدي الصليبيين بما في ذلك بيت المقدس ، وتمت عمليات التحرير دون سفك كبير للدماء وبلا مغانم ومنهوبات فقد كان صلاح الدين باخلاقه ومبادئه وموارثيه السامية بحكم انتمائه للحضارة العربية الاسلامية العريقة،رجل تحرير ولم يكن رجل عدوان(٢).

ومع نهاية عام١١٨٧م كان مابقي للصليبيين في بلاد الشام لايتعدى شريطا ساحليا ضيقا توزع حول صور وطرابلس وانطاكية،وسعى صلاح الدين الى تحرير هذه المناطق لكنه لم يتمكن من ذلك وصارت الان مدينة صور مركز تجمع للصليبيين في الشرق ومنها جرت مراسلة اوروبا الغربية طلبا للنجدة،وأثارت الانتصارات التي حققها صلاح الدين حملة صليبية جديدة أطلق عليها اسم الحملة الصليبية الثالثة وقد تزعمها ملكا فرنسا وانكلترا وجرت مواجهات قاسية بين قوات هذه الحملة وصلاح الدين

---

(١) : وليم الصوري ، المصدر نفسه ،ج٢،ص ٣٧٥.

(٢) : ابن شداد ، المصدر نفسه ،ص ٤٩ـ ٥٥

- ابو شامة ، المصدر نفسه ،ج٢ ، ص ٧٥- ٨١
- العماد محمد بن محمد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ،ط. القاهرة ص ٣٦- ٥٠.
- مجير الدين العليمي الحنبلي ،الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط . عمان ١٩٧٣، ج١،ص ٣١١- ٣٢١.
- الحنبلي ، المصدر نفسه ،ص ١٢٨ - ١٣٠
- ابن العديم ،زبدة الحلب ،ج٣ ،ص ٨٣٩ - ٨٤٦
- سبط ابن الجوزي - المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٣٨٩ -٤٠٢
- اسماعيل بن عمر بن كثير - البداية والنهاية . ط . القاهرة ١٩٣٢- ١٩٣٣،ج ١٢،ص ٣٢٢- ٣٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمركزت حول مدينة عكا ، وضيق الصليبيون الخناق على هذه المدينة وعندما سلمت اليهم غدر ريتشارد قلب الاسد بالمسلمين فقتلهم جميعا غدرا وخيانة وبذلك اضاف الى السجل الدموي لتاريخ الصليبين في الشرق صفحة مخزية جديدة، وتابع صلاح الدين تصديه للسيل البشري الذي تدفق من اوروبا الى ان تمكن في ٢٣ شعبان ٥٨٨ هـ ٣ ايلول ١١٩٢م من عقد صلح الرملة مع قادة الحملة الثالثة،وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة غادر بعدها ريتشارد عكا عائدا الى أوروبا ، وكذلك فعل فيليب ملك فرنسا كما توجه صلاح الدين نحو القدس ومن القدس ذهب الى دمشق حيث استقر في قلعتها معلنا عن نيته القيام بالحج ، لكنه اصيب بمرض ألزمه فراشه قرابة اسبوعين ، وفيصباح يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة الموافق ٤ اذار ١١٩٣م توفي صلاح الدين ،فعم (القلعة والبلد والدنيا من الحزن مالايعلمه الا الله تعالى ،وبالله – يقول ابن شداد – لقد كنت اسمع من بعض الناس انه يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وماسمعت هذا الحديث الا ضربا من التجوز والترخص الا ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس)(١) .

لاشك ان وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى لعرب الشام ومصر وللعالم الاسلامي اجمع وهو باعتراف جمهرة المؤرخين قديما وحديثا في الشرق والغرب كان اعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ،ومايزال يتمتع عبر العصور بشهرة ومكانة لم ينلها قائد آخر ، فشهرة صلاح الدين في اوروبا قد تكون أعظم منها في الشرق،وجميع الذين كتبوا عنه آشادوا بقوته وعدله وتسامحه وانسانيته .

لقد ترك صلاح الدين خلفه دولة واسعة الاطراف وفراغا كبيرا لم يستطع احد من ابنائه السبعة عشر او اخوانه او ابناء اسرته ان يملاه ، وأصاب ابن شداد بقوله واصفا يوم وفاته انه (لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا

---

(١) : ابن شداد – المصدر نفسه ص ١٧٤– ٢٤٨.
– العماد الاصفهاني ، المصدر نفسه ،ص ٥٢٨ – ٦٢٧.
– ابو شامة ، المصدر نفسه ، ج٢ ،ص ١٩٠ – ٢١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلفاء الراشدين ، لقد انذرت وفاة صلاح الدين بقيام منازعات بين ورثته حول تقسيم التركة الضخمة التي خلفها وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه هنري دي شامبيين ملك مملكة القدس الصليبية يعمل على توحيد صفوف الصليبيين في انطاكية وارمينيا وقبرص وعكا ، ومن إلقاء نظرة سريعة على وضع الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ندرك مدى المخاطر التي كانت تتهدد هذ وتتهدد وحدتها وكيانها ، ذلك ان صلاح الدين اعتمد قبل وفاته على تعيين اولاده حكاما على المناطق الرئيسة في دولته ، كما استعان ببعض أقاربه وكان الملك الافضل نور الدين علي وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازما لابيه عند وفاته فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم ، وكان الملك العزيز عثمان وهو الابن الثاني لصلاح الدين في مصر وقت وفاة ابيه فاحتفظ بها واخذ الابن الثالث الملك الظاهر غازي حلب وجميع اعمالها مع شمالي بلاد الشام ، واختص الملك العادل سيف الدين ابي بكر اخو صلاح الدين بالكرك والشوبك والاردن فضلا عن بعض مناطق الجزيرة وديار بكر.

لقد توزع بقية ابناء صلاح الدين وابناء بيته المناطق الاقل اهمية فأخذ الظافر خضر بصرى وحوران ، واخذ الامجد بهرام شاه ابن اخي صلاح الدين بعلبك ، واخذ المجاهد شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه حمص ، واخذ المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر حماة ، واختص سيف الاسلام طغتكين وهو الاخ الرابع لصلاح الدين باليمن واجزاء من جزيرة العرب .

وعندما توفي صلاح الدين استيقظت مطامع أبناء البيوت القديمة في الجزيرة وغيرها لاسيما افراد البيت الزنكي والارتقي واخذ كل واحد يفكر بمملكة وبالتوسع (١) ، وهذه النظرة السريعة على أوضاع الدولة التي وحدها صلاح الدين تجعلنا ندرك ان الايام عادت سيرتها الاولى وان تمزق البلدان المحيطة بالصليبيين

---

(١) : العماد الاصفهاني ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .
- ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
- أبو شامة ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لن يغر غير المسلمين ، وكان صلاح الدين قبل وفاته قد اوصى بالسلطنة من بعده لابنه الافضل صاحب دمشق ، بمعنى جعله صاحب السلطة العليا في جميع انحاء الدولة الايوبية ، لكن الافضل لم يكن الاختيار المناسب لضعفه وسوء سيرته ، فقد اتهمه ابو الفداء بأنه كان يشرب الخمرة ويقضي ليله ونهاره في اللهو وسماع الاغاني وقال المقريزي : إنه (اقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته) ووصفه ابو المحاسن في نجومه " بالملك النوام " ،لانه احتجب عن الرعية واشتغل باللهو وزاد من كراهية الناس له تخليه عن رجالات أبيه ووضع ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الاثير اخي المؤرخ المشهور ولذلك فرّ المستبعدون من اركان دولة صلاح الدين الى مصر واستعدوا الملك العزيز على أخيه الافضل ، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤م قاصدا الشام وشرع في محاصرة دمشق الأمر الذي جعل الافضل يستنجد بعمه العادل .

من الثابت ان الملك العادل لم يكن راضيا عن نصيبه من تركة صلاح الدين وكان ذكيا ماكرا حاذقا صبورا ، فيه اناة وتؤدة ، ورأى في استنجاد الافضل به فرصة ينبغي عدم تضييعها ، لكنه احتاط للامور فالتقى الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وبالمنصور محمد صاحب حماه ، وبشيركوه صاحب حمص ، وبالامجد صاحب بعلبك واتفق معهم على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق لانهم رأوا ان الاستيلاء على دمشق يهدد ممالكهم جميعا وأدرك العزيز عدم قدرته على محاربة امراء بني أيوب جميعا فانصرف عائدا الى مصر ، وقبل انسحابه اجتمع به الملك العادل خارج دمشق وطيب نفسه واعطاه احدى بناته زوجة له . وصنع معه تسوية احتفظ بموجبها الافضل بدمشق ومعها طبرية وأعمال الغور وأخذ الملك الظاهر جبلة واللاذقية واخذ الملك العزيز بيت المقدس وماجاوره من أعمال فلسطين ، وثبت خلال هذا كله ان العادل هو رجل بني ايوب وانه حريص على وحدة البيت الايوبي والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين ، ويقول ابو المحاسن أن العادل عندما التقى بالملك العزيز قال له : " لاتخرب البيت الأيوبي ، وتدخل عليه الآفة والعدو وراءنا من كل جانب ..... ارجع الى مصر واحفظ عهد ابيك).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثبت ان هذه التسوية التي صنعها العادل كانت موقتة وان ماحدث لم يستفد منه الافضل لتغيير سياسته ، فكان ان خرج العزيز في العام التالي من مصر يريد دمشق ، واستنجد الافضل مجددا بعمه العادل وقام العادل بتحريض امراء العزيز عليه واستمالهم اليه ونجحت خطة العادل فاضطر للعودة الى مصر ، واتفق عدد من الامراء على عزل العزيز عن مصر واحلال الافضل محله واعطاء دمشق للعادل،وجمع الافضل والعادل جيوشهما وزحفا نحو مصر وقبل الوصول الى القاهرة راسل العادل العزيز سرا وطلب منه الثبات لانه-أي العادل شعر ان الافضل لن يسلمه دمشق وأخفقت الحملة وعاد الافضل الى دمشق ، وبسرعة ازداد السخط عليه فيها ، وهنا وجد العادل ان الظروف باتت مواتية لعزل الافضل فذهب الى العزيز عثمان وعقد معه اتفاقية لتحقيق هذا الغرض وفي صيف عام ١١٩٦م سقطت دمشق للعزيز والعادل وحل العادل محل الافضل في دمشق وأخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت مصر له .

لقد تركت هذه النزاعات آثارا سلبية على الدولة الايوبية وآثارت رغبة الصليبين وأطماعهم في استرداد بعض القلاع والحصون ، وفي الافادة من الصراعات بعقد اتفاقات جانبية والحصول على تنازلات من امراء بني أيوب .

وفي عام ١١٩٢م توفي العزيز صاحب مصر وكان ابنه الاكبر محمد في العاشرة من عمره لذا جرى استدعاء العادل الى مصر من قبل بعض الامراء لكن امراء آخرين استدعوا الافضل من حوران وسلموه شؤون مصر ، واثر هذا اتفق الافضل مع اخيه الملك الظاهر صاحب حلب بالعمل ضد عمهما وانتزاع دمشق منه وحوصرت دمشق من قبل جيوش الافضل والظاهر وفي اثناء ذلك الحصار استطاع العادل استغلال سوء تدبير الاخوين فأوقع الخلاف بينهما واشترى ذمم عدد من افراد جيشهما فاضطر الافضل للعودة الى مصر ، والظاهر الى حلب ، ولم يترك الملك العادل الافضل يعود بسلام بل لاحقه الى مصر وتمكن من انتزاع القاهرة منه ، وفي سنة ١٢٠٠م استبد العادل بملك مصر وصار أقوى رجالات البيت الايوبي ،حيث تمكن بعد فترة من انتزاع الاعتراف بسيادته من ابناء أخيه ، ونجح العادل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في توحيد اجزاء كبيرة من الدولة الايوبية من جديد ، وحين اعاد تنظيم الدولة استعان بابنائه كما فعل صلاح الدين من قبله (1)، لذلك كانت هذه الوحدة موقتة ترتبط ببقاء العادل على قيد الحياة .

وازداد في هذه الآونة نشاط الحملات الصليبية حيث كانت الحملة الرابعة التي استولت على القسطنطينية . ثم حملة الاطفال سنة ١٢١٢م، والحملة الهنغارية سنة ١٢١٧م ، وحملة جنادي برين الكبرى ضد مصر سنة ١٢١٨م ، ثم الحملة الصليبية الخامسة واخفقت هذه الحملات جميعا .

وحين جاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك الثاني كان التمزق الايوبي والصراع الداخلي على اشده ،لذلك استطاع فردريك على الرغم من حرمانه كنسيا ومن قلة اعوانه استعادة بيت المقدس من الايوبيين سلما فدخلها في ١٧اذار ١٢٢٩م وتوج فيها ملكا على القدس ، ثم مالبث ان اخذ طريق العودة الى اوروبا.

في هذه الاثناء كانت الاوضاع السياسية في المشرق العربي الاسلامي قد شهدت تطورات كبيرة بسبب ظهور المغول على مسرح التاريخ، ونتيجة للاعمال التوسعية التي قام بها جنكيزخان فقد استولى جنكيزخان فيما استولى عليه على دولة خوارزمشاه . وجاء نحو اطراف الدولة الايوبية فلول الجيوش الخوارزمية . وعلى رأسهم السلطان جلال الدين منكبرتي ولم يكن الخوارزمية أقل عنفا ووحشية من المغول أنفسهم وقد هددوا اراضي الدولة العباسية والممتلكات الايوبية في اعمال الجزيرة وارمينية ، وخلال الفوضى والاضطراب قتل جلال الدين منكبرتي وتشتت قوات الخوارزمية ودخل بعضها الشام كمرتزقة ، وباتت معظم السبل مفتوحة امام المغول للتقدم نحو العراق والجزيرة والشام.

---

(1) : ابن واصل ، المصدر نفسه ، ص٢٧- ٦١.
- ابو شامة ، المصدر نفسه ، ج٢ ،ص٢٢٩- ٢٣١
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ، ص١١٧- ١٤١.
- اسماعيل بن علي ابو الفداء صاحب حماه ، المختصر في اخبار البشر دار المعرفة ، ج٣ ، ص٦٦- ١٠٠.
- يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ط . القاهرة ١٩٢٩- ١٩٣٦ ج٦، ص١١٦- ١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد استخدم امراء بني ايوب الخوارزمية في حروبهم وصراعاتهم على السلطة ، ودون الدخول في تفاصيل هذه الصراعات المدمرة ، يكفي ان نشير الى ان الصالح أيوب تمكن بمساعدة الخوارزمية من استرداد القدس (١). مما أثار قيام الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وجاءت الحملة الفرنسية تريد مصر ، وحققت في البداية بعض النجاحات لكنها اخفقت وفي اثناء التصدي لها توفي الصالح أيوب(٢) وكان حدث وفاته نقطة تحول سياسي كبير في تاريخ مصر وبلاد الشام تحتاج الى وقفة متأنية بعض الشيء لانها خطت بداية النهاية ، نهاية الحكم الايوبي وقيام الحكم المملوكي ، هذا ويلاحظ ان الصراعات بين امراء بني ايوب قد انعكست على اوضاع بلاد الشام ومصر فاضرت بالاقتصاد وسببت هزات اجتماعية متوالية كما أنها أفقدت الايوبيين الاحترام الذي حققه صلاح الدين لهم.

كانت الدولة التي اسسها صلاح الدين قد تبنت ايامه نظام الاقطاع العسكري ولقد ساعد هذا النظام على زيادة التمزقات وتعميقها بعد صلاح الدين ، وبالنظر لاستمرار الصراعات الداخلية بين افراد البيت الايوبي ولعدم توقف التهديدات الصادرة عن الفرنجة وسواهم اضطر امراء بني ايوب الى زيادة حجم جيوشهم عن طريق الرقيق الابيض وعن طريق المرتزقة وكان جل الرقيق الابيض الذي استخدم في جيوش المشرق العربي من اصل تركي .

لقد كان ايضا من جملة النتائج التي نجمت عن الحروب الصليبية ان بلاد الشام ومصر قد شهدتا تطورا كبيرا في ميادين الفنون العسكرية من تسليح وتدريب حيث تحول العمل العسكري الى احتراف خضع لقواعد خاصة للتدريب والترقي في

---

(١) : ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣،ص ١٢٧- ١٧٥.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٢٣٨-٢٤١، ٣٠٥- ٣١٥
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٦،ص ٢٣٣ ، ٣٢٢.
- ابو شامة ،ذيل الروضتين،ج١،ص ١٧٤- ١٧٨.

(٢) : ابن واصل ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٤١ - ٢٥٣
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٢٦٨ - ٢٧٥ ، ٣٣٩- ٣٦٠
- محمدبن علي بن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ،ط. دمشق ١٩٨٢، ص ١٧٦- ١٩٤.
- احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ط .بيروت ١٩٦٩ م ص ١٠٤- ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراتب ، والمستعرض لتاريخ الجنود من اصل تركي منذ ايام المعتصم بالله العباسي يرى ان الخاء ان الاتراك ما ان ملكوا القوة العسكرية حتى تطلعوا نحو السلطة فتمرد بعضهم على أسياده . وسعى بعضهم الى التحكم بالخلافة وظلت سمة التطلع نحو السلطة ملازمة للعسكريين المسلمين ، حتى ان صلاح الدين نفسه كان من هذا الصنف ، فهو ما ان صار سيد مصر حتى اخذ يوسع ملكه ،ومعارك صلاح الدين الداخلية أكبر عددا من معاركه ضد الفرنجة ،ولايعنينا هذا الموضوع بقدر ان نخلص الى ماقاله الباحثون من ان الملك الصالح ايوب (٦٣٧هـ ـ ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٠م ـ ١٢٤٩م) قد اكثر بعدما تسلم عرش مصر من شراء المماليك الاتراك واعتنى بهم عناية لم يفعلها غيره من أهل بيته وأباح لهم عمل كل شيء ارادوه فاعتدوا على اموال الناس وانفسهم مما كاد يؤدي الى الثورة ضده في القاهرة فاضطر الى بناء قلعة خاصة بمماليكه وبه ، بناها وسط جزيرة الروضة على بحر النيل، ومن هنا عرف المماليك الاوائل باسم المماليك البحرية الصالحية (١).

اشرنا قبل قليل الى حملة القديس لويس الذي رأى ان الاستيلاء على مصر يمهد الطريق للاستيلاء على فلسطين واستعادة القدس ، وتصدى الصالح ايوب للحملة الصليبية السابعة التي احتلت دمياط في عام١٢٤٩م ، وفي تلك الاثناء توفي الملك الصالح فاتخذ الملك الفرنسي قرارا بالزحف نحو القاهرة وادى ذلك الى اخفاقه ووقوعه مع جيشه بالاسر في عام١٢٥٠م.

---

(١) : ابن واصل ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٣٢٩ـ ٣٤٠

ـ محمد بن احمد ابن اياس ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ط. القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ،ج١ ،ص ٧٠

ـ المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٣٣٩ ـ ٤٤٠.

ـ الخطط (المواعظ والاعتبار) ط . بيروت ، مطبعة احياء العلوم ج٢ ، ص ١١٦ ، ٢١٧.

ـ ابو الفداء ، المصدر نفسه ، ج٣، ص ١٨٨.

ـ العبادي ، المرجع نفسه ،ص ٦٣ـ ١٤٤.

ـ ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٦ ، ص ٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قام بتسيير امور الدولة في تلك الفترة العصيبة شجر الدر أرملة الصالح أيوب واستدعي في الوقت نفسه نوران شاه بن الصالح أيوب ونصب سلطانا ، لكن هذا السلطان الجديد اخفق في مهمته واغتيل من قبل قادة مماليك ابيه يوم ٧ محرم ٦٤٨هـ/ ٢ أيار ١٢٥٠م وبمقتله انتهى فعليا الحكم الايوبي لمصر ، وتأسست سلطنة المماليك حيث اختير لشجر الدر الامير المملوكي عز الدين أيبك زوجا ونصب سلطانا ، وذلك بعدما حكمت لمدة ثمانين يوما تم خلالها الاتفاق مع الملك الفرنسي فأطلق سراحه فذهب الى عكا ليستقر بها مدة اربع سنوات[1]، ولم يمر تسلم المماليك للسلطة في مصر بدون نتائج وردات فعل كبيرة داخلية وخارجية ففي الشام رفض حكام بني ايوب الاقرار بما حدث في مصر ، وفي مصر تفجرت صراعات دموية بين امراء المماليك اضطرت عددا كبيرا منهم الى ترك مصر الى بلاد الشام حيث نشطوا فيها كمرتزقة وجهد في هذه الاثناء لويس التاسع في استغلال الصراعات والاضطرابات [2] .

بعدما وصل لويس التاسع الى عكا تسلم مسؤوليات الحكم فيها وبات سيدا لمملكة القدس وفي عكا راسل فرنسا وبلدان اوروبا داعيا الى حملة صليبية جديدة ، كما سعى الى استغلال الصراعات لاسيما بين الايوبيين والمماليك واهتم

---

(١) : المقريزي (السلوك) المصدر نفسه ج١،ص ٣٣٩- ٣٦٥
- ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج ٣ ،ص ١٨١- ١٨٢.
- العبادي ، المرجع نفسه ،ص ١١٧- ١٢١
- جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ،ط ، بيروت ١٩٨١، ج٢ ص ٨٥- ٢٨٤.
- Join Ville, The Life of Saint Louis London 1963, PP. 206 - 264, Margaret Wadl, Saint Louis, London 1968, PP.113-131.
- K.M.Setton, A history of the Crusode, Philadephia 1962 - Vol. 2 PP.487521

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٣٦٨ - ٣٨٩.
- ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ١٨٢- ١٨٧.
- نسيم ،المرجع نفسه ،ج٢ ، ص ١٣٩- ١٨٧.
- يوسف غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ،ط.عمان ١٩٨٢ ص ٢٨٨- ٢٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بتقوية قلاع وحصون الممتلكات الصليبية ، وعزز دفاعات عكا ومتن اسوارها فباتت تمتلك سورا مضاعفا تخفره مجموعة من الابراج امتدت على طوله ، وكانت هنالك خنادق حول السور وجهز المرفأ بمنشآت دفاعية وأبراج مدت بينها السلاسل[1]، وهذه التحصينات جعلت من عكا بحكم موقعها مدينة من الصعب اقتحامها برا او بحرا وتحولت عكا الى سوق تجارية دولية وردت اليها بضائع المشرق الاسلامي وبلاد الشام والجزيرة ومصر، وأقام في عكا جاليات تجارية مثلت دويلات ايطاليا التجارية مثل البندقية وبيزا وجنوا مع جاليات تجارية اسلامية وحدث بعدما استولى المماليك على السلطة في القاهرة ان تمكن الناصر يوسف صاحب حلب من الاستيلاء على دمشق فغدا سيدا لمعظم بلاد الشام وهنا عقد العزم على التوجه الى القاهرة لاحياء ملك آله فيها[2]، وخيل للملك الناصر ان عليه التحالف مع عكا الصليبية فراسل الملك لويس وعرض عليه التعاون ضد المماليك مقابل اعطائه مدينة القدس ، وكان هذا العرض مهما جدا للملك لويس ، فمن أجل القدس جاء الى الشرق واستيلائه على القدس كان أقل معانيه غسل عار الهزيمة التي لحقت به ، لكن هذا العرض كان بلاضمانات ولم يكن لدى الملك لويس قوات عسكرية كافية حيث كان في مصر مايزيد من اثني عشر ألفا اسيرا من جنده ، وعندما علم ايبك بأخبار هذه الاتصالات بعث الى الملك الفرنسي يهدده بقتل الاسرى وعرض عليه في الوقت نفسه شروط اتفاق تعدل بنود معاهدة دمياط التي اطلق بموجبهاسراحه بالتنازل له من اموال الفدية المتبقية عليه ، ولم يستجب لويس لمطالب الناصر ولا لمطالب ايبك بشكل مباشر وابقى باب التفاوض مفتوحا مع الطرفين حتى يربح مايمكن ربحه ، ووقف يراقب الصراعات من حوله حتى يستفيد منها الى أبعد الحدود[3].

---

(١) : فولففان مولرفيز ، القلاع ايام الحروب الصليبية (ترجمة عربية دمشق ١٩٨٢) ص ٢٧-٣٠

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٣٦٨- ٣٨٥.
- أبو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص : ١٨٣- ١٨٧.
- العبادي ، المرجع نفسه ، ص :١٢٥- ١٢٩
- غوانمة : المرجع نفسه ،ص ٢٨٨ - ٢٩٩

(٣) : أبو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣،ص ١٩٣- ١٩٥.
- عمر بن الوردي ،تتمة المختصر في اخبار البشر ط،دار المعرفة، بيروت ، ج٢ ، ص ١٨٦.
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٦،ص ١٣.
- ابن كثير ، المصدر نفسه ،ط، القاهرة، ١٩٣٢،ج١٣ ص ١٨٤.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ، ط، القاهرة ١٩٦٣، ج٢،ص ١٠٩
- العبادي ، المرجع نفسه ،ص ١٢٥
- نسيم ، المرجع نفسه (بلاد الشام) ص ١٤٧- ١٥١
- غوانمة ، المرجع نفسه ،ص ٢٩٢- ٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ارسل لويس وفدا الى مصر ونجح هذا الوفد في مفاوضاته فاطلق المماليك سراح عدد كبير من الاسرى وعرضوا التحالف على لويس وهكذا ربح لويس وازداد حجم قواته (١). وقام الناصر يوسف في تلك الاثناء بالزحف نحو القاهرة وسارع ايبك الى التصدي له فهزمه عند بلدة العباسة بين بلبيس والصالحية (٢). واغتنم لويس هذه الحرب فاستعاد مدينة قيسارية ومتن تحصيناتها وتدخلت اطراف عديدة للمفاوضات ففي ربيع الاول لعام ٦٥٠ هـ أيار ١٢٥٢م ابرم المماليك معاهدة جديدة مع لويس ووعدوه بتسليمه القدس مقابل مساعدتهم في الحرب ضد صاحب دمشق وقام لويس بالاستيلاء على يافا وتقدم ايبك نحو غزة يريد احتلالها لتلتقي قواته بقوات لويس، لكن الناصر يوسف بادر الى احتلال غزة والعسكرة فيها فحال بذلك دون اجتماع الفرنجة والمماليك وتجمد الوضع لقرابة عامين تدخلت خلالهما الخلافة العباسية بين الطرفين ونجحت في صفر ٦٥١هـ، نيسان ١٢٥٣م فتمكنت من عقد صلح بين المماليك والايوبيين اعترف بموجبه الناصر يوسف بالحكم المملوكي في القاهرة وتنازل له عن غزة والقدس ونابلس ولم يربح لويس شيئا (٣). ثم ان المماليك لم يتمكنوا من الافادة من الاتفاق لانهم تورطوا في نزاعات داخلية على السلطة اودت بحياة شجر الدر وأيبك وعدد من افراد المماليك الكبار وفي نيسان عام ١٢٥٤م وفي تلك الاونة غادر لويس الاراضي المقدسة الى فرنسا (٤).

---

(١) : نسيم ، المرجع نفسه ،ص ١٥٣- ١٦٣

Join Villa, PP. 281 - 282

(٢) : ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣،ص ١٩٢- ١٩٣.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٣٧٠.
- ابن الوردي المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ١٨٥.
- يوسف بن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ،ط. القاهرة ١٩٥٦ ،ج١ ، ص ٩٠.
- العبادي ، المرجع نفسه ،ص ١٢٦- ١٢٧.
- نسيم ، المرجع نفسه ،ص ١٦٥- ١٧٢

(٣) : ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ١٩٥
- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ط.بيروت، ١٩٥٨،ج٥ ص ٣٦٣.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٣٨٥ - ابو المحاسن ، المصدر نفسه ج٧،ص ١٠
- العبادي ، المرجع نفسه ص ١٢٧- ١٢٨ - غوانمة ، المرجع نفسه ،ص ٢٩٣
- نسيم ، المرجع نفسه ص ١٧٦- ١٨٦
- Join Villa, P.295

(٤) : نسيم ، المرجع نفسه ،ص ١٩٧- ٢٢٣ ، ٢٤٦- ٣٥١
- العبادي ، المرجع نفسه ،ص ١٤١ - غوانمة ، المرجع نفسه ،ص ٢٩٥- ٢٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أظهرت احداث الصراع بين المماليك الايوبيين والاتصالات مع عكا ان المماليك لم يرغبوا آنذاك بالاستيلاء على بلاد الشام وبالحري لم تكن لديهم آنذاك سياسة خارجية واضحة المعالم وكانت همومهم محصورة في نيل الاعتراف الشرعي بحكمهم الذي أقاموه في مصر ، ودخلت بلاد الشام تحت السيادة المملوكية نتيجة لتصدي المماليك للغزو المغولي والانتصار في معركة عين جالوت وقبل التوقف عند الحديث عن عين جالوت مفيد ان نلاحظ ان الحكم المملوكي قد مر بمرحلتين متميزتين عن بعضهما عرفت الاولى بمرحلة حكم المماليك الاتراك وعرفت الثانية بمرحلة حكم المماليك الشراكسة ، وارتبطت بداية كل مرحلة منهما بغزو مغولي كبير اجتاح بلاد الشام.

لايعنينا هنا الحديث عن المغول وامبراطوريتهم ويكفي القول انه في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م استولت جيوش المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان على بغداد وازالت الخلافة العباسية من الوجود ووجهت طعنة قاتلة الى الحضارة العربية وتراثها المجيد ، وبعد بغداد تابع المغول زحفهم فاستولوا على الجزيرة ثم على بلاد الشام شروعا بحلب في صفر ٦٥٨هـ/ كانون الثاني ١٢٦٠م.فدمشق في ربيع الاول ٦٥٨هـ/ اذار١٢٦٠م واجتاحت جيوش المغول الشام الجنوبي وصولا حتى غزة واخذت تعد العدة للزحف نحو مصر(1).

---

(١) : من اجل قيام امبراطورية المغول يمكن الافادة من المصادر والمراجع التالية :

- رشيد الدين فضل الله الهمذاني ،جامع التواريخ ،ط.القاهرة ١٩٦٠.
- عطاء الملك الجويني ،تاريخ فاتح العالم ، ترجمة عربية ،دمشق ١٩٨٥
- بارثولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ،ترجمة عربية دمشق ١٩٨٢.
- رينيه غروسيه ، جنكيز خان ، ترجمة عربية ، دمشق ١٩٨٢.
- جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين بغداد ١٩٦٨.
- مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ط. القاهرة دار الفكر العربي .
- فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ ط ، القاهرة ١٩٦٠.

انظر ايضا :

- العبادي ، المرجع نفسه ص ١٢٨- ١٤١
- غوانمة ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٧- ٢٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي القاهرة حسمت الصراعات على السلطة لصالح الامير قطز وسعى قطز، الى توحيد الجهود وقوى المماليك ضد المغول .

وملك المغول آنذاك امكانات قتالية هائلة مع سمعة بالبطش وسرعة الانتصار ، وفي المقابل كان الجيش المملوكي في مصر قوامه المقاتلين المحترفين وكان بامكانه حشد آلاف من الفرسان والرجالة ورأى المماليك ان المغول اذا مادخلوا مصر سيتولون ابادتهم جميعا ، لذلك عندما راسلهم هولاكو مهددا متوعدا رد قطز عليه بقتل رسله واعلان التصميم على الحرب .

بعدما حشد قطز قواته ارسل طلائعه نحو غزة بقيادة بيبرس البندقداري وتقدم هو على رأس القوات الأساسية سالكا الطريق الساحلي فعرج اولا على عكا لاستطلاع المواقف فيها وللتموين ثم توجه نحو عين جالوت ووقف فرنجة عكا على الحياد ولم يتدخلوا بشكل مباشر في الصراع المغولي المملوكي، وكان هولاكو قد غادر بلاد الشام نحو المشرق بعدما بلغه نبأ وفاة خان المغول فقد كان يطمح في ان يجري اختياره خليفة له ، وناب عن هولاكو في دمشق القائد كتبغانوين ، وزحفت قوات المغول وكان عددها يتجاوز الثلاثين الفا فاجتازت نهر الاردن والتقت بجيش المماليك في منطقة عين جالوت في ارض جرى اختيارها بكل دقة واعدت سبلها ومنافذها قبل وصول المغول وازداد تعداد القوات المملوكية لكثرة المتطوعة من القبائل العربية وعلى الاخص من سكان وقرى وبلدان فلسطين ، وفي منتصف رمضان ٦٥٨هـ / ايلول ١٢٦٠م تمكن الجيش المملوكي من انزال ضربة قاصمة بالمغول دمرتهم وقتلت قائدهم مع عدد كبير من القادة الآخرين . ثم طارد المماليك فلول المغول ومنعوهم من التجمع وأبادوهم تقريبا .

لقد كانت معركة عين جالوت التي وقعت في مثلث من الارض المقدسة ثالثة معارك الاسلام العظمى فهي اخت اليرموك وحطين ولهذا عدت نقطة تحول كبرى في التاريخ العربي والانساني حيث اوقفت مد الغزو المغولي وحولت تياره الى جزر وحررت بلاد الشام وحفظت مصر وصانت المغرب العربي الكبير وقدمت الامن لاوروبا ومنحت القاهرة مكانة الزعامة السياسية للوطن العربي ومركز الاشعاع الفكري بعد سقوط بغداد وهجرة العلماء من ديار الخلافة العباسية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد دخلت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي نتيجة لازالة المغول للممالك الايوبية ، وفي الحقيقة لم تمنح معركة عين جالوت المماليك السلطان على بلاد الشام بل ارست قواعد سلطانهم في مصر وهيأت الفرصة لبناء هيكل الدولة المملوكية وكان الذي تولى هذه المهمة بيبرس البندقداري الذي اغتال قطز بعد انقضاء معركة عين جالوت بفترة وجيزة (١).

واحتفظ المماليك بالتقسيمات السياسية التي ورثوها في بلاد الشام وأبقوا الدولة المملوكية أشبه باتحاد إقطاعات عسكرية متفاوتة الاحجام ، وصارت بلاد الشام تضم عدة نيابات او(ممالك) ارتبطت بالسلطان المقيم في القاهرة.

من المقرر ان بيبرس هو الذي ارسى قواعد أنظمة السلطنة المملوكية وأهتم بيبرس اثناء حكمه بأمن سلطنته التي ملكت ثلاث جبهات رئيسة ،واحدة في مصر،واخرى في دمشق ، وثالثة في حلب ، فقد تعرضت مصر للغزو الصليبي برا وبحرا، وارتبط

---

(١) : عبد الرحمن السيوطي،تاريخ الخلفاء . ط. القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٧٧- ٤٧٩.
- احمد اليونيني البعلبكي ،ذيل مرآة الزمان ،ط. حيدر اباد الدكن ١٩٥٤ ،ج١ ،ص ٣٤٩ - ٣٧٥، ٣٨٠- ٣٨٤
ج٢ ،ص ٢٨- ٣٦
- عبد الرحمن بن اسماعيل (أبو شامة) ذيل الروضتين في اخبار الدولتين ط. بيروت ص ٢٠٨.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٤٢٢ -٤٣١
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٩٩
- ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣ ، ص ٣١٤
- العبادي ، المرجع نفسه ،ص ١٤٧- ١٦٧، ٢٥٤ - ٢٦٨.
- غوانمه ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٩- ٣٠٩
- محمد احمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ط. دمشق ١٩٨١ ، ص ٥٢ - ٥٥.

(٢) : اليونيني ، المصدر نفسه ، ص ٥٣٠ ، ٥٥٠.
- محمد بن علي بن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (قسم لبنان وفلسطين والاردن) ط . دمشق ١٩٦٢ ص ١٢٣ - ٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استيلاء المماليك على السلطة بوقائع الحملة الصليبية السابعة وكانت دمشق تقود جبهة مواجهة مع بقايا الصليبيين في الشام وبات عليها الآن مواجهة الخطـــر المغولي القادم من الشرق ، اما حلب فقد كان عليها التصدي لدولة ارمينيـــا الصغرى وللمغول ايضا ، ويبدو ان السلطان بيبرس رأى ان تتفرغ دمشق لمواجهـــة الخطر المغولي ، لذلك وضع خططا لايجاد قوة اسلامية شامية ترصد فرنجة عكـــا وتتصدى لهم وبناء على ذلك عمد الى تحرير مدينة صفد من الصليبيين وجعلهـــا قاعدة نيابة جديدة في بلاد الشام.

والذي يقرأ اخبار التاريخ المملوكي يجد ان المماليك لم يعرفـــوا الاستقرار ولم يتذوقوا طعم الولاء والاخلاص الدائمين ، لذلك استمرت الصراعـــات وغالبا ما نافس نواب دمشق سلاطين القاهرة سعيا منهم الى الاستقلال وغالبـــا ماكانت الحروب بين دمشق والقاهرة تقع في منطقة غزة كما حدث من قبل بيـــن الايوبيين والمماليك وهكذا ترشحت غزة لان تكون مركز نيابة حاجزة بين الفرقـــاء ومن مزايا الحكم المملوكي ايضا التحالف بين المماليك ورجال الدين الاسلامـــي وتظاهر المماليك باحترام الاسلام وتمسكهم به حيث اكثروا من بناء المساجـــد والمدارس والزوايا ومنحوا مدينة القدس حظا كبيرا من الاحترام تطور مـــع الايام الى تأسيس نيابة خاصة في القدس تمحور حولها تاريخ فلسطين في العصر المملوكي [1]، وكان بيبرس بعدما استولى على السلطة سعيا منه في اضفـــاء الشرعية على حكمه قام ببعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهـــرة وقام الحكم المملوكي الان على فكرة ازدواجية السلطة وتختلف هذه الازدواجيـــة عما شهدته القاهرة وبغداد من قبل حين تحكم الجند بالخلفاء فالوضع الآن كـــان اقرب الى مفهوم السلطة الثنوي لدى الاتراك حيث رأس السلطة خاقان بلا صلاحيات وانحصرت السلطات الفعلية بيد البيك اونائب الخاقان ومثل الخاقان الخليفة فـــي الدولة المملوكية ومثل السلطان البيك[2].

---

(١) : سنتولى بعد قليل معالجة تاريخ كل نيابة من نيابات الشام منفردة بشكل مكثف وهناك سنثبت اسماء جميع المصادر والمراجع .

(٢) : محي الدين بن عبد الظاهر ، الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهـــر ط. الرياض ، ١٩٧٦ ص ٦٨.

- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ط. القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٦-٤٤
- احمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ط. دمشق ١٩٧٧ ص ١٩١- ١٩٤
- م.د. دنلوب تاريخ يهود الخزر . ترجمة عربية ط. بيروت ١٩٨٨ ص ٢١٠- ٢٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد صرف بيبرس جل جهوده وطاقات دولته في سبيل تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وحقق نجاحات واسعة ، حيث حرر صفد اولا بعدما اخفق في تحرير عكا ، ومارس ضغطا شديدا على فرنجة الساحل ، واسترد منهم آرسوف وقيسارية ، كما حرر حصن الاكراد وانطاكية وسعى الى تحرير طرابلس لكن منيته وافته قبل ذلك حيث ترك المهمة لرفيقه في السلاح قلاوون .

لقد توفي بيبرس سنة ٦٧٦ هـ ١٢٧٧م وكان وقتها في ذروة نشاطه ويرجح انه سقي السم وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبر صلاح الدين ، ويلاحظ ان بيبرس حظي بمكانة لدى اهل الشام ومصر لم يحظ بها غيره من حكام المماليك ، حتى ان اخباره تحولت الى ملاحم شعبية امتزجت فيها حقائق التاريخ بالخيال القصصي الملحمي ، فهناك اكثر من ملحمة متداولة تحت اسم السيرة الظاهرية ، او سيرة الملك الظاهر - فالملك الظاهر في هذه الملاحم البطل الشعبي الذي وهب حياته للتحرر والذي لم يقتصر اعتماده في اعمال التحرير على قوات المماليك المحترفة بل اعتمد اعتمادا كبيرا على المتطوعة من بين صفوف الشعب العربي في الشام ومصر(١) . فالشعب العربي في الشام ومصر هو وحده الذي تحمل اوزار ونفقات الحروب الصليبية والحروب ضد المغول حيث صنع السلاح وقدم العتاد وبنى القلاع وكان منه الاداريين والموجهين والذين صربوا المماليك ودمجوهم فيهم .

كان بيبرس قبل وفاته قد رسم في ان ينتقل الملك من بعده لابنه الملك السعيد بركة ، وهذا ماكان بالفعل ، فقد بويع بركة بالسلطنة في القاهرة غير انه كان شابا تنقصه الخبرة والتجربة لم يستطع مواجهة المشاكل وعاش وسط

---

(١) : ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ .
- ابن كثير - المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص ٢٦٣ .
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ١٥٧ - ٣٠٠
- اليونيني ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٥٣ - ٨٦
- محي الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ط . القاهرة ، ١٩٦١ ص ٨٢ .
- عبد الرحيم بن الفرات - تاريخ ابن الفرات ط. بيروت ١٩٤٢ ج٧ ، ص ٢٠٤
- المقريزي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٦٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صراعات ارفعته بعد بضعة اشهر على تخليه عن عرش السلطنة لاخية سلامش وكان طفلا في السابعة من عمره ، وبات الان سيد الدولة الفعلي الامير قلاوون الالفي واستطاع قلاوون ان ينجح في تمتين نفسه فألقى بخصومه في السجن وتخلص من معارضية ثم عزل سلامش وتسلم السلطنة بلقب المنصور ، وبذلك حلت أسرة قلاوون محل اسرة بيبرس وحكمت هذه الاسرة دولة المماليك الاتراك قرابة قرن من الزمن ، وصبغت العصر بصبغتها(١) .

في سنة ٦٧٩ هـ - ١٢٨٠ م وجد قلاوون نفسه يملك الفرصة للتوجه نحو بلاد الشام ، فركب الطريق الساحلي وتهدد في طريقة عكا ، ثم مالبث ان عقد مع استباريتها هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة اشهر ، ثم جدد هدنة مماثلة مع صاحب طرابلس ومع بقية قوى الصليبيين في بلاد الشام(٢)، ويبدو ان الذي اثر على قلاوون واضطره لعقد اتفاقات الهدنة مع الصليبيين تزايد المخاطر المغولية ضد بلاد الشام ، وحوفظ على الهدنة حتى سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م حيث شهدت طرابلس مدة احداث اعتبرت ناقضة للهدنة ، فقام قلاوون بالتوجه من القاهرة نحو طرابلس ، وحاصرها بقوات الشام ومصر حتى حررها عنوة في ٤ ربيع الاخر ٦٨٨ هـ / ٢٤ نيسان ١٢٨٩م(٣) وبتحرير طرابلس ازيلت من الوجود المملكة الرابعة

---

(١) : ابن عبد الظاهر ، المصدر نفيه (تشريف) ص ٢١٠- ٢١٢
- ابن الفرات المصدر نفسه ج٧،ص ٢٠٥
- اليونيني ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٥٣ ، ٨٦
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ، ص ١٦٨٥

(٢) : ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه (تشريف) ص ٣٤ ، ٤٣
- ابن الفرات ، المصدر نفسه ج ٧،ص ٢٦٢- ٢٧٠٠
- اليونيني ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٩١ ، ٩٤
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٧ ، ص ٣٤٨
- ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ١٤-١٦
- احمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٨ ج١٤،ص ٥١٠

(٣) : ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه (تشريف) ص ١٤١
- الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه ط ، القاهرة،١٩٧٦ ،ج١،ص ١٢٢ - ١٢٣ ٠
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٧٤٥ - ٧٤٧
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٣٢٠
- ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٣-٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي اسسها الصليبيون في المشرق ، ولم يعد للصليبيين غير عكا التي استمـــرت تتلقى النجدات المتنوعة من أوروبا ، انما تعلق الان مستقبلها بأوضاع السلطنـــة المملوكية الداخلية وبحجم المخاطر المغولية ، هذا وقد كان قام للمغول علاقات مع الصليبيين ودول أوربا ، وخططت الأطراف لمشاريع مشتركة ضد المسلمين فـــي بلاد الشام لكنها لم تثمر ، فقد قام قلاوون باعداد العدة لاجتياح عكا وعندمـــا قرر الزحف ضدها أصابه المرض وتوفي يوم ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ / ١٠ تشرين الثانـــي ١٢٩٠م ، واستطاع ابنه الأشرف خليل أن يسيطر على السلطنة بسرعة وبادر علـــى الفور بالتوجه ضد عكا .

يحدثنا أبو الفداء الذي كان جنديا في القوات التي توجهت من حمـــاة نحو عكا ان الزحف بدأ في ربيع الاول سنة ٦٩٠هـ/ آذار ١٢٩١م وأن الاستعـــدادات كانت كبيرة جدا ، وكان مع الجيش المملوكي قرابة المائة من المنجنيقات المختلفة الأنواع ، وفي أيار من السنة نفسها هاجمت قوات المسلمين عكا ، انما من البـــر فقط وقاوم الصليبيون داخل عكا ووصلتهم بعض المساعدات من قبرص ، لكن بـــدون فائدة فقد تمكنت قوات السلطان الاشرف خليل من اقتحام المدينة وتحريرهـــا نهائيا(1)، وبهذا العمل الرائع طويت أطول ملحمة للصراع بين الوطن العربـــي وأوروبا الصليبية ، واستطاع الوطن العربي بفضل تماسك الجبهة الشاميـــة المصرية ان يدحر اوروبا وان يبدأ مسيرة جديدة وأزال تحرير عكا الاحتـــلال الصليبي لكن اوروبا استمر حكامها حتى هذه الايام يحملون في طيات انفسهـــم فكرة حملات صليبية بأشكال وأنواع جديدة ، فحملات الاستعمار الاوروبي الحديـــث استطاعت أن تزرع في قلب الوطن العربي الكيان الصهيوني ولاشك ان يوم التحريـــر سيأتي عندما تتوحد الأمة العربية ..تقودها ارادة الشام ومصر الواحدة.

---

(1) : أبو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٤،ص١٤ـ ٢٦
- ابن الفرات ، المصدر نفسه ،ج٨ ،ص ١١٠ ـ ١١٤.
- ابن حبيب ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٣٧ ـ١٣٩.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ، ص ٧٦٤ـ ٧٦٦
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٥ـ١١
- ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج١٣،ص ٣٢٠ـ ٣٢١.
- محمد بن احمد بن قايماز الذهبي ، دول الاسلام ط. القاهرة ،١٩٧٤. ج ٢ ، ص ١٨٩ـ ١٩٢.
- محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ط ، القاهـــرة ١٩٤٧،ص ٢٤١ـ ٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد العرض الموجز لأخبار العصرين الأيوبي والمملوكي حتى أيام الأشرف خليل بن قلاوون يحسن ان نتفرغ للحديث عن أوضاع بلاد الشام في ظل السلطنة المملوكية كنيابات أولا ..

قسم المماليك بلاد الشام الى ثمان نيابات هي : دمشق ، حلب ، صفد طرابلس ، الكرك ، القدس ، غزة ، حماة ، وهذا التقسيم جاء خلال العصر المملوكي بشكل تدريجي ولم يتم دفعةواحدة ، وبعض النيابات وجدت جذورها أو كياناتها قبل قيام العصر المملوكي مثل دمشق وحلب وحماة والكرك وبعضها الاخر أوجده السلاطين المماليك مثل صفد ، وطرابلس ، وغزة ، والقدس .

" نيابة صفد "

تمت الاشارة من قبل الى تحرير السلطان بيبرس لصفد من الصليبيين ، واتخاذها مقرا لنيابة أو (مملكة) لها كيانها الذاتي وفقا للاعراف التي أخذ بها العصر الايوبي ، لقد عين بيبرس لصفد واليا ولقلعتها حاكما وترك فيها حامية عسكرية ، وكان والي صفد نائبا للسلطان مرتبط به مباشرة ويقوم النائب مقام السلطان في جميع الأحوال ، ولم تمتلك نيابة صفد في البداية حدودا واضحة لكن بعدما حررت عكا أصبحت حدودها كما جاء عند ابن فضل الله العمري (توفي ٧٤٢ هـ / ١٣٤١م) في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف الذي هو أقدم كتاب معروف في بابه ، قال العمري : (واما بلاد صفد فحدها من القبلة الغور حيث جسر الصنبرة من وراء طبرية ومن الشرق الملاحة الفاصلة بين الشقيف وبين حولة بانياس ومن الشمال نهر ليطة (الليطاني) ومن الغرب البحر)(١)..

والمآخذ على العمري في روايته هذه انه جعل الليطاني حد المملكة الشمالي مع أن الشقيف ومرجعيون وقعت الى الشمال من هذا النهر ..ويستخلص من مختلف المصادر الادارية أن حدود نيابة صفد كانت في أقصى اتساعها خلال العصر المملوكي كمايلي : حدها من الغرب البحر المتوسط ومن الشمال نهر الزهراني ومن الشرق مرجعيون امتدادا حتى نهر الحاصباني ثم مجرى نهر

---

(١) : شهاب الدين بن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ط. القاهرة ١٣٤٢هـ ،ص ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاردن حتى جسر الصنبرة ومن الجنوب أطراف مرج ابن عامر حتى البحر المتوسط[١]، وشغلت هذه الاراضي مكانا استراتيجيا في وسط الشام الجنوبي وامتلكت موارد وامكانات مكنتها من شغل دورها في مواجهة مملكة عكا والممتلكات الصليبية على الساحل وحوت هذه الاراضي سهلا ساحليا وبعض الهضاب والمرتفعات الجبلية مع عدد من السهول الداخلية بما في ذلك الغور ، وكانت تمتلك عددا من الموانئ في صور والناقورة وعكا وعثليت ، وتوفرت المياه والمزروعات وسمح الساحل بالاتصال الخارجي والنشاط التجاري وأخذت صفد هذا الشكل كما هو مرجح بعد سنة ٦٩٠ هـ - ١٢٩١م وهي السنة التي حررت فيها عكا وأزيل الوجود الصليبي من الشام ، وتألفت نيابة صفد من عدة أقسام ادارية ، ومن المفيد أن نذكر هنا ان البنية الادارية في نيابة صفد كانت تتشابه من حيث الجوهر مع البنية الادارية لكل نيابة من نيابات الشام[٢]، وازدهرت الاوضاع في صفد زراعيا وتجاريا وحرفيا وعلى الأخص أثناء تمركز الجيوش فيها أو مرورها بها قبل تحرير عكا ، كما أن صفد استطاعت ان تشغل دور الوسيط التجاري بين دمشق والقاهرة ،وعلى الرغم من توفر النشاط التجاري والحرفي في نيابة صفد فقد ارتبط اقتصادها بالأرض كما الحال في بقية بلدان الشام والشرق ، ففي تاريخ بلاد الشام في مختلف العصور كانت الدولة هي الملاك الاكبر للأرض لذلك توجب عليها انشاء القنوات والسدود والترع ، وبالمقابل حصلت الدولة على منتجات الارض بمختلف الطرق ، وشكلت المنتجات المورد الرئيسي للدولة . وفي أوائل تاريخ الاسلام كانت منتجات الارض من المواد العينية تشكل الجزء الاكبر من أعطيات الجند ،

---

(١) : خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ط . باريس ١٨٩٤،ص ٤٤.
- محمد بن ابي طالب الأنصاري - شيخ الربوة . نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ،ط. لايبزغ ١٩٢٣،ص ٢١٠- ٢١٢ .
- العمري ، المصدر نفسه ،ص ١٨٢.
- القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ١٥٠.
- محمد بن عبد الرحمن العثماني ، تاريخ صفد (قطعة منه نشرها المستشرق برنارد لويس في دورية معهد الدراسات الشرقية والافريقية ،جامعة لندن ١٩٥٣) .
ص ٤٨٠- ٤٨٨.

(٢) : العثماني ، المصدر نفسه ص ٤٨٠- ٤٨٨.
- طه ثلجي الطراونة ، مملكة صفد في العصر المملوكي ،ط. بيروت ١٩٨٢ ص ٨٤- ١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انما عندما صار الجند المتحكمين بالدولة على الاخص منذ العصر البويهي تصرف هوءلاء بالارض وصاروا ملاكا ومستغلين لها مقابل تأديتهم لوظائفهم العسكرية وعد هذا بداية لما عرف بالاقطاع العسكري وتطور هذا النظام في العصر السلجوقي وأرسيت قواعده. وحمله السلاجقة الى البلدان التي حكموها ولقد ورث الايوبيون هذا النظام واورثوه للمماليك . وترافق هذا الاقطاع في تطوره مع قيام " اقطاع آخر هو الاقطاع الديني ، فقد حصرت الوظائف الدينية في كل مدينة بأسر محددة أخذت تتوارث الوظائف كما توارث الجند الاقطاعات ، وكما سيطر الاقطاع العسكري على جزء ممتاز من الأراضي سيطر الاقطاع الديني على ماتبقى من الأراضي الصالحة التي عرفت باسم الأوقاف ولم يكن الاقطاع العسكري تمليكا بل استغلالا للارض فالارض حلت محل الأعطيات ولذلك غالبا ما حملت اسم الخبز او الأخباز ، ومع ان القاعدة في النظام الاقطاعي العسكري عدم التوريث ، لكن كثيرا ماخرقت هذه القاعدة واختلت الموازين مما دفع بعض السلاطين الى اعادة النظر في أوضاع الا راضي ومسحها واعادة توزيعها وهو ما أطلق عليه اسم الروك ، هذا ويلاحظ ان السلطنة المملوكية عمدت في بعض الأحيان الى تكليف بعض مشايخ القبائل البدوية بمهام ذات سمات عسكرية لذلك جرى منح بعض المشايخ اقطاعات لكن هذه الاقطاعات غالبا ما اعتبرت تمليكا يمكن توريثه (١)، والذي يعنينا هنا ليس الاستمرار في شرح تفاصيل نظام الاقطاع العسكري بقدر مانريد التوصل اليه من أن الاقطاع العسكري وانظمة استغلال الارض وادارتها في بلد قوام حياته الاقتصادية مرتبط بالارض كان له انعكاسات حادة على الحياة الاجتماعية وعلى جميع انماط العلاقات بين فئات المجتمع .. فالضغط الاقتصادي دفع بعض فئات المجتمع لاسيما

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٤١٥ ، ٨٤١.
ج٢ ، ص ١٢٧
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٨،ص ٩٠.
- سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ط. دمشق ١٩٧٣. ص ٦٥، ٢١٥.
- ويروى ان اول روك تم في العصر المملوكي أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، ١٢٩٧ م ، وتم الروك الثاني وهو الاكثر شهرة أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٧هـ، ١٣١٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اصحاب الحرف الى التكتل وتكوين طائفة اجتماعية متميزة حتى ان مجتمع بلاد الشام كما سنرى تكون من عدة فئات جمعها الاختصاص والحرفة أو بعبارة أدق تكون من عدة أصناف جمع صنف .

عاش الفلاحون ظروفا سيئة جدا ، فهم وان لم يعتبروا اقنانا للأرض لم تكن أحوالهم أحسن من أحوال الاقنان . يقول التاج السبكي (ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لايد لآدمي عليه وهو أمير نفسه ، وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعود الى القرية قهرا ، ويلزم بشد الفلاحة والحال في غير الشام أشد منه فيها)(١).

ووصف الشاعر الصفدي عمر بن احمد بن عبدالله بن حلاوات أوضاع الفلاحين في بلدته بقوله :

ياقاصدا صفدا فعد عن بلدة	من جور يكتمر الامير خراب
لاشافع تغني شفاعته ولا	جان له مما جناه متاب
حشر وميزان ونشر صحائف	وجرائد معروفة وحساب
وبها زبانية تبث على الورى	وسلال ومقارع وعقاب
مافاتهم من كل ماوعدوا به	في الحشر الا راحم وهساب(٢)

ومن الملاحظ أن الفلاحين عاشوا بلا حماية من اي نوع من الانواع ، ولئن تمكن اصحاب الحرف والمصالح في المدن من اقامة اتحادات خاصة بهم (أصناف) لم يتمكن الفلاحون من صنع أي نوع من انواع الاتحادات بل على العكس كان الاقطاعيون والملاك متحدي المصالح ضد الفلاحين ويبدو أنه لم تقم علاقات تنظيمية بين الفلاحين والأصناف في المدن ، والفلاحون الذين كانوا ينجحون في الهجرة الى المدن كانوا ينسلخون من ماضيهم رغبة ورهبة ويسعون للاندماج في حياة المدينة الجديدة عليهم .

---

(١) : عبد الوهاب السبكي ـ معيد النعم ومبيد النقم ـ ط، بيروت ١٩٨٣ ص ٣٤

(٢) : احمد بن علي بن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،طبعة مصورة ـ بيروت ـ دار الجيل ـ ج٣ ،ص ١٥١ـ ١٥٢.

(٣) : طراونة ، المرجع نفسه ،ص ١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان لكل اقطاعي وكلاء يشرفون على الأعمال الزراعية في اقطاعاتهم ويداومون الاقامة في القرى مع اقتراب نضوج المحصولات ،فيشرفون على أعمال الجني والحصاد والنقل الى البيادر كما يشرفون على أعمال الدراسة والتزرية ومن ثم يتولون قسمة المحاصيل وتوزيعها الى حصص ، وقضت أعراف العصر أن يتقاضى الفلاح نصف المحصول لكن هذا لم يتعد الواقع النظري فبعد مشاطرة الفلاح بالمحصولات يحصل منه معظم حصته بحجج مختلفة مثل دفعه فوائد الديون عليه أو كغرامات نتيجة تقصيره في زراعة بعض الارض والذي يبقى للفلاح في النهاية ربما كميته دون العشرة بالمائة وهذا المتبقي كان يحذف منه ضريبة الصدقة حسب ماقضت الشريعة الاسلامية [1]، خلاصة القول إن الفلاح لم يكن يحصل من الغلال على مايكفيه للمحافظة على رمق الحياة . ودفع سوء الأحوال العامة الفلاحين الى الهرب من مناطقهم الى مناطق أخرى أو الى المدن مما قاد الى نتائج اقتصادية سيئة والاسوأ فيها الانعكاسات الاجتماعية فقد عاش في أطراف مدن الشام فئات طارئة على المدن في أحوال وشروط صعبة الأمر الذي قاد نحو الاضطرابات والى انتشار العنف وانعدام الاستقرار والامن وظاهرة مايعرف في أيامنا باسم نطاق المحرومين مازالت تميز معظم مدن بلاد الشام.

ان هذه القضايا سندخل في تفاصيلها في فصول الرسالة المقبلة وسنحاول أيضا البحث في أوضاع سكان البوادي حيث ان المصادر قد بخلت في تقديم مايكفي من أوضاع الفلاحين لكن قدمت مايفيد في التوصل الى رسم صورة مجملة لاوضاع سكان البادية وعلاقاتهم بالفلاحين وبسكان المدن . لقد انعكست اعمال العصيان وعدم الاستقرار في أي بقعة من بقاع السلطنة المملوكية على بقية المناطق وغالبا ما لجأ المماليك الى استخدام السلاح لفض النزاعات فيما بين بعضهم بعضا ،والحرب كانت تدمر الارض والزراعة

---

(١) : أحمد بن عبد الوهاب النويري ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ القاهرة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ،ج٨ ،ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والامكانات الاقتصادية .ولجأ المماليك في كثير من الحالات الى مصادرة الفلاحين للمشاركة في القتال او لتقديم الخدمات للجند من قتالية وسواها كما أن السلطنة المملوكية ابتليت ببيع المناصب والرشوة ، المناصب العسكرية والادارية والدينية والقضائية حتى انها أقامت ديوانا مركزيا عرف باسم ديوان البذل ، وكان لأعمال الرشوة وبيع المناصب أسوأ الآثار على جميع فئات المجتمع ، فقد لجأ كل وال من الولاة الى جمع الاموال بأية وسيلة من الوسائل لاسترداد ثمن المنصب أو لشراء منصب جديد مما كان أبسط معانية المصادرات المستمرة والسلب (للمواطنين)(١) ودفع هذا بعض المواطنين الى تقليد رجال السلطة أو التعاون معهم ، ودفع الشرائح الأكبر من المجتمع الى التكتل للدفاع عن الذات لذلك باتت كل مدينة تحوي تنظيمات شعبية لها صفة عسكرية مثل الزعر والحرافيش ، ويعنينا كثيرا نشاط هذه التنظيمات والأسباب التي حالت دون تطورها لترث النظام المملوكي المتهاوي ولتقيم حكومات شعبية ، سنسعى قبل الاستطراد في مناقشة هذه الموضوعات وسواها أولا الى استكشاف التعرف الى بقية نيابات بلاد الشام .. لكن قبل الاقدام على ذلك من المفيد ان نوضح ان كل نيابة من نيابات بلاد الشام عاشت فيها فئات من الجند كان من مهامها الحفاظ على الامن والدفاع وعرفت كل نيابة مختلف الرتب والمناصب العسكرية مثل منصب الحجابة والشحنة وبعض الوظائف المدنية كمنصب الدوا دار"ممسك الدواة " والخزندار وهو المسؤول من خزائن السلاح والمال والعتاد،وكذلك وجد في كل نيابة ديوان للانشاء والبريد مع الوظائف الدينية من قضاء وحسبة ونظر بالأوقاف وغير ذلك (٢)، واذا ماتوقفنا مع الادارات المدنية والعسكرية نرى أنها كانت مقامة لنفع رجالات السلطة وليس لتقديم الخدمات للمواطنين ، وليس ايضا لتسهيل سبل الاتصال بين الحاكم

---

(١) : أبو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج١١ ، ص ٢٩٢
وتناول الدكتور أحمد عبد الرزاق أحمد موضوع الرشوة في العصر المملوكي في كتاب مفرد دعاه " البذل والبرطلة " ط.القاهرة ١٩٧٩.

(٢) : يعد كتاب صبح الاعشى للقلقشندي أوفى مصدر عن الحياة الادارية في العصر المملوكي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمحكوم ، لاشك آن هذا ترك أبعد الآثار على المجتمع الشامي بمختلف فئاته لقد أوجد هذا هوة سحيقة من الكراهية وعدم الثقة بين السلطة والشعب ومازال حتى الان يردد الناس في كل بقعة من بقاع الشام حاكمك ظالمك والتعرف الى جذور وأصول البلاء أمور تساعد الآن على ايجاد افضل الحلول الناجعة .

كان غالبية السكان في بلاد الشام مسلمين وكان هناك اعداد كبيرة من المسيحيين وأقل منهم بكثير من اليهود ، وقد انعكست أحوال التمزق على جميع الفئات من مسلمين وغير مسلمين فالمجتمع الشامي لم يعان في هذه المرحلة من التمزقات الطائفية بقدر ماعانى من الصراعات بين أتباع مذاهب السنة الأربعة الشافعي ، والحنفي ، والحنبلي ، والمالكي مضافا اليها صراعات طوائف الصوفية .. وانحدر سكان بلاد الشام في غالبيتهم الساحقة من الاصل العربي ومع هذا كان هناك بعض التركمان والأكراد وبعض البقايا من الجركس والمغول ، عاشوا في وسط الناس متميزين بعض الشيء لكنهم بالنهاية ذابوا بشكل طبيعي بين صفوف الغالبية العظمى من العرب .

" نيابة غزة "

تقع مدينة غزة في الشطر الجنوبي الغربي لبلاد الشام وتطل أراضيها على البحر المتوسط وهي آخر بلاد الشام باتجاه مصر ، وتتمتع هذه المدينة بمكانة خاصة فقد كان المسافر من مصر الى الشام يتوقف فيها قبل دخوله مصر ، وأراضي غزة سهلية مشبعة بالرطوبة وتتلقى كميات وافية من الامطار وهي على العموم معتدلة الحرارة ، قد قام فيها عدة مدن هي الأهم بين مدن فلسطين الساحلية مثل عسقلان ويافا وقيسارية والعريش والداروم ، وكانت صحراء سيناء تابعة لغزة ، وكان سكان غزة موزعين بين حضر وفلاحين وبداة . وكان للبداة دورهم المتميز في صحراء سيناء وغيرها ولعل ضخامة حجم القبائل البدوية في غزة والنشاطات العسكرية لهذه القبائل كانت على رأس الأسباب التي دفعت بالسلطات المملوكية الى تأسيس نيابة مستقلة في غزة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقبل العصر المملوكي شغلت غزة دورا متميزا في فترة الحروب الصليبية وفي اثناء الصراعات الأيوبية المملوكية وأسهم هذا في رفع قيمة هذه المدينة وكان من الاسباب الاضافية التي حدت بالمماليك الى تأسيس نيابة فيها ، ومن المرجح ان الناصر محمد بن قلاوون هو الذي رفع غزة الى مرتبة النيابة المستقلة وأن ذلك كان سنة ٧١١هـ / ١٣١١م اثر عودته من الكرك الى عرش السلطنة في القاهرة ويستفاد من بعض الروايات التاريخية أن المنصور قلاوون هو الذي فكر في جعل غزة نيابة مستقلة وأن ابنه الناصر قد ترجم مافكر به أباه ونفذه (١)، وتاريخ غزة خلال العصر المملوكي كان بلا حوادث مثيرة وقد تركز الى أبعد الحدود على زيارات بعض السلاطين لها اثناء توجههم الى بلاد الشام أو عودتهم الى مصر . ويمكن ان نضيف الى ذلك حملات التأديب ضد القبائل البدوية (٢)، وامتلكت هذه النيابة كما امتلكت بقية النيابات فروع الادارات العسكرية والمدنية لكنها لم تشهد نشاطاً ثقافيا متميزا كالذي شهدته القدس فقد زارها الرحالة العبدري أيام الأشرف خليل بن قلاوون فقال في وصفه لها : (وغزة مدينة متسعة عامرة لاسور لها وبينها وبين البحر مسافة أميال وهي أكثر عمارة من كل ماتقدم ذكره في بلاد الشام وهي جسر الى مصر والى الشام وبها اسواق قائمة ومساجد معمورة ولها جامع مليح حسن ،ولكنها قد عريت من عالم أو متعلم وأقفرت من فقيه ومتكلم فهي عامرة وقائمة داثرة)(٣).

---

(١) : ابو عبدالله محمد بن محمد العبدري ـ الرحلة المغربية ط. الرباط ١٩٦٨ ،ص ٢٣٣.
- محمد بن عبدالله اللواتي (ابن بطوطة) رحلة ابن بطوطة. ط. القاهرة ١٩٥٨ ،ج١ ،ص ٣١.
- ابن شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ٢١٣.
- أبو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ١٨٣.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٦٩٩ ـ ٧٠٠
- فضل الله السقاعي ، تالي وفيات الاعيان ط.دمشق ١٩٧٤،ص ٩٩
- اليونيني ، المصدر نفسه ،ج٢،ص ٥٦،ص ١٣٩.
- ابن خلدون المصدر نفسه ،ج٥،ص ٧٨٧ـ ٧٨٩،ص ٨١٦.
- ابن شداد . المصدر نفسه (قسم لبنان والاردن وفلسطين) ص ٢٦٦

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٦٩٩ـ ٧٠٠

(٣) : العبدري ، المصدر نفسه ،ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اننا سنتناول أوضاع القبائل في نيابة غزة في الفصل المخصص لقبائل بلاد الشام ، لكن يبدو من بعض النصوص ان غزة اتسعت بعدما صارت نيابة اتساعا كبيرا فقد روي انها عندما تعرضت سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م لطاعون الموت الاسود مات فيها في عدة أشهر مايزيد عن اثنين وعشرين الف انسان، واذا صحت هذه الرواية ففيها موشر ليس على فداحة مانزل بغزة بل على أن عدد سكانها كان كبيرا جدا ،وتعرضت غزة مثلما تعرضت غيرها من نيابات بلاد الشام الى بعض الجوائح من جراد أو شح في الامطار أو سيول كبيرة ودفع هذا الى هجر الارياف الى المدن لابل اكثر من ذلك ان النوازل ومخاطر الغزو الخارجي كثيرا مادفعت اعداد كبيرة من سكان بعض المناطق الشامية في المدن والأرياف الى الهجرة ،فعندما اجتاح المغول حلب ، هاجر شطر كبير من الحلبيين الى دمشق وقبل وصول المغول الى دمشق كان بعض هوءلاء الحلبيين مع بعض سكان الشام قد فروا مهاجرين الى مصر مثلما فصل موءرخ حلب الكبير الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم(١).

" نيابـة القـدس "

من المعروف أن الأجزاء الكبرى من فلسطين قد جرى احتلالها من قبل الصليبيين وأن الصليبيين عمدوا الى ابادة سكان المدن التي دخلوها ولاسيما سكان مدينة القدس ، وبعدما حرر صلاح الدين الايوبي مدينة القدس سنة ١١٨٧م ، جلا عنها غالبية سكانها اللاتين وشرع العرب في سكناها ، لكن الاستقرار فيها تعرض بعد صلاح الدين الى هزات متوالية وأشرنا من قبل الى تخلي الايوبيين عن المدينة لصالح الصليبيين كما ان القدس تعرضت للغزول المغولي الذي اجتاح

---

(١) : عمر بن احمد بن العديم ،بغية الطلب في تاريخ حلب ،ط . دمشق ١٩٨٨ ج١ ،ص ٩-١٣.
- ابن الفرات ، المصدر نفسه ،ج٨ ،ص ١٥٤.
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ١٠٣١ - ١٠٤٥.
- أبو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج١٢ ،ص ٢١٨- ٢٤٦.
- أحمد بن علي بن حجر - انباء الغمر بأنباء العمر ط. القاهرة ١٩٦٩ ، ج٢ ،ص ١٣٤- ١٣٧ .
- علي بن داوود الصيرفي ،نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ط . القاهرة ١٩٧١ ،ج١،ص ٧٤- ٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلاد الشام بقيادة هولاكو ، وبدأت القدس تنعم بالاستقرار اثر دخولها تحت السيادة المملوكية ، وقد اولاها سلاطين المماليك مع مدينة الخليل عناية فائقة وأكثروا من زيارتها واهتموا بانشاء المرافق التعليمية والدينية والمعاشية فيها وأوقفوا على هذه المنشآت الأوقاف الكثيرة ، وكانت مدينة القدس منذ أن حررها صلاح الدين تتبع دمشق وهكذا ظل وضعها اداريا في مطلع العصر المملوكي ، لكن منذ أيام السلطان قلاوون أخذت تخطو نحو الاستقلال لتصبح نيابة بين نيابات الشام[1]، وطال الوقت حتى استقلت ففي سنة ٧٦٧هـ ١٣٦٥م ، أصبحت بمرتبة طبلخانة ، وفي سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م جعل منها السلطان برقوق نيابة مستقلة واتخذ برقوق قراره هذا بسبب النزاعات الداخلية التي شهدتها السلطنة المملوكية اثناء انتقال السلطة من المماليك الاتراك الى المماليك الشراكسة وبسبب ظهور تيمور وتعاظم خطره على بلاد الشام ومثل غيرها من النيابات امتلكت نيابة القدس جميع فروع الادارات المدنية والعسكرية مع الوظائف الدينية علما بأن الوظائف الدينية فيها كانت موضع اهتمام ورعاية اكثر منها في غيرها من النيابات ، والمتعمق في دراسة تاريخ فلسطين في العصر المملوكي يخلص الى أن ظهور الشخصية الفلسطينية التي محقها الغزاة الصليبيون قد تم في مدينة القدس وأن القدس التي عاد الناس الى سكناها واعمارها والعيش فيها بأمن وأمان شهدت تجربة اجتماعية جديدة من نوعها حين تقاطر اليها السكان من جميع انحاء فلسطين ومن مصر وبقية ولايات الشام مشكلين مجتمعا كان النموذج بالنسبة لبقية مناطق فلسطين التي حررها العرب من الاحتلال الصليبي وعادوا الى سكناها[2].

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٤٤٥، ٤٩١.
- ابو المحاسن ،ج٩ ،ص ١٢١ ، ١٩٤.
- العمري ، المصدر نفسه ،ص ١٧٦- ١٨١.
- القلقشندي ،ج٤ ،ص ٩٧- ١١٤ ، ١٩٧- ١٩٩.
- ابن حجر (الدرر) المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٧٦٧.
- مجير الدين العليمي الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ط.عمان ، ١٩٧٣،ج٢ ،ص ٤٤، ٤٣٣- ٤٣٤.
- محمد بن طولون الصالحي ، اعلام الورى بمن ولي من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ،ط . دمشق ١٩٦٤،ص ٣٨- ٤١.

(٢) : العليمي ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٦٩-٧٠ ، ٧٨- ٧٩
- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ،ط. بيروت ١٩٦١،ج١ص ٢٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تشهد نيابة القدس خلال العصر المملوكي أحداثا سياسية متميزة وقد طغت النشاطات الدينية والتعليمية على الحياة فيها وكانت اسواقها تستقبل الحجاج والزوار من المسلمين والمسيحيين على الاخص القادمين من أوروبا، ولاشك أن رجحان كفة النشاطات الاقتصادية والتعليمية والدينية في القدس جعل الحياة الاجتماعية تتميز بعض التميز عن غيرها من مدن الشام التي غالبا ماعانت من سوء نتائج الصراعات السياسية وأعمال تمرد البداة والحروب بين فئات المماليك .

وتألفت القدس خلال العصر المملوكي من عدة أحياء غالبا ماحملت الاحياء أسماء المنطقة التي جاء سكان الحي المهاجرين اليها أو أصل أو ديانة السكان مثل اليهود ، والنصارى ، وكذلك كان الحال في مدينة الخليل ، فقد كانت أشهر أحياء مدينة الخليل حارة الدارية الذين انتسبوا الى الصحابي تميم الداري وحارة الأكراد وحارة المشرفية وحارة النصارى وحارة اليهود وغير ذلك ، ان مسألة العلاقات بين سكان الأحياء والمسيرة التي قادتهم نحو انشاء مجتمع واحد سنحاول التعرض لها في اماكنها(١).

وامتلكت نيابة القدس من قبل فروع الادارة العسكرية والمدنية مثل بقية النيابات لكنها تميزت ببعض المناصب الدينية التي تصدرها وظيفة ناظر الحرمين الشريفين ثم مشيخة المدرسة الصلاحية ، ثم الخطابة في المسجد الاقصى وأعمال التدريس وبعد ذلك القضاء والحسبة ونظارة البيمارستان وكانت وظيفة ناظر الحرمين الشريفين من أقدم الوظائف في فلسطين ونشأت في العصر الأيوبي وترسخت قواعدها في العصر المملوكي وبات صاحبها مشرفا على حرمي القدس والخليل والعناية بهما وادارة أوقافهما مع تأمين موائد الطعام للمجاورين فيها وبخاصة الطعام لضيوف خليل الرحمن(٢)، وغالبا

---

(١) : العليمي ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٧٨- ٧٩.
- القلقشندي ، المصدر نفسه ج٤ ، ص ١٩٩

(٢) : العليمي ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٢٧٠- ٢٧٩
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ٢٢١ -٢٢٤ ،ص ٣٣٨ .

ج٤ ،ص ٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماكانت تسند هذه النظارة الى واحد من العلماء والأجلاء . وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد أنشأ في القدس إثر تحريره لها سنة ٥٨٣هـ /١٧١٧م المدرسة الصلاحية على مقربة من الحرم القدسي في الجهة الشمالية فيه واحتلت هذه المدرسة مكانة سامية ، وبات الناظر في مشيختها يعين بمرسوم سلطاني وأعتبر واحدا من بين ثلاثة شخصيات كانت هي الأسمى في القدس ، جاءت مرتبة شيخ الصلاحية بعد ناظر الحرمين الشريفين ، وجاء الثالث في الترتيب قاضي قضاة الشافعية (١).

استمرت أعمال الهجرة الى القدس بدون توقف واختار بعض أعيان المماليك سكنى القدس اثر تقاعدهم أو عزلهم كما جاور حرمي القدس والخليل عدد كبير من المسلمين وجاء معظم المجاورين من بلدان المغرب العربي الكبير ، فالمغاربة اعتقدوا أن فما يتمم حجهم زيارة الحرم القدسي وعاش في القدس نتيجة لذلك جالية مغربية لعلها كانت الأكبر بين جاليات مدن الشام (٢).

هذا ولم يوقف اخفاق الحملات الصليبية تدفق الحجاج من أوروبا على القدس عبر البحر ، وظلت القدس تمتلك بعض الديرة التي تولت تقديم الخدمات للحجاج الاوربيين وصحيح ان وفرة أعداد الحجاج أمن رواجا في الحياة الاقتصادية للقدس ، لكن مايفيدنا هو أن الرواج الاقتصادي كان له انعكاسات اجتماعية متميزة ، كما ان وجود الحجاج الاجانب كان ايضا له آثاره على الحياة الاجتماعية ، فالمجتمعات المنفتحة على العالم غير المجتمعات المنغلقة .

---

(١) : العليمي ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٤١، ٢٨٣، ٢٩٨، ٣٠٤
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ٨٥٨
ج٤ ،ص ٣١٢، ٤٤٠، ٤٨٣، ٥٢٥

(٢) : العليمي ، المصدر نفسه ،ج٢،ص ٢١٩، ٢٤٤، ٢٦١، ٢٨٣
- علي احمد ، الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع ، رسالة ماجستير في التاريخ كلية الاداب . ط . دمشق ١٩٨٣،ص ٧٣-٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان مجتمع القدس منفتحا بعيدا من التعصب الديني سمح برحابة صدر للحجاج الاوربيين باقامة الاحتفالات الدينية دون ان يتعرضوا للاذى أو أعمال الانتقام أو الثأر نتيجة لاحداث الحروب الصليبية او نشاطات دولهم المعادية للسلطنة المملوكية ،كما ان سكان القدس عرفوا العديد من اللغات وكانوا يتناقشون في مختلف القضايا المحلية والدولية (١).

" شبابة طرابلس "

عدت طرابلس في صدارة مدن الساحل الشامي وقد ازدادت أهميتها وتعاظمت في العصر الفاطمي حتى غدت مركزا لامارة مستقلة هي دولة آل عمار . ونشطت في اعمال التبادل التجاري مع بلدان حوض البحر الابيض المتوسط وحاول الغز بزعامة السلاجقة عندما دخلوا الى بلاد الشام الاستيلاء عليها فلم يفلحوا ، وعندما جاءت الحملة الصليبية الاولى سعت للاستيلاء على طرابلس وركز الصليبيون جهودهم لسنوات لاحتلال طرابلس والسيطرة على المناطق المحيطة بها ، حتى تمكنوا من ذلك سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠م ، وباحتلالهم لطرابلس كانوا ينفذون خططهم المتوسطية وجعلوا من طرابلس مقرا للامارة الرابعة التي انشأوها في المشرق . وشغلت طرابلس في ظل الصليبيين دورا كبيرا في احداث تاريخ الصليبيين في بلاد الشام وكانت وثيقة الصلة بالقدس وأيضا بانطاكية ، وشمل نفوذها أجزاء كبيرة من الساحل الشامي امتدت حتى اللاذقية ، كما كان لهذه الامارة مراكز دفاعية كبيرة في الداخل ، ولعل قلعة حصن الاكراد كانت اعظم هذه المراكز الدفاعية يليها قلعة المرقب ،وجرت محاولات عدة لاسترداد طرابلس لم تكلل جميعها بالنجاح (٢).وبعد معركة عين جالوت واستيلاء بيبرس على عرش السلطنة

---

(١) : ابراهيم علي مهدي ، ادارة القدس في عهد المماليك ،رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة في الجامعة اللبنانية في بيروت ١٩٨٢ ،ص ٩٩ .

— احمد دراج ، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف . ط . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٢- ٢٣.

(٢) : عالجت عدة دراسات تاريخ طرابلس لعل أفضلها كتاب طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للدكتور السيد عبد العزيز سالم ط . الاسكندرية ١٩٦٧ . انظر ص ٨٨ — ٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بذل بيبرس جهودا كبيرة في سبيل استرداد طرابلس مستهدفا من ذلك التحرير وازالة الاحتلال الصليبي وايقاف التعاون المغولي الصليبي والحيلولة بين المغول وبين امتلاك عمق بحري . وبالوقت نفسه جعل المدن الشامية الرئيسة على الاخص حمص مع دمشق ، وحلب تتفرغ كليا للتصدي للمخاطر المغولية القادمة من المشرق . فقد جاءت حملات المغول في كثير من الاحيان نحو وسط بلاد الشام كانت مهام تحرير طرابلس تحتاج الى بذل جهودا كبيرة وتأمين طاقات برية وبحرية لحصار المدينة من جهة البحر وللحيلولة دون وصول النجدات اليها من قبرص أو من غيرها من البلدان في أوروبا.

لقد نجح بيبرس في تحرير قلعة الحصن ، كما حرر اجزاء كبيرة من المدن الساحلية التي دانت بالطاعة لطرابلس خاصة بعدما نجح في تحرير انطاكية وازالة الحكم الصليبي فيها.

وتوفي بيبرس دون أن يتمكن من الوصول الى غاياته الكلية في التحرير ، وخلف مهمة تحرير طرابلس الى رفيقه في السلاح قلاوون الالفي فقد ضغط قلاوون على طرابلس وتابع أعمال تجريدها من ممتلكاتها الساحلية والداخلية حتى جاء عام ٦٨٨هـ /١٢٨٩ م حيث قاد قواته وحاصر المدينة واقتحمها وأعادها مدينة شامية عربية اللون والدور(١). وبعدما حررت طرابلس غدت مقرا لنيابة شامية مستقلة من نيابات السلطنة المملوكية ذات مكانة سامية لم يتقدمها غير دمشق وحلب(٢). ومثلها مثل غيرها من نيابات بلاد الشام امتلكت طرابلس جميع الوظائف والمؤسسات التي وجدت في النيابات مع شيء من التمييز فقد اعتاد المماليك على تعيين نائب للنيابة وحاكم لقلعتها لكن هذا استثنيت منه طرابلس حيث لم يعين فيها حاكما للقلعة وكان لهذه النيابة حدودها مثل غيرها من النيابات ، ويمكن التعرف على حدود هذه النيابة من خلال ما كتبه خليل بن شاهين الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك وماجاء عند العمري ويعد ذلك عند كل من

---

(١) : سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٥- ٢٩٦

(٢) : القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢١٧.

- الظاهري ، المصدر نفسه ، ص ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيخ الربوة والقلقشندي[1]، ويلاحظ ان هذه المصادر غير متفقة على تعريف حدود نيابة طرابلس ومرد ذلك ان هذه الحدود لم تكن ثابتة بالنسبة لها ولا لغيرها من النيابات، فحدود كل نيابة اتسعت أو تقلصت بفعل عدة عوامل[2] ارتبطت بالسلطة المركزية في القاهرة وبسلطان نائب دمشق وبقوة نفوذ نائب طرابلس وغيره من نواب الممالك الاخرى وتاريخ نيابة طرابلس مثله مثل تاريخ بقية نيابات الشام يكتب من خلال الاحداث التي شهدتها مدينة طرابلس وهذه الأحداث سارت على النمط نفسه التي سارت عليه بقية أجزاء بلاد الشام فحينما كانت تحدث بعض الثورات او محاولات الاستقلال في دمشق وحلب كان نواب طرابلس يجدون أنفسهم متورطين بالنزاعات والحروب مع الثوار او ضدهم ولعل الاستثناء الوحيد الذي تميزت به طرابلس عن غيرها من النيابات وتأثر به تاريخها هو مواجهتها لقبرص وعلاقاتها المتوسطية، لقد تقلب على حكم نيابة طرابلس عدد كبير من النواب كانت مدة نيابة كل منهم قصيرة ونادرا ماتجاوزت عشر سنوات فالمزية الاساسية للعصر المملوكي عدم الاستقرار سياسيا والسرعة في تغيير النواب عزلا او نقلا او غير ذلك ..

أقام نائب طرابلس في دار خاصة به عرفت باسم دار السعادة وشكلت جزءا من قلعة صنجيل . وكان موقعها مشرفا على المدينة واعتاد النائب ان يسير في موكب داخل المدينة مرتين كل اسبوع يومي الاثنين والخميس ، وربت بين يديه جميع أمور النيابة وكان النائب يحمل أعلى الرتب المملوكية أي كان من أعيان وقدماء أمراء الالوف وكان تحت أمرته حامية ولايستبعد امتلاكه لقوة بحرية للدفاع عن المدينة .

---

(١) : الظاهري ، المصدر نفسه ،ص ١٣٣
- القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٣٤
- العمري ، المصدر نفسه ، ص ٧١-٧٢ .
- شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٧- ٢٠٩

(٢) : القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٤٤- ١٤٥
- شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٧- ٢٠٩
- سالم ، المرجع نفسه ،ص ٣١٠- ٣١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان أهم المناطق التي كانت تتبع نيابة طرابلس اداريا هي : عمل حصن الاكراد ، ثم عمل حصن عكار ، وعمل قلعة بلنطس غربي بلدة مصياف ،وعمل قلعة صهيون (صلاح الدين حاليا) وعمل اللاذقية ، وعمل المرقب ، وتلا هذه الأعمال أعمال أقل مرتبة مثل عمل انطرطوس (طرطوس حاليا) . ثم عمل جبة المنيطرة قرب طرابلس نفسها عند منابع نهر ابراهيم ،وعمل الظنيين (الضنية حاليا) ، وعمل بشرية (بشري حاليا) وعمل جبلة ، وعمل أنفة جنوب طرابلس ، وعمل قلاع الدعوة في جبال النصيرية وهي : الرصافة الخوابي ، الكهف ، القدموس ، المنيقة ، العليقة [1].

ان هذا يعني أن نيابة طرابلس كانت من أوسع النيابات الشامية . وامتلكت امكانات اقتصادية كبيرة مع مصادر للمياه وفيرة ، وشهدت نيابة طرابلس عدة أحداث داخلية لم تنجم جميعها عن الصراعات بين رجالات السلطة بل عن العلاقات بين السلطة وسكان النيابة . فقد عمد نواب السلطنة الى اثقال الأهلين بالضرائب مع المصادرات لتحصيل أكبر كمية من الثروة في أقصر وقت من الزمن، واستخدموا موظفين شهروا بالمهارة والتفنن في جمع الأموال ، ففي أيام نيابة سيف الدين اسندمر الكرجي (٦٩٨- ٦٩٩هـ /٧٠٢-٧٠٩هـ) استخدم هذا النائب كاتبا يهوديا من يهود السامرة أسمه ابو السرور وأطلق يده في التصرف بشؤون النيابة ولم يدع هذا السامري من وسيلة لتحصيل المال الا واستخدمها فكثرت لديه الأموال وصار ضرره على الناس كبيرا وأخذ يركب الخيول المسومة وقد حلاها بالفضة والذهب وقام أهالي طرابلس بالشكاية للنائب فلم يستمع ولم يعبأ مما زاد من غطرسة هذا السامري حتى على بعض الامراء المماليك فاضطر أحد الامراء واسمه بالوج الحسامي الى الشكاية من السامري واتفق مع بعض الأمراء على المطالبة بكف يده ، وقابل بالوج أسندمر فاتهمه هذا النائب بالكذب والتلفيق مما سبب الشجار بينهما وفي هذه الاونة ازداد طغيان السامري واشتد أذاه لاهل طرابلس فكتبوا

---

(١) : مصادر الحاشية المتقدمة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محاضر شكوى فيه الى نائب الشام والى علماء دمشق فصدرت الاوامر باعتقال السامري وارساله الى دمشق واعتقل وفي حمص اغتيل مما أدى الى نشوب فتنة في طرابلس وازداد اوار هذه الفتنة في الفترة التي خلع فيها الناصر محمد بن قلاوون نفسه من السلطة عام ٧٠٨ هـ . ولم تنته هذه الفتنة الا بعدما عاد الناصر الى عرشه فخلع الكرجي وعين بدلا منه الحاج بهادر الحلبي(١) ، كما شهدت طرابلس بعض الفتن اثناء نقل السلطنة من المماليك الاتراك الى المماليك الشراكسة وظلت تتأثر بمختلف المشاكل . كما انها تعرضت للاوبئة التي اجتاحت حوض البحر المتوسط بشكل خاص الموت الأسود(٢) فيما بين عامي (٧٤٢ – ٧٥١هـ) وأغار عليها القبراصة والقراصنة عدة مرات .وكانت كلما انتعشت فكرة الحروب الصليبية تتأثر طرابلس ، وتتعرض للمخاطر الامر الذي دفع بالسلطات المملوكية الى العناية بتحصين المدينة وامتلاك بعض القطع البحرية للدفاع عنها ، كما ان سكان المدينة اتقنوا فن الدفاع عن مدينتهم . ونظرا لان هوءلاء السكان عاشوا وسط المخاطر القادمة من البحر مع التهديدات القادمة من المناطق الجبلية القريبة منها فقد انعكس هذا على تصرفاتهم فاتسموا بشدة التعصب الديني ، وعلى العموم كانت الاحوال الاقتصادية في طرابلس مزدهرة ، التجارة والزراعة فيها ناشطة وهي أمور ساعدت على تماسك أوضاعها الاجتماعية الداخلية(٣).

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه ج٢ ،ص ٤

– ابو المحاسن ، المصدر نفسه،ج٨ ،ص ٢٣٦– ٢٣٨

ج٩ ، ص١١٥

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٧٧٢.

– المقريزي ، اغاثة الامة بكشف الغمة ،ط. القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤٠

– ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج١٠ ، ص ١٩٥.

(٣) : المقريزي ، السلوك ، المصدر نفسه ج٢ ،ص ٧٣٠

– أبو الفداء ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٥٧

– ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج٨ ، ص ١٥٦.

– سالم ، المرجع نفسه ،ص ٣٣٤– ٣٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" نيابة الكرك "

بعد سيطرة الصليبيين على مدينة القدس تغيرت صيغة البنى الاستراتيجية لبلاد الشام ، فقد كان الفتح العربي لهذه البلاد قد قلل من مكانة القدس السياسية وأعطى مزيدا من الأهمية لدمشق وحلب ، انما مع تأسيس الصليبيين لمملكتهم الكبرى في المشرق في مدينة القدس تغيرت الموازين فهذه المملكة باتت تهدد دمشق وفي الوقت نفسه هددت من قبل دمشق ، لكن التهديد الاكبر جاء في البدايات من المناطق القريبة من القدس ومن مصر ،ففي المناطق المحيطة بالقدس انتشر السكان العرب من بدو وحضر كما وجدت مجموعات من القرى سكنها مسيحيون عرب وسعى ملوك القدس الاوائل الى جلب المسيحيين الى داخل القدس لاسكانهم بها ،وللقيام بغارات متوالية ضد التجمعات القبلية العربية ولانشاء مراكز دفاعية متقدمة تحمي اراضي القدس وتسيطر على طرق المواصلات لاسيما مع مصر وعلى طرق الحج وبعد عمليات استطلاع مطولة أقدم الصليبيون سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م / على المنطقة التي دعوها باسم بلاد البتراء وأقاموا فيها نواة قلعة حصينة حملت اسم " مونتريال " وعرفها العرب باسم قلعة الشوبك[(١)] وبعيد ذلك بفترة قريبة ابتنى الصليبيون على مقربة من الشوبك قلعة جديدة حملت اسم " الكرك " والكرك كلمة آرامية معناها القلعة ، لذلك غالبا ماقيل كرك الشوبك أو الكرك والشوبك ، واطلاق كلمة الكرك على القلعة الجديدة فيه دلالات على أهميتها ،فهذه القلعة كانت حصينة جدا ومع الأيام زاد الصليبيون من تحصيناتها ، ولم تكتف هذه القلعة بالهيمنة على القبائل البدوية في المنطقة بل هيمنت على طرق المواصلات مع مصر وطريق الحج، وكانت منطقة العقبة دوما مهددة من قبل حكام الكرك ، لابل ان بعض هؤلاء الحكام سعى للسيطرة على البحر الاحمر والاغارة على بلاد الحجاز على الحرمين المكي والمدني بالذات ، وبعدما سيطر نور الدين على مصر جعل همه الاول تحرير

---

(١) : يوسف درويش غوانمة ، امارة الكرك الأيوبية ط . عمان - ١٩٨٤ . ص ٤٥-٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكرك وتوفي نور الدين وهو يأمل في تحقيق هذا العمل العظيم، وبعد نور الدين سعى صلاح الدين في هذا المسعى نفسه ، ونجح بعد معركة حطين وباتت الكرك قلعة أيوبية لصاحبها مكانة عالية في النزاعات الأيوبية الداخلية (١)، وتعرف الى الكرك وعمل بها سلطان المستقبل بيبرس في الفترة التي شهدت نشوء الدولة المملوكية وبعد معركة عين جالوت وبعدما تسلم بيبرس عرش السلطنة اهتم هذا السلطان بالكرك ورأى أنه من الصعب جدا الاستيلاء عليها بوساطة القوة المسلحة ،فعمد الى البراعة السياسية ونجح فأصبحت الكرك قلعة مملوكية زال منها الحكم الايوبي وذلك في سنة ٦٦١هـ ١٢٦٣ م ، وبضم الكرك الى الحكم المملوكي بدأ تاريخها يشهد فصلا جديدا مثلما شهد تاريخ بلاد الشام كلها مرحلة جديدة هي مرحلة العصر المملوكي .

أبقى الحكم المملوكي على مكانة الكرك وجعلها قاعدة لاحدى نيابات بلاد الشام ،وهذه النيابة حاول الجغرافيون والاداريون في العصر المملوكي التعريف بحدودها فلم يتفقوا ، ذلك ان هذه الحدود كان شأنها شأن غيرها من النيابات كما أوضحنا من قبل اتسعت او تقلصت بفعل عوامل داخلية شامية وعوامل ارتبطت بالسلطنة مباشرة في مصر (٢)، وبشكل عام تبع الكرك أربعة أعمال هي : بر مدينة الكرك ، عمل الشوبك،عمل زغر(البحر الميت) عمل معان ، وهذه الأعمال جميعها لم تكن عالية الامكانات الاقتصادية لكن الأهمية العسكرية لقلعة الكرك عوضت وأبقت هذه النيابة قائمة ، فالكرك غالبا ماتولت حماية السلطنة في مصر عندما كان أي من نواب الشام يفكر بالتمرد والزحف على مصر ،كما انها كانت سجنا او منفى للسلاطين المخلوعين في القاهرة .

---

(١) : غوانمة ، المرجع نفسه ، ص ٥٩ - ١٦٩ .

(٢) : شيخ الربوة ، المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .

- القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج٤ ،ص ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تقلب على حكم الكرك في العصر المملوكي سبعة وخمسون نائبا وهذا الرقم المرتفع يشير الى أن هذه النيابة لم تعرف الاستقرار وإلى أن السلطنة المركزية كانت لاتطيل حكم النواب في الكرك خشية من مطامعهم، فبعض الذين حكموا الكرك وصلوا الى عرش السلطنة او وصلوا الى مراتب عالية، وحمل نائب الكرك مرتبة عالية ففد كان من أمراء الألوف، وكان تحت أمرته حامية عسكرية وأقام النائب في القلعة بالذات بداخل الكرك، وكان له نائب في الشوبك، وحوت هذه النيابة الوظائف المعتادة التي وجدت في بعض النيابات مثل وظيفة الحاجب، والمهمنداو، والاستادار، ونقيب الجيش، ومقدم البريد، مع أرباب الأقلام من كتاب واداريين وقضاة غالبا ماكانوا من فقهاء الشافعية [1]، على أن سكان نيابة الكرك لم يكونوا جميعا مسلمين، فقد كان بينهم أعدادا كبيرة من المسيحيين وأعدادا ضئيلة من اليهود، وكان غالبية المسلمين من القبائل البدوية وهي صيغة لم تزل قائمة حتى الآن .

والتاريخ للحوادث التي شهدتها نيابة الكرك يأتي ضمن منظومة حوادث العصر المملوكي، وليس بين هذه الحوادث ماهو هام باستثناء ابعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون اليها سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، فمن الكرك استطاع الناصر العودة الى عرش السلطنة في القاهرة، وكان لحادث استقرار الناصر في الكرك بعض الوقت نتائج عدة أهمها : أن المماليك فيأيام أسرة القلاوون أخذوا يودعون في الكرك خزائن أموالهم وثرواتهم مع كميات من الذخائر والأسلحة والمؤن الخاصة بالسلطان ومماليكه، ويبدو ان أول من فكر بخزن الغلال في الكرك هو بيبرس، ولعل السبب الذي دفعه الى ذلك الحاجة أثناء النشاط العسكري في بلاد الشام ضد الصليبيين والمغول، وتطور الامر فيما بعد الى جعل الكرك مخزنا لاحتياطي الدولة

---

(١) : الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٣٢.
- ابن فضل الله العمري، المصدر نفسه ص ١٨٩ - ١٩١.
- المقريزي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٧١٩.
- القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٢، ص ٢٤١.
- محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط، عمان ١٩٧٦ ص ٤٨- ٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المملوكية وأراضيها مراع لمواشي السلذان والنواب ،على أن أهم ماتميزت به الكرك طيلة العصر المملوكي مع سمة المنفى والسجن أنها كانت مقرا لتدريب وتربية بعض ابناء السلاطين (١).

حافظت الكرك على مكانتها كعقدة مواصلات رئيسة بين الشام ومصر ومحطة على طريق الحج البري القادم من مصر والمتوجه الى الديار المقدسة عبر العقبة ، لذلك مر بعض الرحالة في منطقتها فتركوا لنا انطباعاتهم منهم : ابن بطوطة وغيره..

ان استمرار مكانة الكرك نجم عنه نشوء بلدة حول القلعة وقيام نشاط اجتماعي ، انما كان نشاطا جافا فهذه النيابة لم تشهد ما شهدته نيابات الشام الأخرى من حياة اجتماعية متميزة داخل المدن ومن حركة ثقافية أو علمية (٢)

" نيابة حماة "

لنيابة حماة في العصر المملوكي تاريخ متميز عن بقية النيابات فحماة كانت قبل دخول بلاد الشام في ظل المماليك مقر مملكة ايوبية متميزة وفي ظل المماليك لم ينقطع الحكم الايوبي لها انقطاعا نهائيا ، فالايوبيون الذين زال سلطانهم من جميع ممالك الشام استمروا يحكمون حماة وتابع حماة في العصر المملوكي على أهميتها ، ذلك أن العوامل التي دفعتها للتقدم ونيل المكانة استمرت موجودة ، فالتنافس بين نواب

---

(١) : ابن عبد الظاهر (الروض) ، المصدر نفسه ، ص ٧٧.
- ابن عبد الظاهر (تشريف) ، المصدر نفسه ، ص ١٢٥.
- اليونيني ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٤٠٩
- المقريزي ، (اغاثة الامة) المصدر نفسه ، ص ٣٤.
- ابو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٥٧.
- المقريزي ،(السلوك) المصدر نفسه ،ج٢،ص ٣٩٤.
- أبو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج١٠ ،ص ٧٠
- البخيت ، المرجع نفسه ،ص ٧٩- ٨٢

(٢) : البخيت ، المرجع نفسه ، ص ٨٦-٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دمشق ونواب حلب ، هذا التنافس الذي كثيرا ما انقلب الى أعمال صراع ظل موجودا في العصر المملوكي . كما أن سكان البوادي من القبائل العربية الذين عاشوا في شرقي حماة تابعوا أدوارهم السياسية وغيرها في العصر المملوكي كما أن المخاطر القادمة من سكان المناطق الجبلية الواقعة الى الغرب من حماة ظلت موجودة وظلت السلطات المملوكية غير قادرة على التعامل عسكريا مع هذه المناطق بشكل حاسم ، ان هذه الاوضاع التي ساعدت على اتخاذ حماة مركزا لمملكة أيوبية هي نفسها ساعدت هذه المملكة على الاستمرار في العصر المملوكي يضاف الى هذا ان السمات الخاصة للحكام الايوبيين في حماة مكنتهم من الاستمرار فيمملكتهم في ظل السلطنة المملوكية .

بعيد معركة عين جالوت عاد الى حماة الملك الأيوبي المنصور الثاني محمد الى مملكته وعندما وصلت أخبار اغتيال السلطان قطز من قبل بيبرس استغل علم الدين سنجر نائب الشام هذه الحادثة فجمع امراء الشام وخلعهم لنفسه بالسلطنة ، لكن صاحب حماة خالف سنجروظل[1] على ولائه لبيبرس وهذا الموقف حفظ للأيوبيين حكمهم في حماة ، وأسهم الملوك الأيوبيون كنواب في مختلف النشاطات المملوكية لاسيما في الحملات العسكرية أثناء التصدي للمغول أو أثناء الهجمات ضد دولة أرمينية الصغرى في كيليكيا .

أشرنا قبل قليل الى أن ملك حماة قبل قيام الحكم المملوكي هو المنصور الثاني محمد (٦٤٢ - ٦٨٣هـ /١٢٤٤ - ١٢٨٤م) وحكم هذا الملك أيام بيبرس وولديه من بعده وبعض الوقت من سلطنة قلاوون الالفي وكان الملك المنصور قبل وفاته قد كتب الى السلطان قلاوون يطلب موافقته على تسمية ابنه الملك المظفر محمود ملكا على حماة من بعده ، وتوفي المنصور قبل

---

(١) : أبو الفداء ، المصدر نفسه ، ج٣، ص٢٠٧ - ٢١٠

- المقريزي (السلوك) المصدر نفسه ،ج١ ،ص٤٣٦- ٤٤٥
- ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج١٣، ص ٢٢٢
- ابن خلدون ، المصدر نفسه ،ج٥ ،ص٣٦٦- ٣٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصول الرد من القاهرة فأسرع ابنه محمود بابلاغ السلطان ووافق السلطان على تعيين المظفر ملكا على حماة ، ودام حكم المظفر من(٦٨٣- ٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٨م) وفي السنة التي ولي فيها المظفر الحكم قدم قلاوون الى دمشق فتوجه المظفر وبصحبته عمه الملك الافضل الى دمشق للالتقاء بقلاوون الذي أكرمهما كثيرا وأصدر مرسوما بتقليد حماة والمعرة وبارين الى المظفر مانحا اياه لقب سلطان[١]. وعلى هذا حمل ملوك حماة رتبة سلطان وغدت نيابة حماة سلطنة صغرى داخل السلطنة العظمى ، وتوفي الملك المظفر وهو في مقتبل شبابه وأدى حادث وفاته الى انقطاع الحكم الأيوبي عن حماة فترة من الزمن[٢]حيث سلمت السلطنة حكمها الى نواب عينتهم الواحد تلو الآخر ، واستمرت فترة الانقطاع حتى سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م) ، ففي هذه السنة استأنف الايوبيون حكمهم لحماة بتعيين أبي الفداء اسماعيل بن الافضل نور الدين ملكا عليها[٣] حكم أبو الفداء حماة من سنة (٧١٠- ٧٣٢ هـ/١٣١٠- ١٣٣١م) ويحظى هذا الملك بشهرة كبيرة جدا ومرد هذه الشهرة الى أنه كان متميزا بثقافته على الاخص في ميداني الجغرافية والتاريخ وهو لم يكن صاحب انجازات سياسية أو عسكرية تمنحه الخلود ، وخلوده جاء عن طريق تصنيفه لكتابه :" تقويم البلدان " الذي عد من أعظم كتب الجغرافية في التاريخ الانساني ، وقيل انه الثاني

---

(١) : أبو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٤ ، ص ١٩-٢٠
- اليونيني ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٣٩.
- ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج١٣ ،ص ٣٠٥- ٣١٧

(٢) : ابو الفداء ، المصدرنفسه ،ج٤ ، ص ٤١-٤٢
- المقريزي ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٨٨١
- ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج١٣،ص ٣٠٥

(٣) : أبو الفداء ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٤١-٥٩
- المقريزي (السلوك) المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٣٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من بين الكتب العربية شهرة في الأوساط الاوروبية بعد القرآن الكريم وبدأ ابو الفداء عمله السياسي كملك لحماة برتبة نائب ثم مالبث ان أضفت عليه رتبة السلطنة ، فقد كانت علاقة أبي الفداء بالسلطان الناصر محمد ابن قلاوون وثيقة جدا وكثيرا ما سافر الى مصر لمرافقة السلطان الناصر ببعض رحلات الصيد او بعض النشاطات الاخرى ، وفي أيام أبي الفداء ازدهرت أحوال مملكة حماة وأنشأت فيها أهم المباني المملوكية ، وبعد وفاة ابي الفداء آلت النيابة الى ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد الذي حكم من سنة (٧٣٢- ٧٤٢هـ /١٣٣١- ١٣٤١م) ، وجاء حكمه استمرارا لحكم ابيه ولم يحدث السلطان الناصر محمد بن قلاوون اي تغيير في وضع الحكم الايوبي في حماة انما بعدما توفي السلطان الناصر سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م) ، اضطربت شوءون السلطنة في القاهرة وانعكس هذا على حماة فصدر الامر بعزل الافضل الذي قدم الى دمشق ليعيش فيها كأمير من أمرائها لمدة سنة تقريبا حيث توفي وهو في الثلاثين من عمره ، وحمل جثمانه الى حماه ومعه انتهى الحكم الايوبي في حماة(١) وتحولت الى نيابة مثلها مثل بقية النيابات ، ولم تشهد حماة بعد العصر الأيوبي أية احداث متميزة ، ويبدو انها تراجعت حضاريا وضعفت فيها النشاطات الفكرية التي تميزت بها خلال العصر الايوبي وعندما عادت حماة نيابة مملوكية عادية عرفت جميع الوظائف المملوكية مثل بقية النيابات مع وظيفة نائب لقلعتها(٢) .

---

(١) : المقريزي (السلوك) ، المصدر نفسه ، ج٢،ص ٥٢٣.
- ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج١٤ ،ص ١٩٠.
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج١٠ ،ص ٧٥- ٧٦

(٢) : القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ١٤١- ١٤٢.
- ابن شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" نيابة دمشق "

لئن كان من الممكن الحديث عن ظهور نيابة صفد أو نيابة غزة أو نيابة القدس أو طرابلس أو حماة فان هذا من غير الممكن بالنسبة لكل من دمشق وحلب فتاريخ بلاد الشام في الاسلام دار حول محورين أساسيين هما : حلب في الشمال ودمشق في الجنوب والتاريخ للاحداث التي وقعت في حلب ودمشق هو تاريخ للعصر المملوكي بأكمله وهو تاريخ لبلاد الشام من جميع الجوانب ففي حلب ودمشق عاش أبرز نواب المماليك وأكثرهم شهرة ، وشهدت كل من حلب ودمشق مجمل المحاولات الاستقلالية وأعمال العصيان ضد السلطنة المركزية وفي غالب الأحيان دارت نيابات الشام في فلك دمشق وكان على كل واحد من المماليك مهما علت مرتبته ان يتصل بالقاهرة عبر دمشق . وفي دمشق وحلب حيكت حوادث الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والصناعية ،وفي دمشق وحلب خلف المماليك الترب والمساجد والقصور ومختلف المنشآت التي قاموا بها ، ويبدو ان دمشق اتسعت عمرانيا خارج الاسوار بشكل كبير في العصر المملوكي ،ولقد كانت حدود نيابة دمشق في بداية العصر المملوكي واسعة امتدت من عريش مصر الى سواحل بيروت وشرقا الى سلمية فرحبة مالك بن طوق على الفرات ، وتألفت نيابة دمشق في بداية العصر المملوكي من تسعة وعشرين عملا هي :

عمل غزة (قبل ان تصبح نيابة) ، عمل الرملة ، عمل اللد ، عمل قاقون ، عمل القدس (قبل ان تصبح نيابة) ،عمل الخليل ، عمل نابلس ، عمل بيسان ، عمل بانياس (الجولان) ، عمل الشعرة (القنيطرة) عمل نوى (حوران)، عمل اذرعات (درعا - حوران) ، عمل عجلون (شرقي الأردن) ، عمل البلقاء والسلط والاردن ، عمل صرخد (صلخد) ، عمل بصرى ، عمل ذرع (ازرع) ، عمل بعلبك ، عمل البقاع البعلبكي ، عمل البقاع العزيزي (منطقة زحلة في لبنان) ، عمل بيروت ، عمل صيدا ،عمل تدمر ،عمل الرحبة على الفرات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمل دمشق [1]. من الواضح ان مساحة نيابة دمشق كانت كبيرة جدا وسلطة نائبها شملت مناطق شاسعة من بلاد الشام وعدت نيابة دمشق اكبر الوظائف في السلطنة المملوكية بعد الأتابكية الكبرى ، وقد خص سلاطين المماليك دمشق بعنايتهم وزارها العديد منهم وأقاموا فيها ووصف القلقشندي دمشق بقوله : " مدينة حسنة الترتيب ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربع ،وغوطتها احد مستنزهات الدنيا العجيبة المفضلة على سائر مستنزهات الارض ، وكذلك الربوة وهي كهف في فم واديها الغربي عنده تنقسم مياهها .. وبها الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا والاسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع ذات البرك والماء الجاري وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها والماء محكم عليها من جميع نواحيها باتقان محكم وهي في وطئة مستوية من الارض بارزة عن الوادي المنحط عن منتهى ذيل الجبل مكشوفة الجوانب لممر الهواء الا من الشمال فانه محجوب بجبل قاسيون .. ..فأما جانبها الغربي ففيه قلعتها وهي قلعة حسنة مرجلة على الارض تحيط بها وبالمدينة أسوار عالية يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة واذا دعت الحاجة اليه أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها [2]... وبعد هذا تحدث القلقشندي عن بعض الشؤون الادارية لدمشق وعن ساحاتها وأسواقها وعن أهم القصور فيها وأشار الى مدينة الصالحية التي ألحقت بها.

---

(١) : العمري ، المصدر نفسه ،ص ١٧٦- ١٧٩.
- ابن شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ١٩٣- ٢٠٢
- محمد بن طولون الصالحي ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ط . دمشق ، ١٩٦٤،ص ٢-٩.
- محمد أحمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ،ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٥- ٢٢
- سعيد عبد الفتاح عاشور- مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ط . بيروت ١٩٧٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) : القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج٤،ص ٩٢- ٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد ملكت دمشق مختلف الوظائف التي عرفتها الادارة في العصر المملوكي وهي وظائف أرباب السيوف ، والوظائف الديوانية ثم الوظائف الدينية ، واشتملت الوظائف العسكرية على نيابة السلطنة ، و نيابة القلعة ، والحجوبية ، وشد المهمات ، ونقابة الجيش ، والبريد والمهمندارية ، وولاية المدينة والاوقاف والزكاة والخزندارية ،والدواوين العشر والمواريث ، اما الوظائف الديوانية فهي الوزارة وكتابة السر وكتابة الدرج ونظر الجيش ونظر المهمات الشريفة ونظر الخاص ونظر الخزانة ونظر البيمارستان النوري . ونظر الجامع الاموي ، ونظر خزائن السلاح ، ونظر البيوت السلطانية ، ونظر ديوان المال ، ونظر ديوان الأسري ، ونظر الاسواق ،والحوطات ، ومراكز البريد ، وكان يلحق بهذه الادارات احيانا وظائف مثل رئاسة الطب ورئاسة الجرائحية ، ورئاسة الكحالين واشتملت الوظائف الدينية على قضاء القضاة وقضاء العسكر، والافتاء دار العدل ووكالة بيت المال ونقابة الاشراف ومشيخة الشيوخ والحسبة والخطابات والتداريس . كما امتلك اهل الذمة وظائف ادارية خاصة بهم وتوزعت النشاطات الحكومية على عدة منشآت أولها القلعة ثم القصر الابلق ودار السعادة ودار العدل وتوزعت السكنى في دمشق على عدة احياء داخلية وأرباض انشئت خارج الأسواق (١).

لقد تقلب على نيابة دمشق عدد من أبرز شخصيات العصر المملوكي وطال حكم بعضهم فترة طويلة كان لها آثارها عليها ، ولعل أهم الشخصيات المملوكية التي حكمت شخصية تنكز الذي تولى نيابة دمشق في سنة ٧١٢ هـ وظل يحكمها حتى سنة ٧٤٠هـ - أي ثمان وعشرين سنة وعاشت دمشق في ايام تنكز فترة استقرار وازدهار متميزة ، فعندما جاء تنكز الى دمشق كان الخطر المغولي المهدد لبلاد الشام قد زال منذ سنوات اثر النصر المبين في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ وفي ايام تنكز انتشر العمران في دمشق انتشارا كبيرا ماتزال أهم آثاره باقية حتى الان ،وبنى تنكز في

---

(١) : دهمان ، المرجع نفسه ،ص ٢٣-٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دمشق دار الذهب القديمة (منطقة العمارة) ثم دار الذهب الجديدة وعدة قصور وبقي من أبنيته جامع تنكز الذي كان كتلة معمارية واسعة وكبيرة جدا ، لقد جمع تنكز ثروات هائلة اثناء حكمه لدمشق ونظرا لهذا ولطول المدة التي حكمها أقدمت السلطنة على عزله وسجنه والتخلص منه في سنة ٧٤١هـ ، وبعد وفاته بسنوات حملت جثته سنة ٧٤٤هـ الى دمشق فدفنت في تربته الملاصقة لجامعه ، ووصف تنكز بأنه كان ذا سطوة وهيبة وزعارة واقدام على سفك الدماء وفيه عتو وحرص وحدة وقلة رأفة ، وقام أحد الكتاب المعاصرين بتقدير ثروات تنكز يوم قبض عليه فكان مجموعها (٨٦٧ر٥٠٠ر٨) دينار ذهبي[1] ، وتقلب على دمشق بعد تنكز عدة نواب كان من الذين تركوا آثاراً لاتزال قائمة حتى الآن يلبغا اليحياوي ٧٤٦هـ - ٧٤٨ هـ .

ان الحديث عن بقية النواب وعن الصراعات التي شهدتها دمشق في أيامهم هو جزء من التاريخ السياسي للمدينة ، لكن يلاحظ بشكل عام ان هذه المدينة أخذت أوضاعها بالتراجع بعد تنكز وكما تعرضت للاحتلال المغولي من قبل هولاكو الذي قادها للخضوع لحكم المماليك الاتراك فانها احتلت من قبل تيمورلنك في فترة انتهاء حكم الاتراك واستبداله بحكم الجراكسة وكان لاحتلال تيمور أبعد الاثار المدمرة على المدينة حيث لم يكتف تيمور باستباحة دمشق بل حمل منها أصحاب المهارات والاختصاصات الحرفية ونقلهم معه نحو ديار سمرقند مما كان له أشد الآثار على المدينة اقتصاديا واجتماعيا وهذا ماسنحاول تناوله في الفصول المقبلة[2] .

---

(١) : ابن طولون ، المصدر نفسه ،ص ٤-١٥
- دهمان ، المرجع نفسه ،ص ٥٦- ١٧٩ .

(٢) : ابن طولون ، المصدر نفسه ،ص ١٦-٤٦
- دهمان ، المرجع نفسه ،ص ١٨٠- ١٩٥ .
- مظهر شهاب ،تيمورلنك ،رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة اليسوعية - بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" نيابـــة حلـــــب "

هي أخت دمشق ومنافستها للسيطرة على بلاد الشام ،هي الطريق الـــى العراق والسبيل للاتصال بآسيا الصغرى فأوروبا الشرقية ،أراضيها علـــى ارتباط وثيق بأعالي بلدان الجزيرة وارمينيا . لها ممتلكاتها الساحليـــة استحوذت على امكانات زراعية واقتصادية كبيرة جدا وبالنظر لخطورة موقعها ولتاريخها المجيد اهتم بها المماليك واعتمدوها لتكون قاعدة لحمايـــة الاطراف الشمالية للسلطنة المملوكية ، فقد كان على حلب بعد دخول بـلاد الشام في سلطان المماليك أن تستعيد قواها بعد الضربات الـتي انزلهـا بها هولاكو وأن تتولى التصدي لدولة أرمينيا في كيليكية وأن تـراقب تحركات القبائل والقوى التركمانية في آسيا الصغرى وأن تتولى حراسة أطراف الشام من محاولات الخرق التي أقدم عليها المغول من الشرق او من الشمال . ونظرا للدور الكبير الذي أسند الى حلب ولتميز هذا الدور عن غيره امتـــازت نيابة حلب على غيرها من نيابات الشام بأنه تبع لها عدد كبير مـــن النيابات الصغيرة المفردة مع أعمال ادارية كبيرة مثل اعمال النيابات الشامية الأخرى ، من النيابات الصغرى : قلعة الروم غربي الفرات ،ونيابات الكختا ، وبهسنا ،وسمسياط وعينتاب والدربساك والراوندان وبغـــراس ، والقصير والشغر وبكاس مع نيابات كانت واقعة داخل بلاد الارمن مثـــل ملطية ودبركي ودرنده والالبستين واياس وطرسوس وأذنة وكانت هـــذه النيابات الصغرى عبارة من قلاع وحصون ذات قيمة عسكرية كبيرة ،وقيمتهـا العسكرية والأدوار التي عهدت اليها انذاك هي التي دفعت بالسلطـــات المملوكية الى جعلها نيابات صغيرة تبعت للنيابة الأم حلب وهذه النيابـات الصغيرة يمكن اعتبارهاجزءا من بلدان الثغور الشامية والجذرية ولقد كانت حلب لقرون طويلة هي أم الثغور والعواصم ، لكن نظام الثغور كما هـــو معلوم ألم به تبدلات كثيرة منذ العصر الحمداني بسبب النـشاط البيزنطي العسكري ثم اثر اجتياح قبائل التركمان لاسيا الصغرى وبعده قدوم الصليبيين وتأسيسهم لامارتي الرها وانطاكية . بالاضافة لهذه النيابات الصغرى كانت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعمال حلب المتصلة بها هي : بر حلب ثم كفر طاب واعزاز وتل باشر ومنبج وتيزين والباب وبزاغا وانطاكية ، وكانت امكانات نيابة حلب كبيرة جدا، ففي طرف أراضيها مر نهر الفرات وفي طرف آخر صب نهر العاصي وكان نهرها الذي اعتمدت عليه هو نهر قويق ، وهذا النهر اعطى حلب مع الزراعة المروية الملح من سبخة الجبول ، ومازالت هذه السبخة حتى الان المصدر الأكبر للملح في سورية.

لقد ملكت حلب مختلف الوظائف الادارية من عسكرية ومدنية ودينية مثل دمشق ، وتقلب على الحكم فيها شخصيات كبيرة من المماليك حاول بعضهم الاستقلال بحلب كما الحال في دمشق وكانت الحركة العمرانية في حلب أوسع في بعض الأحيان من الحركة العمرانية التي شهدتها دمشق وكثيرا مامرت بها الجيوش المملوكية التي توجهت الى الشمال ضد دولة أرمينيا وغيرها بقيادة السلاطين أنفسهم او تحت ألوية قادة كبار ، وخلال العصر المملوكي حافظت حلب على دورها الثقافي وعلى نشاطاتها الاجتماعية المتميزة وامتلكت المدينة اعدادا كبيرة من الاسواق والمدارس والمساجد والربط كانت هي مسرح الحياة الاجتماعية ، وتلون النشاط في حلب بألوان خاصة لم تعرفها دمشق فبالاضافة الى صلات حلب مع القبائل العربية في بلاد الشام كانت على اتصال مستمر بالقبائل التركمانية وبمختلف الدول التركمانية مثل سلاجقة الروم وبعدهم العثمانيين ، كما كانت على اتصال بالارمن ،فالارمن ملكوا دولة قامت الى الشمال من حلب كما أن العناصر الارمينية كانت تهاجر باتجاه الاراضي الحلبية ، وجلب البحر الى حلب التجار الاوروبيين ،كما أن بعض العناصر من أوروبا الشرقية لم تنقطع عن القدوم الى هذه المدينة [1]، ومع هذا التميز سنجد ان

---

(١) : ابن العديم، المصدر نفسه ،ج١،ص ٣٤٧– ٣٧٩،٣٦٤– ٣٩٢ .
– شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٢– ٢٠٦
– ابن فضل الله العمري ،ص ١٧٦– ١٧٧
– القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٢٦ – ٢٣٠
– عاشور ، المرجع نفسه ،ص ٣٠٧
– ابرا لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ،ترجمة عربية ط. دمشق ١٩٨٦، ص ٤٥ – ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحياة الاجتماعية في حلب لم تختلف بأوجه نشاطاتها الأساسية عن غيرها من نيابات الشام فقد كانت حلب تتفاعل كل التفاعل مع اخواتها من مدن الشام وسنجد ان البنى الاجتماعية هي واحدة من حيث الجوهر وحتى من حيث مظاهر النشاط والسمات العامة شامية عربية واحدة .

لقد كانت بلاد الشام في العصر المملوكي كما في غيره من العصور أشبه بالجسد الواحد تجري في عروقه دماء واحدة ولكن اختلف شكل الرأس في الجسد عن بقية شكل الأطراف وبقية أجزاء الجسم ، ان هذه الاجزاء كل متكامل لايمكن لأحدها الاستقلال عن غيره حتى ولكن اختلف شكله ووظيفته ، وهذا ما أظهرته أحداث التاريخ جميعها وألوان النشاطات والتكتلات الاجتماعية والاقتصادية .

◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊◊

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الثانـــــي "

طوائف الشعب وتنظيماته ـ العلاقـات مع السلطـة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الثانـــي "

طوائف الشعب وتنظيماتـه – العلاقـات مع السلطـة

طغت الكتابات السياسية والعسكرية على موضوعات التاريخ ونادرا ما اهتم المؤرخ في الماضي بغير اخبار الحكام من ملوك وسلاطين وأباطـرة وامراء وقادة ، واذا تحدث المؤرخ عن غير الحكام فعل ذلك عرضا وجاء سرد الاخبار من خلال العلاقة بالحكام مباشرة او بشكل غير مباشر ،وعلى هـذا الاساس نجد شيخ المؤرخين العرب الطبري يعنون كتابه العظيم في التاريـخ باسم " تاريخ الرسل والملوك " ، كما ونجد عددا كبيرا من المؤرخين قـد أوقف كتابا أو أكثر على سيرة ملك ،او خليفة أو سلطان أو على سير عدة أعلام بارزين . وفي الادب التاريخي العربي نجد أن صورة العلم الذي يستحق الترجمة هو شريف من الأشراف العرب كما عند البلاذري او امام او راو للحديث أو فقيه أو شاعر أو خطيب ،أو أديب .

ونادرا ما اهتم المؤرخون بفرد من افراد الشعب العاديين اللهم الا اذا نشأت لهذا الفرد علاقة ما بالسلطة ، وفي العصر الحديث تبدلت النظرة الى وقائع التاريخ وبات عدد كبير من الكتاب يرى ان التاريخ هو تاريخ الشعـوب لاتاريخ الرسل والملوك ، وانه لولا الشعوب لما عرفت تواريخ الامم الانجـازات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكبيرة وعليه ان واجب الباحث في العصر الحديث الكشف عن حياة الشعوب من جميع الجوانب لاسيما الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الشعبية.

وغالبا ما امتزجت الكتابات المعاصرة فيها المفاهيم الاجتماعية بالاقتصادية بالثقافية الشعبية ، لكن مع تطور علم التاريخ بات التمييز امرا مطلوبا ، وقد حدد بعض الباحثين التاريخ الاجتماعي (بأنه دراسة تطور العلاقات والنظم ومضمون المفاهيم والقيم الاجتماعية في مجتمع ما ، وفي فترة اجتماعية محددة)(١). وجاء تعريف التاريخ الاقتصادي " بأنه هو دراسة الوقائع الاقتصادية الماضية في المجتمع في مجال العلاقات الاقتصادية على مر فترات التاريخ المختلفة واثرها في مجال العلاقات الاجتماعية الاخرى " (٢) ، وجاء تعريف التاريخ الثقافي (بأنه رسم صورة متكاملة للوقائع الثقافية كما حدثت خلال العصور المختلفة من يوم أن تحول الانسان من الانسان الحيوان الى الانسان العاقل حتى الآن ، فهو يشمل تاريخ الانسان في ميدان الاسرة مثلا والصور التي تعاقبت على نظام علاقة الرجل بالمرأة مثلا)(٣)وعلى الرغم من هذه التعاريف نجد ان كثيرا (من العلماء لايفرقون بين التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي ، فهم لايعدون الاقتصاد الا مظهرا من مظاهر متعددة للنشاط الانساني ، بل يعتبرون النشاط الاقتصادي أهم قسم من أقسام الحياة الانسانية)(٤).

كما ويخلط كثيرون بين التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي(٥)، هذا ورأى بعض علماء التاريخ ان التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي والثقافي الشعبي في مجتمع ما هو رد فعل مباشر للتاريخ السياسي وعلى الخصوص تاريخ الحكومات والسياسيين الذين يتولون الحكم (٦).

---

(١) : دكتور ابراهيم مدكور - معجم العلوم الاجتماعية ط. القاهرة ١٩٧٥،ص ١١٠

(٢) : المرجع نفسه ص ١١١.

(٣) : المرجع نفسه ص ١١٢

(٤) : المرجع نفسه ص ١١١.

(٥) : المرجع نفسه ص ١١٠

(٦) : المرجع نفسه ص ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لاشك ان هناك تداخلا بين شعب التاريخ الثلاثة هذه ، فالوشائج بينهم قوية جدا والتداخل يكاد لايمكن تمييزه ومع ذلك في التاريخ احداث اجتماعية محفة لها نتائج سياسية واقتصادية وثقافية وغير ذلك ، كما ان في التاريخ احداث اقتصادية او ثقافية او سياسية أو عسكرية او طبيعية لها بين نتائجها منعكسات اجتماعية ، وبناء عليه يمكن للباحث ان يتناول بعض المظاهر الاجتماعية بالدراسة وان يتناول احداث غير اجتماعية لها الانعكاسات الاجتماعية انما بصعوبة بالغة وتزداد هذه الصعوبة لدى الباحث في التاريخ الاسلامي التي انعدمت فيه تقريبا الوثائق والروايات الواصفة لاحوال المجتمع بشكل مباشر ، ان البحث في التاريخ الاجتماعي لاية فترة من فترات التاريخ الاسلامي امر بالغ الصعوبة وقد جرت محاولات عدة لدراسة بعض الفترات اجتماعيا وحالف التوفيق اصحابها بعض الشيء ، وبما ان الذي يعنينا بالدرجة الاولى العصر المملوكي في بلاد الشام مع مقدماته الايوبية نجد ان الابحاث التي اهتمت بأحوال المجتمع هي سياسية بالدرجة الاولى او اقتصادية اجتماعية سياسية ، ويمكن ان نرى هذا بكل وضوح في كتابات : نقولا زيادة ، لابيدوس ، حياة ناصر الحجي ، سعيد عبد الفتاح عاشور وغيرهم ....

ولقد انطلق هؤلاء الكتاب وغيرهم من منطلق مسلمة قديمة ان المجتمع الاسلامي تألف من كتلتين اجتماعيتين هما : الخاصة والعامة وهذا المفهوم تمسك به الباحثون في العصر المملوكي ولم يحيدوا عنه ، وعلينا بادىء ذي بدء تفحص هذا المفهوم بكل دقة ، فاذا سلمنا بصحته تولينا البحث على اساسه اما في حال رفضه علينا البحث عن مفهوم بديل .

ان هذا المنهج مخالف لما اعتاد عليه الباحثون في التاريخ السياسي والاقتصادي وغيره ، فهم اعتادوا على تبيان الاحكام والنتائج التي تم التوصل اليها في آخر ابحاثهم . لكن الحال هنا مختلف تمام الاختلاف . لابد هنا من ايضاح المفهوم اولا ومن ثم الكتابة على ضوئه ، وقد يرى بعض الباحثين في هذا العمل مخالفة لمناهج البحث في التاريخ ونظرة احادية فيها تحكم قسري بالاحداث وتفسيراتها وهي تهمة لطالما ألصقها بعضهم بالابحاث الماركسية وماشابهها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان هذا الاعتراض مقبول الى أبعد الحدود بالنسبة للابحاث السياسية والعقائدية ، لكن لايمكن ان نشمل به الابحاث في التاريخ الاجتماعي ،فالبحث في التاريخ الاجتماعي هو علمي محض يحتاج مثل اي علم من العلوم تبيان القانون او النظرية المعتمدة في البحث ، ومن ثم تطبيقها وبناء النتائج على ضوئها ، وتبقى - على كل حال - المسألة اجتهادية ، وكل قضية من قضايا التاريخ باب الاجتهاد فيها لايمكن اغلاقه .

ان السؤال الاول الذي ينبغي طرحه هو هل شكل الخاصة طائفة اجتماعية في العصر المملوكي ؟ أو بكلمة اخرى هل كان المماليك فئة اجتماعية متميزة ومستقرة ؟ تواجه الفئة الاجتماعية التي حملت اسم العامة وتميزت بالاستقرار ، والجواب على هذا السؤال يمكن استخلاصه من أية عملية استعراض للتاريخ السياسي للعصر المملوكي منذ بدايته وحتى انتهائه (١).

فالمماليك بالاصل رقيق جلب للاستخدامات العسكرية وسواها (٢)، وعندما تولى هذا الرقيق السلطة نجد ان التنافر والشك والريبة هي التي حكمت العلاقات بين جميع المماليك حتى بين الزوج المملوك والزوجة المملوكة و والعلاقة بين عز الدين ايبك وشجر الدر (٣) وبين بيبرس وقطز(٤) وبين قلاوون وأبناء بيبرس (٥) ، لابل بين قلاوون وابنائه تكفي للتوضيح(٦)،وغالبية

---

(١) : مصادر العصر المملوكي كثيرة قد اشرنا الى اهمها في مقدمة هذه الرسالة ويبقى كتاب السلوك للمقريزي افضل مصدر شامل في بابه .

(٢) : هناك دراسات كثيرة للمماليك ونظمهم منها : كتاب السيد الباز العريني الذي حمل عنوان " المماليك " انظره ط . بيروت - دار النهضة العربية ص ٣٤- ١٥٧.

(٣) : المقريزي (السلوك) المصدر نفسه ج١ ،ق٢ ،ص ٣٦١- ٤٠٤ .

(٤) : محي الدين بن عبد الظاهر -الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر ط. الرياض ١٩٧٦ ص ٦٧- ٦٨.
- المقريزي (السلوك) المصدر نفسه ج١ ،ص ٤٣٤- ٤٣٥.

(٥) : محي الدين بن عبد الظاهر- تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ط . القاهرة ١٩٦١ ص ٤٣
- المقريزي - (السلوك) المصدر نفسه ج١،ق٢ ص ٦٤١- ٦٥٨

(٦) : المقريزي - (السلوك) المصدر نفسه ج١ ،ق ٣ ،ص ٦٦٣- ٧٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المماليك ممن لم يمت في المعارك مات غيلة او في السجن أو منفيـــــا وأبدا لم يستطع المماليك طوال تاريخهم تكوين وحدة اجتماعية فيها ادنى توافؤم او تعاون .

لقد ظل المماليك يعيشون في غربة عن بعضهم بعضا وظلوا غربـــاء عن الشعب الذي حكموه ، وعاشوا كقشرة عسكرية مستبدة ولذلك حين اقتلعـوا لم يجد مقتلعهم لهم في الارض ادنى جذور.

حين كان واحد من المماليك يقوم بازالة آخرعن العرش أو مـــــن وظيفته ، كانت العملية لاتخلف وراثها اكثر من آثار النزاع العسكـــري السلطوي . ولقد حكم المماليك الاتراك فترة طويلة ، واستطاع برقـوق ان يحل الجراكسة محلهم دون ان ينجم عن ذلك نتائج حتى _ على الصعيد السياسي _ كبيـرة (١).

وعندما جاء العثمانيون استطاعوا ان يحلوا أنفسهم محل المماليك(٢) بكل يسر ودونما أية صعوبة تذكر ، وعندما فتك محمد علي ببقايا المماليك لم يبق لهوءلاء في اذهان الناس الا ذكريات سوداء .

بالمقابل لنعد بعض الشيء الى الوراء ، لما تمكن معاوية بن ابـي سفيان من الاستيلاء على مقاليد الخلافة منتزعا اياها من آل علي بن أبـــي طالب بات لحزب آل البيت والتعلق الشعبي بالهاشميين وهم خارج السلطـة اكبر منه بكثير مما كان عليه وهم على رأس السلطة .

---

(١) : حكيم امين عبد السيد _ قيام دولة المماليك الثانية ط . القاهـرة ١٩٦٧ _ ص ٣٧ _ ٦٠

(٢) : اكرم حسن العلبي _ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ط .دمشق ١٩٨٢ ص ٣٨٣ _ ٤٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد قرابة قرن من الزمان عندما تمكن العباسيون من ازالة الخلافة الاموية ظل شعراء عدة قرون يعبرون عن الاثر الذي خلفه زوال الامويين عن المجتمع ولذلك دان كثير من الناس وآمنوا بعقيدة السفياني المنتظر فالبحث في التاريخ ليس المادة بعينها ، ولكن هو طبيعة التعامل مع المادة التاريخية وطرق النظرة اليها وروءيتها... على هذا لايمكننا التسليم بأن المجتمع في العصر المملوكي تكون من فئتين اجتماعيتين هما : الخاصة والعامة ، فالخاصة لم يكونوا أبدا فئة اجتماعية بل كانوا تجمعا من الرقيق الذي احترف العمل العسكري واحتكر هذا الاحتراف وظل بحكم الاحتكار والطغيان والاستبداد يتحكم بمصير الشعب عدة قرون .

لقد عرف العصر المملوكي فئة اجتماعية واحدة هي ما أطلق عليه اسم العامة ، وعاشت هذه الفئة ونشطت في معظم الميادين متجاهلة للسلطنة المملوكية متحفزة تنتظر الفرصة المناسبة للتخلص من المماليك ، وعبرت عن نشاطاتها الاجتماعية كما سنرى من خلال بعض المظاهر على شكل تكتلات وتنظيمات واصناف او على شكل نشاطات يومية وموسمية وعاش سكان بلاد الشام كما سنرى بالتفاصيل في المدن والارياف والبادية وقامت علاقات بين سكان البوادي والارياف والمدن ولم توجد حواجز تحول بين التمازج بين هذه الفئات ..

انما مما يوءسف له ان المعلومات التي يمكن استخلاصها من المصادر عن سكان الارياف معدومة ، وفقط من الممكن توفير بعض المادة عن سكان المدن والبادية ، وسنسعى لافراد فصل خاص لسكان البوادي ، وسندرس اهم التنظيمات الشعبية داخل المدن ثم نتحول الى البحث في أهم مظاهر النشاطات الاجتماعية .

كان العامة في بلاد الشام هم قوام المجتمع وافراده وكان هذا المجتمع راسخ الجذور قوي الوشائج ولولا ذلك لما استطاع الاستمرار والتماسك فقد تعرض الى مخاطر فريدة من نوعها ، لقد جاء الغز على شكل موجة بشرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاتية . وتمكنوا بعد صعوبات من حكم بلاد الشام لكن حين زالوا ،زالوا سياسيا ولم يخلفوا غير الاثار السياسية ، وجاء الفرنجة كموجات بشرية غازية تدفقت لقرابة قرنين لكن لم يخلف الصليبيون حين زال احتلالهم غير الذكريات العسكرية والسياسية والبغض الشعبي ، وجاء المغول واحدثوا دمارا مريعا من هولاكو الى مابعد تيمورلنك ثم مروا .... وبنيان المجتمع ظل متماسكا ثابت الاركان وجاء حكم الايوبيين والمماليك وغيرهم من الغرباء ولم تتبدل سحنة هذا المجتمع ، بل ظلت عربية في كل مظهر من مظاهرها.

ان بنيان المجتمع العربي في بلاد الشام (وفي غيرها من اقطار الوطن العربي) جذوره العربية بداياتها مع بدايات التاريخ وقد ظلت هكذا طوال العصور ، ولولا عروبة هذا المجتمع لما استطاع بنو امية ان يجعلوا من بلاد الشام مقرا لدولة عربية سيطرت على معظم اجزاء العالم القديم.

ان الحديث عن الحياة الاجتماعية معناه قسرا الحديث عن حياة مدن الشام ونشاطاتها الاجتماعية ، اذ كما سلفت الاشارة ان المادة الاخبارية التاريخية حول سكان الارياف شبه منعدمة وقليلة جدا حول المدن الشامية الاقل شأنا من دمشق ، وعلى هذا الاساس ومن منطلق التصنيف الاجتماعي الذي تبنيناه لابد في البداية من الاجابة على عدد من الاسئلة يتصدرها :

مم تألف العامة ؟ وكيف كان تكوينهم ؟ وماهي السبل التي اتصلوا بها بالسلطة المملوكية او اتصلت السلطة المملوكية بهم تنفيذا لسياساتها ؟ وهذا السؤال يطرح سؤالا آخر حول قوام الحياة الاقتصادية في العصر المملوكي لتتضح آثار الاقتصاد على الحياة الاجتماعية وبما ان النشاطات حصرت داخل المدن فلابد من ان نتعرف بشكل اجمالي الى تكوين المدينة الشامية في العصر المملوكي .

ان غالبية المدن الشامية سبقت بالتأسيس والوجود حركة الفتوحات العربية وقد تطورت عبر العصور لتأخذ داخل الاسوار وخارجها شكلا اسلاميا فعلى العموم تألفت المدينة الاسلامية من عدة احياء للسكنى ومسجدا جامعا في وسط المدينة وانتشرت حول المسجد الاسواق التجارية ، وانحصر عمل كل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جماعة او اصحاب مصلحة من المصالح الصناعية او التجارية او الحرفية في سوق من الاسواق ، ويفيد هذا ان الاحياء كانت بعيدة عن قلب المدينة وتمحور نشاطها الاقتصادي .والتقى السكان في الاسواق التي انتشرت حول المسجد الجامع ، وان الاسواق مرة أخرى كانت متخصصة (١) ، وقد انعكس هذا كما سنرى على صورة النشاطات الاجتماعية والاقتصادية ، ويمكن من خلاله تفسير عدد كبير من المشكلات ، ذلك ان كل سوق تحرك اصحابه بوحي من مصالحهم الذاتية لابوحي من المصالح العامة ، وان المعاناة والمشاكل كانت تحسم داخل الاسواق ولاتنتقل الى الاحياء ، وهناك فوارق بين ماشهدته الاحياء من مشاكل ونشاطات وبين ماشهدته الاسواق ، ولنحاول بعد هذا الشرح التعرف الى تكوين ماعرف باسم العامة وما عرفناه بأنه المجتمع العربي داخل المدن الشامية.

لكل مجتمع من المجتمعات صغر ام كبر رجال بارزون ويأتي البروز لاسباب اقتصادية أو علمية او نسبية او لاسباب خاصة كالشجاعة والبراعة والقدرات الذاتية وفي العصر المملوكي يمكن ان نلاحظ ان التجار والعلماء أو بعبارة اخرى رجال الدين الاسلامي قد احتلوا مراكز الصدارة بين الفئات الاجتماعية وتلاهم فئات اخرى من حرفيين وغيرهم .

ويمكن ان نرد اسباب تصدر التجار ورجال الدين للكتلة الاجتماعية في المدن الى دور الدين الاسلامي والى التحالف الوطيد الذي قام بين النظام الحاكم ورجال الدين منذ توطد شؤون الحكم للسلاجقة (٢) ، فلقد كان لرجال الدين ومازال نفوذا واسعا على فئات المجتمع . وهذا النفوذ ظل دوما اعظم من نفوذ التجار ، لكن التجار شغلوا في العصر المملوكي ادوارا كبيرة جدا ، فنتيجة لنظام الاقطاع العسكري ملك المماليك جل المحصولات الزراعية

---

(١) : Xavuer De Planhol : The world of Islam New York, 1959 , P.P.1-15.

(٢) : سهيل زكار ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ط . دمشق ١٩٧٣ ، ص ٢٠٩-٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الاخص الحبوب ، وكانوا دوما بحاجة الى بيع فائض المنتجات الزراعية وكان التجار هم الذين يتولون هذه العملية ، وكان التجار في كثير من الاحيان يتولون اعمال التصدير والاستيراد الخارجي لصالح السلطة المملوكية فالتجار هم الذين كانوا يجلبون الرقيق الابيض وهم ايضا كانوا يجلبون سلعا اخرى كانت اساسية بالنسبة لاستمرار حياة المماليك ، وطبعا كان التجار يبيعون المحاصيل الزراعية للشعب ولهذا كانوا اصحاب دور موثر وفاعل في حياة السلطة المملوكية من جهة والجماهير الشعبية من جهة اخرى ... وغالبا ماقام التجار ورجال الدين بدور الوسيط بين الجماهير والسلطة المملوكية (١).

وعندما يستعرض الباحث الهيكل الاداري للدولة المملوكية يجد ان هذه الدولة لم تمتلك غير الادارات التي سهلت مصالح الحكم وآليته ، ولم يوجد في النظام المملوكي ادارات ذات منافع للعامة ، لا بل لم يمتلك المماليك وسائل سلطوية داخلية ذات فاعلية مباشرة واتصال بالعامة ،والصلات بين السلطات المملوكية وجماهير العامة كانت تتم عبر التجار والعلماء او مباشرة على شكل مصادمات .

لقد ارتبطت المصالح الاقتصادية للتجار ورجال الدين بالسلطة المملوكية ، وكانت جماهير العامة دوما هي المتضرر ،ذلك أنه حدث في كثير من الاحيان أن عبر العامة عما لحقهم من اضرار ومظالم بوساطة العنف في المظاهرات الصاخبة او اعمال العنف ذات السمات العسكرية ، ففي كثير من الاحيان كان المظلومون من سكان الاحياء يقصدون دار السلطان أو نائبه للتعبير عن شكاويهم وكان السلطان ، ونائبه يرسل من يفرق المحتجين او يرسل احد الامراء للتعرف على مطالبهم ،ونظرا لعدم جدوى هذه الطريقة لجأ سكان الاحياء الى تكوين منظمات تدافع عن مصالحهم.

---

(١) : ايرامارفين لابيدوس - مدن الشام في العصر المملوكي - ترجمة عربية ط . دمشق ١٩٨٥ - ص ٨٩ - ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الحقيقة ان التنظيمات ذات السمات العسكرية في بلاد الشام قديمة جدا والتجربة الشامية في هذا المضمار عريقة (١).

وكان يحدث في بعض الاحيان ان يقوم العامة بالتعبير عن مظالمهم وسخطهم بأعمال سلب ونهب لبعض الاسواق أو بقتل احد المسؤوليين او بطرائق العصيان الفعالة .

والحديث عن نشاطات قوى الاحياء هو حديث عن عدد من المنظمات عرفها العصر المملوكي وكانت ذات جذور ترقى الى ماقبل القرن الثالث للهجرة ، ولابد من التمييز بين ماشهدته الاحياء من تنظيمات وما عرفته الاسواق من نشاطات ، وهنا علينا ان نفرق بين النشاطات العادية اليومية والنشاطات الموجهة ضد السلطة المملوكية ، ففي كثير من الاحيان قام بعض أصحاب الحوانيت في سوق من الاسواق او في عدة اسواق بالاضراب وباغلاق حوانيتهم وبالتمرد على الاجراءات السلطوية ، ونادرا ما اجتمعت مصالح اصحاب الاسواق ككل مع بعضهم بعضا ، ولم تجتمع مصالحهم قط مع مصالح جماهير عامة الاحياء وهذه ثغرة كبيرة نفذ من خلالها النظام المملوكي واستطاع ان يؤثر بشكل مستمر على جماهير الشعب بمجموع فئاته . وكما سلف بنا القول لم يوجد في النظام المملوكي مؤسسات ادارية اوقفت على تأمين مصالح الشعب ، لقد مارس المماليك سلطانهم من خلال العلماء ، فمن العلماء جاء القضاة والمحتسبون واعوانهم الذين اشرفوا على الاسواق وكذلك ادار العلماء الاوقاف التي عادت للمدارس والمساجد والاربطة فلقد جاءت المؤسسات الدينية في المرتبة الثانية بعد المماليك في تملك الاراضي الزراعية ، والدور والحوانيت وغير ذلك مما كان له موارد مالية ، وعلى هذا كان رجال الدين السلطة الفعلية الثانية بعد المماليك ، لابل يمكن ان نقول كان العلماء هم السلطة التنفيذية الداخلية المؤثرة على جماهير العامة والمنحازة بحكم مصالحها والمتعاطفة مع السلطة المملوكية .

---

(١) : سهيل زكار ، امارة حلب ط . دمشق ١٩٨٦ ص : ٢١٦- ٢٢٠.
- شاكر مصطفى - الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق - مجلة كلية الاداب والتربية في جامعة الكويت - العددان الثالث والرابع كانون اول ١٩٧٣ ص ١٧٤- ٢١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويترتب علينا ان نتوقف قليلا مع قضيــة الاسواق ، فالاسواق التجاريـــة والحرفية انتشرت على شكل مايشبه دوائر متوالية حول المسجد الجامع ، وفي الدائرة الاولى وجدت اسواق التجار الذين ملكوا الاقمشة أو العطارة او ماشابه ذلك من مواد ثمينة مثل المجوهرات وصياغة الذهب والفضة ، وأعقب هذه الدائرة دائرة اخرى حوت اسواقا اقل ثروة ، أصحابها كانوا أقل ثروة واهمية مـــن الاسواق المتقدمة وتلا هذه الاسواق أسواق اخرى حوت ورشات الحدادة والصباغة وطبع الاقمشة وغيرها من الحرف والصناعات اليدوية النجسة وهذه الصورة لازالــت حتى الان قائمة بوضوح في مدينة دمشق وغيرها من مدن بلاد الشام(١).

وغالبا ما اختص كل سوق بصناعة او ببيع سلعة من السلع وهكذا شكل اصحاب السوق الواحد صنفا اجتماعيا قائما بذاته له مصالحه التي يتضافــر للدفاع عنها ويفضلها على مصالح غيره وحدث في بعض الاحيان ان اختص اصحـــاب سوق من الاسواق من تجار وسماسرة بسكنى حي او ذقاق في حي تميـز مـــن حيث البناء والثراء ، وغالبا ما تضاربت الاسواق مع بعضها بعضا ونـــادرا ما اهتم اصحاب سوق من الاسواق بغير مصالحهم دوم مراعاة للضرر الذي قـــد يلحق بغيرهم .

وفي داخل الاحياء تميز أصحاب الاسواق عن عامة الناس ونظرا لان كل صنف من العامة سعى في سبيل مصالحه تكتلت فئات من العامة للدفاع عـــن مصالحها ولجأت الى استخدام القوة المسلحة لانها لم تجد وسيلة اخرى لـــم تعرف طوائف العامة من قام بدور لجمع شتاتها وتوحيد جهودها وطاقاتهـــا وأهدافها ، وكان يفترض ان يتولى مثل هذا العمل رجال الدين الاسلامي ، لكن رجال الدين لم يقوموا بهذا الدور واهتموا بصيانة مصالحهم ، القاضي منهم كان شغله الشاغل وهمه الاساسي الاحتفاظ بوظيفته ، وان يورثها من بعده لولد من اولاده ، واذا ما نازعه انسان عليها لجأ الى البذل والبرطلة للاحتفاظ بهذه الوظيفة ومثله فعل كل صاحب وظيفة دينية من خطيب وامام ومتولي وقف او محتســب

---

(١) : محمد بن طولون الصالحي ـ قضاة دمشق ـ ط . دمشق ١٩٥٦، ص : ١٠٣ ـ ١٠٧ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو واعظ او مدرس . لقد شكل رجال الدين طائفة اقطاعية جاءت في المرتبة التالية وتعاونت مع المماليك وشكلت بالنسبة للسلطة المملوكية وسيلة الحكم الداخلي والتسلط على العامة (١).

ان المتفحص للهيكل الاداري للدولة المملوكية يجد ان جميع الادارات قامت في سبيل تأمين الخدمات للسلطة وبتسيير آلية الدولة ولم يكن هناك ولا ادارة او ديوان تعلق بتقديم خدمات او عمل ما للعامة (٢).

فالنظام المملوكي كان عبارة عن مؤسسة عسكرية حاكمة جندها عليهم حماية البلاد والقتال ضد اعداء الملة ، ولم يكن لدى المماليك شرط او قوة امن داخلية او بكلمة اخرى لم يكن لدى السلطة المملوكية ادارة لتسيير الشؤون الداخلية للشعب ، وقام رجال الدين بهذه المهمة ، وليس من الغلو القول بأن الاقطاعي الكبير (المماليك) اهتم بالشؤون الخارجية واهتم الاقطاعي الصغير (رجال الدين) بالشؤون الداخلية ، فكان العلماء بذلك اداة كبيرة من ادوات السلطة لابل كانوا الاداة المسلطة على الجماهير ، ويستخلص من هذا ان العلماء كانوا ينسلخون من العامة مثلما فعل المماليك حينما تحرروا من الرق وتسلموا مناصب السلطة .

ان صورة الاحوال كانت كالتالي : كان يؤتى بالغلام من الرقيق فيدرب ، ومن ثم يتخرج ليتسلم زمام مسؤولية من المسؤوليات (٣) ، وبالمقابل كان الرجل من العامة ينضم الى رجال الدين حتى يتخرج فتوكل اليه احدى الوظائف والمسؤوليات الدينية ، وهكذا انعكس دور العلماء فبدلا من

---

(١) : زكار (امارة) المرجع نفسه ص ١٨١ - ١٨٧
- أحمد عبد الرزاق احمد . البذل والبرطلة - زمن سلاطين المماليك ط . القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٧- ٣٧ ، ١٨٢- ٢٢٠.

(٢) : يمكن التيقن من هذا من استعراض محتويات كتاب صبح الاعشى للقلقشندي.

(٣) : تناول السيد الباز العريني هذه المسألة بالدرس في كتابه المماليك انظر ص ٨٣- ٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان يقودوا الجماهير ويعبروا عن مصالحهم ككل كانوا وسيلة فاعلة على الجماهير ، ومتعاونة مع السلطة العسكرية المملوكية ، ولهذا ظل العامة يشكلون مجموعة من الاصناف والطوائف كل يسعى في سبيل الحفاظ على مصالحه ولم تتجمع ارادة العامة وطاقاتهم لتتحول الى ثورة ترث النظام المملوكي علما ان الفرصة تهيأت مرارا للقيام بمثل هذا العمل .. وهكذا بات علينا الان ان نتحدث عن العامة كأصناف وطوائف هي أصناف التجار ، الحرفيون، والتنظيمات الشعبية شبه العسكرية ، وبالوقت نفسه ان نتحدث ايضا عن العلماء كطائفة خاصة من طوائف العامة .

ان الحديث عن العلماء يطرح سؤالا من هم العلماء ؟ ومن أي فئات المجتمع جاؤوا ؟ وماهي المراحل التي قطعوها اثناء تكوينهم الديني؟ وأخيرا هل كان العلم والعمل الديني حرفة موروثة أم هواية ؟

في الاصل شجع الاسلام أعمال العلم والتعلم كثيرا وأقبل الناس في عصور مختلفة على طلب العلم كهوية وسبيل من سبل التعبير، وليس سبيلا من سبل كسب الرزق والمعيشة ، وحدث في كثير من الحالات ان تعين بعض العلماء في وظائف الدولة أو حصلوا على الهبات والأعطيات نتيجة تأليف كتاب او عمل فكري ما ، وظل الاقبال على العلم هواية فترة طويلة وكان بعض مشاهير الائمة تجارا أو أصحاب حرف صناعية او سواها(١) ، لكن هذا الوضع الحق به تغييرات جذرية بعد قيام السلطنة السلجوقية وبناء نظام الملك المدرسة النظامية في بغداد التي كان لها فروعها في مختلف الامصار ، لقد تحالف السلاجقة مع من بات يعرف باسم رجال الدين . وجاء هذا التحالف نتيجةلسياسة التسنين التي اتبعها السلاجقة ، وقد ترسخ هذا التحالف بشدة في بلاد الشام اثناء

---

(١) : كان ابو حنيفة النعمان بن ثابت بزازا انظر ترجمته في الاعلام للزركلي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حقبة الحروب الصليبية (١) ، وشهدت الساحات الشامية وغيرها نمو ظاهـــــرة جديدة في تاريخ الاسلام هي ظاهرة الأسر الدينية المحترفة حيث بات العمل في المجالات الدينية مثله مثل العمل في آية حرفة من الحرف (٢) ، انما على الرغم من ذلك ظل باب الهواية مفتوحا وظلت الفرص مهياة لان يحترف العمل الديني بعض الناس عن غير طريق الوراثة .

لقد تولى رجال الدين المحترفين الآن بعض الوظائف الدينية وتقلـب بعضهم مابين المناصب والوظائف ، لكن غالبا ما تخصصت بعض الاسر الدينية في نوع محدد من العمل الديني حيث اخذت بعض الأسر تنجب القضاة ، وبعضها الاخر المدرسون ، وبعضها الوعاظ وهكذا (٣) ... وكان العالم المتسلم لاحدى الوظائف غالبا مايقدم على التصرف بموارد وظيفته المتحصلة من الاوقاف والهبـــات والمساعدات ، وقدم العلماء بين صفوفهم عناصر الادارة للسلطنة الايوبية ومـن بعدها للسلطنة المملوكية وكان كبار الاداريين من كتاب وقضاة ووزراء أصحاب نفوذ وتأثير وسلطان واسع ،وعندما يعود الباحث الى ماكتبه العماد الاصفهاني عن عصر صلاح الدين يخرج بانطباع ان العماد كان هو الآمر الناهي في دولة صـلاح الدين انما بترتيب ثان لان القاضي الفاضل كان هو رجل الدولة الاول أيـــام صلاح الدين (٤) يدلل هذا على ان وحدة الاختصاص والعقلية والمفاهيم قد جمعت بيـن أركان الادارة المدنية في الدولتين الايوبية والمملوكية وبين ارباب الوظائـــف الدينية ، وهكذا ملك العلماء في هذين العصرين امكانات سلطوية هائلة التأثيـر

---

(١) : زكار (امارة) المرجع نفسه ص ١٨١- ١٨٧ .
هذا ويلاحظ ان سلاطين المماليك اعتادوا على مخاطبة الشعب عن طريـق العلماء فعندما حرر بيبرس (مثلا) صفد كتب بالبشارة الى قاضي قضاة الشام شمس الدين بن خلكان لينشر الخبر بين الناس ، انظر موسى بـن محمد اليونيني ـ ذيل مرآة الزمان ط . حيدر اباد الدكن ١٩٥٤ ج٢- ص ٣٣٨ ٣٤٣ .

(٢) : محمد بن علي بن شداد ـ تاريخ الملك الظاهر ط . بيروت ١٩٨٣ ص ٢٠٠- ٢٠٤ ٢٣٨- ٢٣٩ .

(٣) : ابن شداد ـ المصدر نفسه ص ٢٠٠- ٢٠٤ ، ٢٣٨- ٢٣٩ .

(٤) : الفتح بن علي البنداري ـ سنا البرق الشامي . ط . القاهرة ١٩٧٩ ص ٢١- ٢٤ ، ٦٣ - ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاسمة في كثير من الاحيان ، لكن هذه الامكانات سخرت لخدمة مصالح أصحابها الاقتصادية والسلطوية ، ولم تسخر في سبيل احداث تغيير في السلطة او في مناهجها.

على هذا كان رجال الدين والعلماء أعيان قياديين في المجتمع الشامي وقد عمل بعضهم كمساعدين اداريين للنظام العسكري الحاكم وعمل بعضهم الاخر من ارباب الوظائف الدينية كهيئة حاكم داخلي انما بتوجيه من السلطة العسكرية وبتنسيق مختلف الالوان معها ويوضح عمل العلماء وعلاقتهم بالسلطة الايوبية والمملوكية صورة التداخل بين النظام الحاكم والمجتمع سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، فلقد كان العلماء في مجتمع عاش في ظل أوضاع دينية ، مجتمع كان القول الفصل فيه للدين ، كان رجال الدين هم قادة الجماهير ونخبتهم فهم وحدهم ملكوا القدرة على التفسير والافتاء والبت في القضايا دون ان ينازعهم منازع، ومع هذا السلطان الديني الهائل ملكوا سلطانا اقتصاديا كبيرا فارباب الوظائف الدينية استغلوا موارد الاوقاف وغيرها وكان لرجال الادارة المدنيين في الدولة حصصا كبيرة من الموارد المالية من مستغلات الاقطاعات والضرائب والعشور وغير ذلك (١).

وفي الحقيقة ملك العلماء أو بكلمة اخرى كان تحت تصرف العلماء امكانات وموارد مالية واقتصادية كبيرة جدا ، لكن استغلال هذه الموارد والحفاظ عليها اعتمد على التعاون بينهم وبين المماليك ، فالمماليك ملكوا القوة العسكرية الحاسمة مع الاعتراف بشرعية وجودهم وحكمهم بناء على التفويض المقدم من الخليفة للسلطان المملوكي خاصة بعد سقوط الخلافة في بغداد واعادة تأسيسها في القاهرة (٢)، وقد حالت أنظمة التوريث الاسلامية مع أنظمة الوقف دون تكديس الثروات بشكل مستمر في أيدي الأسر الدينية ، فصاحب الوظيفة كان يستغل

---

(١) : ابن شداد . ـ المصدر نفسه ص ٢٣٦ـ ٢٦٤.

(٢) : ابن عبد الظاهر (الروض) المصدر نفسه ص ٩٩ـ ١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوقف انما عندما تتوفر الشكاوى ضد نزاهته كان يعزل ويستبدل بآخر وكانت السلطة هي التي تتولى أعمال العزل والتعيين الجديد ، وهذا يوضح واحدا من الاسباب التي جعلت العلماء من أرباب الوظائف يحرصون كل الحرص على نيل رضا السلطان ونوابه ، وفقط كانت تصدر بعض الاعمال المعارضة الناقدة للسلطة عن علماء غير موظفين (١) وهنا كان ينبري الموظفون لمقاومة هذا المعارض أو الناقد وتوجيه مختلف التهم اليه وايداعه السجن أو التخلص منه (٢) ، ونخلص من هذا الى أن العلماء وان جاؤوا من بين صفوف العامة كما أسلفنا انخلوا الى أبعد الحدود وارتبطوا بالسلطة ، ونضيف الى هذا ماوفر في أذهان الناس حول مفاهيم الفتنة والطاعة للسلطان وحقوق السلطان وواجباته على الرعية ، والسلطان اما أن يكون سلطان غلبة أو سلطان تفويض ، ورأى العلماء ضرورة المبادرة بالطاعة لسلطان الغلبة في حال زوال سلطان التفويض (٣) ، فقد فاوض علماء دمشق غازان بعدما تخلى السلطان المملوكي عن مدينتهم وفعلوا الشيء نفسه فيما بعد عندما حاصر تيمورلنك دمشق ، لقد رأى غالبية العلماء ضرورة تقديم الطاعة للسلطان ،ولم يفكروا قط في مقاومة المتغلب ومن ثم انشاء سلطة شعبية بديلة للسلطة المهزومة فالعامة كانوا يحكمون ويدفعون الخراج للسلطان ولايحق لأحد من العامة أن يكون سلطانا (٤) .

---

(١) : اليونيني - المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ١٦٣- ١٨٦،١٦٤- ١٩١.

(٢) : انظر ترجمة حياة ابن تيمية الذي توفي في سجنه في قلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ ١٣٢٨م.

- اسماعيل بن عمر بن كثير - البداية والنهاية في التاريخ ط . القاهرة مطبعة السعادة ج١٤ ، ص ١٣٥- ١٤١.
- الاعلام - للزركلي (مادة احمد بن عبد الحليم)

(٣) : علي بن محمد الماوردي - الاحكام السلطانية - ط . القاهرة ١٩٦٠، ص ١٣- ١٥.

- احمد بن عبد الله القلقشندي - مآثر الانافة في معالم الخلافة ط . الكويت ١٩٦٤، ج١ ص ٣٩- ٦٠.

(٤) : القلقشندي - المصدر نفسه - ج١ ص ٦٢- ٧٦

- زكار - مدخل - المرجع نفسه ص ٣٩- ٤٢
- مظهر شهاب - تيمورلنك - اطروحة دكتوراه غير منشورة - الجامعة اليسوعية ، بيروت ، ١٩٨١ ص ٢٩٤- ٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان العلماء عند اسراعهم للاعتراف بالسلطة المتغلبة يفعلون ذلك حفاظا - برأيهم - على مصالح جماهير العامة ، وفي سبيل ضمان الأمن والحيلولة دون السلب والنهب وتفجر أعمال العنف الداخلية ، وأن يتم التفاوض مع الجيوش الغازية، جيوش غازان ، ثم تيمورلنك فيما بعد على عدم نهب مدينة دمشق أو غيرها أمر منطقي ومعقول لكن ما الذي يدفع جماهير العامة الى اعمال السلب والنهب الداخلي بدلا من التصدي للعدو الخارجي ؟

في سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م حوصرت حلب من قبل الصليبيين وحلفائهم ولم يكن بحلب سلطان وجيوش رسمية ومع هذا استطاع الحلبيون أن يشكلوا جبهة مقاومة حافظت على الامن الداخلي ودافعت عن المدينة وحالت دون سقوطها للغزاة (١) ، انما لماذا تغير الحال الى هذه الدرجة ؟ يبدو ان مرد ذلك أنه في مطلع القرن السادس للهجرة لم يكن العلماء قد اخذوا الشكل الذي أخذوه في العصرين الايوبي والمملوكي وكانوا مايزالون قادة جماهيريين ارتبطت مصالحهم بجماهير العامة وليس برجال السلطة . بعد هذا العرض لعله من المفيد أن نأتي على ذكر بعض الحوادث البارزة لتكون بمثابة الشاهد والبرهان.

انما قبل ذلك لابد من التذكير ان تعدد انتماءات العلماء الى المذاهب والى الطرق الصوفية جعلهم يتألفون من عدة اتجاهات (حزبية) وغالبا لم يوال المماليك أي حزب من الاحزاب أو الطرق ، واستفادوا من الصراعات وحاولوا في كثير من الأحيان الحيلولة دون تفجرها ، وعلى هذا صار المسجد الواحد فيه أكثر من محراب وفيه اكثر من امام وصار المصلون كل منهم يأتم بامام مذهبه الشافعي والحنفي والحنبلي وغير ذلك(٢).

---

(١) : سهيل زكار - الحروب الصليبية . ط . دمشق ١٩٨٤ ، ج١ ، ص ٦٩- ٧٠.

(٢) : الماوردي - المصدر نفسه ص ١٠٣ - ١٠٤ .

- القلقشندي - المصدر نفسه ج١ ، ص ٥٧٩ ، هنا ومازالت محاريب المذاهب الاربعة قائمة حتى الان في مسجد بني أمية بدمشق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد جمعت المنافع والمصالح بين العلماء والمماليك وكان العلماء على استعداد لتقديم الطاعة والاعتراف لأي سلطة بديله ، وهكذا عندما احتلت جيوش غازان دمشق سنة ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م قام كبار رجال الدين بالمبادرة للتفاوض مع غازان وعاونوه لانشاء سلطة بديلة لسلطة المماليك ، وكانت دمشق حين سقطت لغازان لم تسقط قلعتها معها وحاول المغول احتلال القلعة ، ولقد سعى بعض العلماء للضغط على شحنة القلعة للتسليم لغازان (١) ، وثانية عندما عاد غازان الى دمشق وتخلى المماليك عنها سعى كبار العلماء من جديد للتفاوض معه باستثناء ابن تيمية الذي لم يكن متسلما لمنصب من المناصب ،فقد استطاع ان يحرض سكان المدينة ويقنعهم بعدم الخروج عنها ثم ذهب الى القاهرة فاقنع السلطان محمد بن قلاوون بامكانات الانتصار على غازان وكان من نتائج ذلك معركة شقحب التي انتصر فيها المماليك بشكل حاسم (٢)، وأزالت معركة شقحب الخطر المغولي لفترة مديدة حتى مطلع القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد ، عندما غزا تيمورلنك دمشق وتخلى السلطان فرج بن برقوق عنها ، شكل العلماء وفدا للتفاوض مع تيمورلنك حول شروط تسليم المدينة له ، وكان ابن خلدون من بين الذين خرجوا للتفاوض مع تيمورلنك ، وتسلم تيمورلنك دمشق وقام بأعمال مدمرة هائلة فيها، ثم انسحب فعادت السلطة المملوكية اليها ، وعاد العلماء من جديد فجددوا الاعتراف بالسلطة المملوكية ، ويلاحظ في جميع الحالات ان المماليك لم يفكروا قط بمعاقبة العلماء على مواقفهم السياسية هذه (٣) فالمعيار آنذاك كان بعيدا عن معايير الوطنية والانتماء الى الارض ، وكانت المعايير تلتزم بالمصالح الدنيوية والمنافع دون سواها ، وفي الربع الاول من القرن العاشر للهجرة ، السادس عشر للميلاد تخلى العلماء عن النظام المملوكي

---

(١) : ابن كثير – المصدر نفسه ج١٤ ، ص ٦-١٣

(٢) : ابن كثير – المصدر نفسه ج١٤ ، ص ٢٣- ٢٧.

(٣) : عبد الرحمن بن خلدون – التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ط. القاهرة ١٩٥١ ص ٣٣٦ – ٣٨٠.

- احمد بن محمد عربشاه – عجائب المقدور في نوائب تيمور ط.بيروت ١٩٨٦ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٧.
- محمد بن محمدبن صصري – الدرة المضية في الدولة الظاهرية ، ط . لوس انجلوس – ١٩٦٣ ، ص ١٤٤ – ١٦٥ .
- مظهر شهاب – المرجع نفسه ،ص ٢٩٤ – ٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واعترفوا بالعثمانيين وقرروا عدم مقاومتهم مع ان الاعتراف بالعثمانيين كان من ابسط معانيه الحاق بلاد الشام بالامبراطورية العثمانية المترامية الاطراف ، وصارت بلاد الشام مجرد ولاية في هذه الامبراطورية بعد ان كانت شريكا لمصر في حكم سلطنة المماليك (١).

لقد تبنى العلماء سياسة الاعتراف بالقوى الغازية المسلمة حتى وان كان الغزاة بعيدين جدا عن بلاد الشام ، ولم يسعوا قط لانشاء نظام بديل للنظام المملوكي ، وكانوا يخشون من خلو البلد من السلطان ، فانعدام السلطان بالنسبة لعلماء أهل السنة كان يعطل شؤون الحياة ويصيب احكام الشريعة بالشلل و بدون سلطان كان من غير الممكن ابرام عقود الزواج او سواها أو تطبيق احكام الشريعة والحفاظ على الامن والنظام العام ودرء المخاطر الداخلية (٢).

لعل من الاسباب التي حالت بين العلماء وبين السعي لانشاء سلطة بديلة لسلطات المماليك المنهارة ان التجربة السياسية السنية لم تسمح بذلك على عكس التجربة الشيعية في هذا المضمار ، فالسنة لم يعانوا قط من مسألة غياب الامام أو من يمثله في حين ان الشيعة الامامية اضطرت الى مواجهة مشكلة السلطة بعد غيبة الامام الثاني عشر فأوجدت نظرية عرفت باسم نظرية ولاية الفقيه (٣) وبادراكنا لهذا الشأن نملك التسويغ لكامل المسألة ذلك ان عددا معتبرا من العلماء مثل ابن تيمية لم يكن موظفا لدى المماليك له مصالح ومنافع متبادلة معهم.

لقد ملك العلماء نفوذا معنويا ودينيا واقتصاديا ولم يمتلكوا قوى عسكرية او شبه عسكرية خاصة بهم ، فالمماليك هم الذين ملكوا الطاقة العسكرية واستخدموا نفوذ العلماء كقوة ضاغطة على الجماهير، وعندما كان ينحسر ظل المماليك كان العامة

---

(١) : محمد عبد المنعم السيد راقد - الغزو العثماني لمصر ط. القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٥٩ - ١٨٧.
- العلبي - المرجع نفسه ،ص : ٣٨٣- ٤١٢.

(٢) : القلقشندي - المصدر نفسه ،ج١ ص ٢٨- ٢٩.

(٣) : احمد النراقي - ولاية الفقيه ط. بيروت ١٩٩٠ ص ٩- ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الناس وحدهم المتملكين للقدرات والامكانات العسكرية ، وبما أن العامة لم يكونوا منتظمين في نطاق عمل سياسي واحد فغالبا ما استغلوا غياب السلطة المملوكية فاستخدموا امكاناتهم العسكرية للسلب والنهب ، ومن هذا المنطلق كان العلماء يسارعون للتحالف مع أية قوة عسكرية خارجية لحفظ النظام ، ويجب في هذا المقام الا تغرينا مبادرة العلماء وعامة الناس في بعض الحالات الى التدرب على حمل السلاح (١) ، فتلك جاءت بمثابة لحظات جهادية عاطفية اثناء مقاومة الصليبين او خلال الاستعداد للحملات ضد أرمينيا .

كانت طبيعة العلماء بشكل عام بعيدة عن الطباع العسكرية فالمسلك الديني والوقار والرزانة العلمية ، وطبيعة الاختصاص الديني تتباين والخلق العسكري وحمل السلاح ، ولذلك التحق العلماء بالعسكريين المماليك وكانوا دوما يخافون الى ابعد الحدود من الميليشيات والتنظيمات الشعبية شبه العسكرية .

ومن المقرر أن مؤرخي العصر المملوكي انتموا جميعا الى طائفة العلماء وكانوا منهم ، وعندما نعود الى كتابات هؤلاء المؤرخين نجدهم يستخدمون عبارات فيها النيل والشتيمة ضد زعماء منظمات جماهير العامة وحركات العامة ، وهذا واضح في كتابات ابن طولون تمام الوضوح فابن طولون اكثر من الحديث عن شؤون ومشاكل عصره ، وموادة أعم فائدة من مواد غيره من المؤرخين في دراسة الحياة الاجتماعية في دمشق في اواخر العصر المملوكي (٢).

---

(١) : ابن كثير - المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٢٢- ٢٦.

(٢) : شمس الدين محمد بن طولون الصالحي - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ط . القاهرة ١٩٦٢ ، ج١، ص ٢٨، ٩٢، ١٥٣، ١٧٦، ١٨١، ١٩٦، ٢٠٣، ٢١٢، ٢٢٤، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٨، ٢٨٣، ٢٩٥، ٣١٤، ٣٣٠ .
ج١ : ص ١٥، ٢٤، ٣٥، ٤٩، ٦٦، ٩٩، ١١٤، ١٣٤، ١٦١، ٢٠٧، ٢١١، ٢٥٥، ٣٤٤، ٣٨٩.
ج٢ : ص ٢١، ٢٢، ٢٧، ٤٢، ٤٣، ٥٨، ٦٢، ٨٣، ٩١، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما كان العصر المملوكي وقبله الايوبي عصرا انعدم فيه الاستقرار السياسي ، واستمرت به الفتن والحروب الاهلية ، فقد تورط بعض العلماء وأرباب الوظائف الدينية في مؤامرات المماليك ضد بعضهم بعضا وأيدوا قائدا مملوكيا ضد آخر وغالبا ماكان لتأييدهم أهمية حاسمة في حروب المماليك والتنافس بين قادتهم ومقدميهم (١).

لقد كان المماليك دوما بحاجة الى المال والى الطاعة العمياء من قبل الجماهير وغالبا ماتتطلبت الحاجة الى المال فرض ضرائب جديدة او القيام بأعمال مصادرة لبعض التجار وقام العلماء في غالب الاحيان بتسهيل مهام المماليك في هذا السبيل فأفتوا بشرعية الضرائب وتسويغها وغضوا النظر عن المظالم وأعمال العسف التي رافقت جمع الضرائب (٢) ، كما أفتوا في كثير من الاحيان بشرعية تحويل بعض عائدات الاوقاف والصدقات لتلبية المطالب العسكرية الملحة وفي كثير من الاحيان طلب من العلماء والقضاة الافتاء بالاقتراض من التجار أو باعطاء السلطان الحق بأخذ أموال أوقفت في الاصل لرعاية المساجد والمدارس والايتام (٣) ولم يقتصر دور العلماء على تقديم الفتوى والتسويغ للعمل السلطوي بل أسهمت فئات منهم في تنفيذ الاجراءات المالية بشكل مباشر فمن العلماء جاء الاداريون ومفتشو الاسواق وجامعو الضرائب والشهود المحترفون الذين سجلوا عقود الصفقات وغيرها (٤) ، وعلى هذا كان مختلف رجال الدين مندمجين بشكل أو آخر في أجهزة الدولة وكان القضاة يتقدمهم قضاة القضاة أوسع العلماء نفوذا واعلاهم مكانة وتلاهم شيوخ طوائف الصوفية والمسؤولين عن امامة المساجد الكبرى وادارة المدارس والاوقاف مع الذين تولوا رعاية نقابة الاشراف وكان الوصول الى منصب القضاة مطمعا تطلع اليه كل العلماء وبذل بعضهم في سبيل الحصول عليه رشاوى كبيرة . وكان بذل الرشاوى والسعي

---

(١) : ابن طولون ، المصدر نفسه ،ج١ ص ٣٢، ٣٣، ٤١، ٤٤، ٥٣، ٥٥، ٦٢، ٧٠، ٨٣، ٩٥، ١٣٩.

(٢) : ابن طولون المصدر نفسه ،ص: ٤٢ ، ٤٤، ٤٥ ، ٥٣، ٥٥ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ١٣٩.

(٣) : ابن طولون ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ ، ٤٥، ٨٣، ٩٥، ١٣٩.

(٤) : ابن شداد - المصدر نفسه ص ٢٣٦- ٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لشراء المناصب وراء تأسيس ديوان البذل والبرطلة الشاذ في الدولة المملوكية (١).

كان الفقهاء والقضاء تقع على عاتقهم مسؤولية الأعمال التشريعية الصادرة عن مدارس أهل السنة الرئيسة ،فالدولة الايوبية ومن بعدها دولة المماليك تظاهرت بالتعصب الشديد لفكر أهل السنة ، ولم يكتف السلاطين بتعيين قضاة لكل مذهب من المذاهب الاربعة بل كثيرا ماتم التعاون بين السلطة الحاكمة ورجال الدين في سبيل القضاء على أي تحرك متمرد على الفكر الرسمي يوسمه بالهرطقة او الكفر (٢) ، كما ان بعض الفقهاء المتعصبين قاموا ادراكا منهم لهذه النواحي باصدار فتاوى تطلب من السلطة الحاكمة القيام بحملات ابادة داخلية ضد العناصر غير السنية من سكان البلاد وفتاوى ابن تيمية في هذا المجال معلومة ، وحملات الابادة التي تعرض اليها سكان جبال لبنان حيث اتت على ذكرها مختلف المصادر التاريخية للعصر المملوكي (٣).

كان الواجب الاساسي للقضاة والفقهاء والمدرسين تسيير أعمالهم الرسمية فقد قام قاضي القضاة في كل مذهب من المذاهب بتعيين معاونين له ، لوضعهم بالاعمال القضائية في المدن التابعة للنيابة ومثلما خضعت مسألة تعيين قضاة القضاة للمساومة والبذل والبرطلة ، خضعت مسألة تعيين معاوني القضاة الى المعايير نفسها ، مما كان يؤدي في بعض الأحيان الى أعمال الشكوى ضد المفاسد ويستدعي بالتالي تدخل السلطان او النائب .

---

(١) : الحق احمد عبد الرزاق احمد بكتابه " البذل والبرطلة " جدولا بأسماء الموظفين والقضاة مع الوظائف التي بذلوا الرشاوى لنيلها انظره ص ١٨٢ - ٢٠٧.

(٢) : يجد المرء في حياة ابن تيمية الامثلة المناسبة انظر ترجمته في البداية والنهاية ج١٤ ، ص ١٣٥ - ١٤٠.

(٣) : انظر المقريزي - المصدر نفسه ج٢،ق ٣ ،ص ٩٣٥- ٩٥٢
- صالح بن يحيى - تاريخ بيروت - ط . بيروت ١٩٨٩ ص ٢٦- ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في كثير من الاحيان كان بعض القضاة يلجأ الى تعيين اعداد كبيرة من المعاونين تتجاوز الحاجة كي يجمع مايمكنه من سداد مادفعه لشراء منصبه وللحفاظ عليه والانتفاع منه ، وأدى هذا في بعض الاحيان الى قيام نزاعات بين وكلاء القاضي نفسه أو بين مختلف وكلاء القضاة الاربعة ، وتدخل السلطان باصدار مراسيم حددت عدد المعاونين لكل مذهب من المذاهب كما حدث سنة ٧٨٢هـ ١٣٨٠م(١) ، انما مع مرور الايام كانت تخرق هذا المراسيم وتعود حالة الفوضى وكان القضاة ايضا مسؤولين من اعمال التوثيق او ماعرف باسم الشهود المحترفين (كتاب العدل) وكان قبول الشهود والاعتراف بهم بشكل رسمي قد خضع ايضا لمسألة الرشاوى و لاقدام الشهود على التزييف واضاعة الحقوق ، وغالبا ما كان كبار القضاة متميزين بالمعرفة داخل مذهبهم الذي انتموا اليه ، لذلك عمل بعضهم بالوعظ والتدريس وتسلم بعضهم قيادة مجموعة من المجموعات الصوفية ، كما أنيط بالقضاة رعاية أمور الايتام والمطلقات والاشراف على ممتلكات غير المؤهلين لاسباب متعددة (٢) ، وهذا يفيد مجددا ان سلطان القضاة على الحياة العامة كان واسعا جدا وبقدر اتساعه اتسع معه النفوذ وفرص جمع الثروات ، والمدهش في هذا المقام ان مامن واحد من القضاة فكر في استغلال منصبه لصالح جماهير العامة أو في سبيل تغيير النظام الحاكم المضطرب الشؤون والضعيف في كثير من الجوانب ، ولعل من بين الاسباب التي حالت دون هذا ان القضاة ظلوا ملتزمين بعقلية الموظف الذي يملك السلطان وحده القدرة على تثبيته أو صرفه أي ظلوا دوما يدينون بعقيدة ان السلطة هي مصدر القوة وليس الشعب ، واخضع القضاة لسلطانهم ووضعوا تحت مراقبتهم جميع رجال الدين غير الموظفين وسيطروا عليهم من باب النفوذ الديني القيادي ومن خلال ما ملكوه من امكانات اقتصادية ودعم سلطوي ، وغالبا ما اتهم أي متمرد بالزندقة والخروج على القانون ومن ثم أودع السجن وشهر به .

---

(١) : المقريزي - المصدر نفسه ،ج٣ ،ق ١ ،ص ٤٠٠- ٤٠١ .
- ابن قاضي شهبة ، المصدر نفسه ،ص ٣٦- ٣٧

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه ،ج٣،ص ٣٨٠ - ٣٩٥- ٤٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت الدولة تدفع العطاءات (الرواتب والاجور) للقضاة والمحتسبين ومدرسي المدارس والوعظة وغالبا ماكسب هؤلاء مبالغ اضافية كبيرة جدا من خلال ممارسة اعمالهم أو خلال التصرف بموارد الاوقاف التي كانوا يديرونها (١) لذلك جمع بعضهم ثروات طائلة وانعكس هذا سلبيا على طلبة المدارس وصغار المدرسين والعلماء حتى أن بعضهم لجأ الى التسول ، ولاشك ان اعداد كبيرة من صغار العلماء من قراء القرآن ومنشدي الاناشيد الدينية من المتصوفة قد اعتمدوا على الاحسان كمورد للعيش ، والتمسوا دوما الهبات من الاغنياء وآجروا أنفسهم لأعمال التعازي اثر وفاة كل انسان أو لأعمال الفرح في مناسبات الختان والزواج والرجوع من الحج وغير ذلك من المناسبات الدينية ذات المحتوى الاجتماعي(٢).

وجملة القول شكل العمل الديني موردا متفاوت الاقدار لكل عنصر من عناصر المجتمع أخفق في مجالات العيش المتعبة أو التي احتاجت الى رأسمال أو اتقان عمل صناعي وأبسط معاني هذا الوضع ان المجالات الدينية قد امتصت أعداد كبيرة من العاطلين عن الاعمال وهكذا ارتبطت الكتل العاملة في المجالات الدينية بكبار رجال الدين الذين بدورهم نجح بعضهم في تأسيس أسر احترفت القضاء أو التدريس او الوعظ وملكت موارد مالية واقتصادية ونفوذ أسروي كبير ، وعلى هذا الاساس لم يقتصر نفوذ وتأثير كبار رجال الدين على عامة الناس على شؤون السلطة بل شارك العلماء التجار وكبار الاغنياء نشاطاتهم وأجادوا فهم صنعة المال والاقتصاد وبذلك تجاوز دورهم دور الوسيط بين السلطة العسكرية ، والعامة ، وحدثت تداخلات كبيرة جدا كل محصلاتها صبت في قناة واحدة: منافع رجال الدين وترسيخ سلطانهم ونفوذهم ، وفي كثير من الاحيان تصدى بعض رجال الدين للسلطات الحكومية ، اثناء فرضها بعض الضرائب أو سعيها كما حدث سنة ٨٠٣ هـ ١٤٠٠م لمصادرة بعض اموال الاوقاف والتجار(٣)،وأكسب هذا الموقف العلماء الشعبية وحسن السمعة واكسبهم في الوقت نفسه مركز المساومة مع السلطة

---

(١) : شمس الدين محمد بن طولون الصالحي - قضاة دمشق ط . دمشق ١٩٥٦ ،ص ١٩٣ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٥٨ - ٢٦٠.
- انظر " احمد " البذل والبرطلة " المرجع نفسه- نصوص المراسيم الملحقة بآخر الكتاب ص ٢٠٩ - ٢٢٠
(٢) : هذه العادات مازالت قائمة حتى الان في معظم المدن الشامية .
(٣) : المقريزي - المصدر نفسه ج٣ ،ق ٣ ،ص: ١٢٠٨ - ١٠٢٩ ، ١٠٣٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المملوكية " لقد استخدم العلماء نفوذهم أيضا لحماية النظام الديني العـــام فاحتجوا على سلوك بعض المماليك المستهترين وأمنوا للسلاطين اثناء الحـــروب والمخاطر الخارجية الوضع الداخلي حيث ضغطوا على الفئات الشعبية وهدأوا الفئات المتنازعة والصراعات بين الاحياء والقرى أي ساعدوا على ضمان وحـــدة الجبهة الداخلية ، وختاما لقد ملك رجال الدين امكانات هائلة لم يسعـــوا لاستغلالها لصالح الجماهير المحكومة ولم يفكروا قط بالتمرد أو الثورة علـــى النظام ولم تتجاوز نشاطاتهم اثناء وقفتهم في وجه النظام أعمال النقـــد والاحتجاج وعلى هذا كانوا الاداة الفعالة بيد السلطات العسكرية في حكمهـــا لجماهير سكان بلاد الشام ، فسلطان العلماء هو الذي صان السلطان او نوابـــه داخليا وليس الجيوش او المماليك المسلحين لان سلاح الدين كان أمضى من أي سلاح آخر .. كما يلاحظ أن هذا السلاح لم يكن موحد الاهداف وان انتمى كليا الى مذاهب أهل السنة . كان قوام النظام المملوكي الحاكم ومن قبله النظام الايوبي يعقـــد على القوات المسلحة ، وكان المسوغ لوجود القوات العسكرية الدفاع عن البـــلاد والسعي لتحرير المحتل منها ، ولم يملك كما سلف ورأينا أجهزة للادارة المدنية الداخلية ، وتولى امور الادارة المدنية رجال الدين وعلى هذا ارتكز النظام علـى قوتين عسكرية ومدنية ، وبالنظر لسعي هاتين القوتين لخدمة مصالحهما الخاصـــة ومنافعهما المشتركة وجد السواد الاعظم من الشعب انفسهم انهم بلا حماية وبـــلا مدافع منهم يعبر عن وجهات نظرهم او يدفع الضر والاستغلال عنهم ، لذلك وجـدوا أنفسهم مضطرين لتكوين قوات محلية ذات سمة شبه عسكرية لحماية سكان الاحياء وعامة الناس من قاطني المدن ،وحين لجأ الناس الى اعتماد وسائل العنف فعلوا ذلـك مضطرين حيث كان من غير الممكن دفع العنف بغير العنف ،وكانت مواريث بـــلاد الشام في مجالات تشكيل التنظيمات شبه العسكرية كبيرة كما جرت الاشارة من قبل فلقد عرفت مدن الشام منظمات الاحداث (١) ثم مزجت مواريث الاحداث بتجربـــة

---

(١) : انظر شاكر مصطفى ، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق ، مجلة كليـــة الاداب والتربية ـ جامعة الكويت ـ العددان ٣ ـ ٤ عام ١٩٧٣، ص ١٧٤ـ ٢١٣.
ـ كلود كاهن ، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الاسلاميـــة خلال القرون الوسطى ، ترجمة عربية ، مجلة الاجتهاد، العدد /٦/ عام ١٩٩٠ ، ص ١٠٥ ـ ٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفتوة المطورة في العراق (١) وانتقلت عدوى تجربة الفتوة من الشام الى مصر ، وطورت محليا وصار لها طقوسها الخاصة ، وانتقد التركماني ادريس بن بيدكين بن عبدالله طقوس الفتوة في كتابه اللمع والحوادث والبدع، ومقدر ان التركماني قد عاصر قيام الحكم المملوكي وصورة هذه الطقوس موزعة في اكثر من مكان من كتاب التركماني ، وأفضل عرضا منها ما قدمه تقي الدين السبكي في فتاويه فقد تلقى نص سؤال جاء فيه (مايقول السادة العلماء رضي الله عنهم في هذه الفتوة التي فشت فظهرت في هذا الزمان وصورتها ان قوما يجتمعون في بيت احدهم فاذا اجتمعوا واخذوا مجالسهم قام نقيبهم وأنشد أبياتا تتضمن استئذانهم في شد وسطه فيأذنون له ، ثم يأخذ باحدى يديه شربة فيها ماء ويأخذ بيده الاخرى ملحا ويخطب خطبة يقرأ في آخرها " وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات) ويومىء برأسه الى الماء (وهذا ملح اجاج) ويومىء الى الملح ويضع الملح في الماء ويرفع الشربة ثم يقوم زعيم القوم وهو الذي يلبسهم سراويل الفتوة ، فيجلس وسط القوم ويقول له النقيب من يطلب فيسمي من يريد من الحاضرين فيقومون واحدا واحدا كلما قام احدهم شد الزعيم وسطه وأوقفه فيقول هذا المشدود الوسط اسأل الله تعالى واسأل السادة الحاضرين كل ما أقامني وشد وسطي أن يقعدني فتى كاملا ، ثم يقول النقيب ماتقولون في هذا الرجل فيثنون ثناء حسنا ويقولون نعم الأخ ،ثم ينصبون ثوبا لهيئة القوصرة يسمونه التنورة ويدخلون الزعيم والذي يلبس الى وسطها فيلبسهم سراويل بيده، ويدخل الزعيم يده تحت ثياب اللابس الى مربط السراويل ويشد بيده في ذلك المكان ويقرأ القوم حينئذ سورة الاخلاص ثم يقول النقيب اللباس لباس فلان والفتوة فتوة علي بن أبي طالب بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الشرع المطهر ماتكرهه لنفسك لاترضاه لغيرك وماتكرهه لغيرك لاترضاه لنفسك فالزم عليك بتقوى الله وهذا شرطنا عليك والله

---

(١) : محمد بن أبي المكارم بن المعمار الحنبلي - كتاب الفتوة ط . بغداد ١٩٦٠ - ص ٣٧- ٧٥ (مقدمة المحقق)

- محمد فهمي عبد اللطيف - الفتوة الاسلامية ط . القاهرة - دار الزيني للطباعة والنشر ،ص ٢٦- ٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ناظر اليك يفعل ذلك بكل من اراد ان يلبس فاذا فرغ من ذلك دفعوا التنورة وخرجا من وسطها ، ثم يأتي النقيب بالشربة المذكورة فيقدمها الى شيخهم فيأخذها بيده ثم يقول ، السلام يافتيان السلام مرتين ، اللهم اجعل وقوفي لله واتباعي بالفتوة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واخص بهذه الشربة العفيفة النظيفة لكبيري فلان ويسميه ثم يسندها عن شيخ بعد شيخ الى الامام الناصر الى علي بن أبي طالب عليه السلام ثم يشرب ويدفعها الى غيره فيفعل كذلك حتى يشرب القوم جميعهم.

فهل هذه الهيئة المذكورة سنة ام بدعة ..... "(١).

وجاء جواب السبكي مشابها للموقف الذي كان قد اتخذه التركماني من هذه الطقوس (٢).

وأشار التركماني الى فئة من الفتيان نشطت في بلاد الشام وحملت اسم (المرازقة) وأعلنت هذه الفئة عن تمسكها بمذهب الامام الشافعي وأباحت لأفرادها الاقدام على استخدام العنف وقيل انهم عرفوا باسم المرازقة نسبة الى شيخ اسمه مرزوق وكانوا يتزينون بملابس خاصة ويبتعدون عن استخدام اللون الازرق وخاضوا بمسائل تعلقت بالكفر والايمان والقضاء والقدر لذلك كانت لهم تأثيراتهم في اوساط غير المسلمين من مسيحيين ويهود (٤)

وأشار التركماني أيضا الى مجموعة اخرى حملت اسم القرندلية وهي طائفة أقدم افرادها على حلق ذقونهم وحواجبهم وثقبوا احاليلهم واتهمهم التركماني بالتشبه بالفرنجة وهذه التهمة تثير مسألة التأثيرات المتبادلة بين التنظيمات شبه العسكرية لدى المسلمين بالاخوانيات الرهبانية العسكرية

---

(١) : الامام ابي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي - فتاوى السبكي - ط . بيروت - دار المعرفة ج٢ ص ٥٤٨- ٥٤٩.

(٢) : السبكي - المصدر نفسه ص ٥٤٩-٥٥١، لمزيد من التفاصيل حول طقوس الفتوة في العراق أيام الخليفة الناصر العباسي انظر ابن المعمار الحنبلي المصدر نفسه ص ٢٣١- ٢٥٤.

ادريس بين بيدكين بن عبد الله التركماني كتاب اللمع في الحوادث والبدع ط . القاهرة ١٩٨٦ ج١ ص ١١٣ - ١٢٤.

(٣) : التركماني - المصدر نفسه ج١ ص ٢٦٦- ٢٨١

(٤) : التركماني المصدر نفسه ج١ ص ١٩١- ١٩٣

انظر ايضا ابن طولون - المصدر نفسه ص ٢٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لدى الفرنجة ويلاحظ ان هذه التنظيمات العسكرية كانت تقوم بالتدريب على استخدام السلاح ، أيضا وفق طقوس خاصة بها وقد أشار التركماني الى طقوس رماة البندق ،وما ابتدعوه من أفعال وأقوال (١) ومع الايام لم تعمر هذه التنظيمات واختفت لتحل محلها تنظيمات اخرى كان أشهرها الزعر والحرافيش ، وكان موقف العلماء منها مثل الموقف من الفتيان والمرازقة والقرندلية لكن لاتساع نفوذهم ولفخامة دورهم جاءت الاشارات اليهم في المصادر كثيرة ومتوالية تمكن من رسم صورة لهم ، وهؤلاء اختصر نشاطهم على المدن ونملك فقط اشارة لدى التركماني الى أن المرازقة نشطوا أيضا في بعض القرى لكن غير ذلك لانعرف عن تنظيمات عرفتها اوساط سكان الارياف في بلاد الشام ويفترض انه وجد في كل قرية من القرى أو تجمع بشري نوعا من انواع التكتلات للدفاع عن المصالح .. وعلى الاخص في قرى غوطة دمشق لان غالبيتها هي امتداد للمدينة نفسها وسكانها على صلة وثيقة بأهل دمشق .

لقد تناول بعض الباحثين من غير العرب نشاط الزعر في مدن الشام وتمحورت دراساتهم حول زعر دمشق بسبب توفر المادة الاخبارية عنهم لدى المؤرخين الدمشقيين وعلى الاخص لدى ابن طولون الصالحي الذي لم يكتف بالحديث عن نشاط الزعر في كتبه التاريخية الكبيرة ، بل ذكر انه صنف مصنفا مغيرًا عن الزعر عاد فوسعه كثيرا(٢).

والحديث عن الزعر يمثل موقف سكان الاحياء من سواد الشعب من تجاوزات السلطة المملوكية وأعوانها وعلى الاخص في الجوانب المالية والاقتصادية والسلوكيات العامة ، وأقدم الاشارات الى الزعر تعود الى القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد ، لكن يفترض انهم وجدوا قبل ذلك بفترة طويلة ويؤيد هذا الافتراض المعنى اللغوي لكلمة زعر ، ففي لسان العرب الزعران هم الاحداث ، والاحداث اسم حملته الميليشيات الشعبية لمدن الشام في فترات

---

(١) : التركماني المصدر نفسه ج١ – ص ١٢٥ – ١٣٣.
(٢) : ابن طولون – المصدر نفسه ، ص ١٨١ – ١٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مبكرة من العصر العباسي ، والمعنى اللغوي يقودنا الى افتراض انه مع العصر الايوبي اضمحل شأن الاحداث على الاخص نتيجة لنشاط الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي بنى عقيدة الفتوة وسعى الى نشرها وراسل ملوك وامراء الاسلام طالبا منهم الانتساب الى الفتوة والسعي للالتزام بمبادئها (١) ويعني هذا أن أحداث الشام صاروا فتيانالفترة وجيزة من الزمن ثم مالبثوا ان عادوا احداثا لكن باسم جديد . هو الزعر ، واذا صح هذا فالزعر هم احداث الشام وهذا بلا شك يلقي أضواء جديدة على هذا التنظيم ويساعد على فهم أصوله التاريخية والمهام التي قام بها والاعباء التي تحملها.

لدى دراسة نشاط احداث دمشق يلاحظ ان منطقة باب الصغير كانت مركز نشاطاتهم الاعظم وذلك خلال العصر الفاطمي(٢) ومنطقة باب الصغير كانت آنذاك تعد من اطراف دمشق وأحيائها النائية الوثيقة الصلة بالغوطة وبالنسبة للزعر يلاحظ ان منطقة ميدان الحصى كانت مركز نشاطاتهم الاكبر وهذه المنطقة هي امتداد لمنطقة باب الصغير نحو الجنوب ، كما وأتت المصادر على الحديث عن زعر نشطوا في منطقة الشاغور ومنطقة الشاغورمرتبطة بمنطقة باب الصغير في الجهة المقابلة لميدان الحصى ومحصلة هذا الكلام أن الزعر هم امتداد للاحداث بالاسم وفي موقع النشاط وهذا يرجح انهم كانوا ايضا امتدادا بالسمات العامة . ونوعية النشاطات ، فالزعر نشطوا في احياء دمشق النائية وهي : المناطق الاكثر فقرا في المدينة والأشد صلة بالارياف والاولى في استقبال المهاجرين القرويين الى المدينة..

---

(١) : ابن المعمار - المصدر نفسه ص ١٤٨.
: محمد فهمي عبد اللطيف - المرجع نفسه ، ص ٢٥

(٢) : شاكر مصطفى - المرجع نفسه ، ص ١٩٢- ١٩٤
- زكار - (مدخل) المرجع نفسه ، ص ٨٢- ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والفارق بين الزعر والاحداث ان الزعر لم يقتصر نشاطهم على منطقة باب الصغير وامتداداتها بل نشطوا ايضا في ضاحية الصالحية وهي ضاحيـــة تطورت واتسعت في العصر المملوكي واستقبلت المهاجرين من القرى (١) .

لقد كان الزعر يتكونون من العناصر الشابة في كل حي من الاحياء لهـم زيهم الخاص حيث كانوا يلقون على اكتافهم رداء او مايشبه ذلك كشعـــار مميز لهم . كما كانوا يقصون شعور رؤوسهم بما عرف آنذاك باسم قرعاني (٢)، وحمل الزعر الخناجر فالخنجر كان سلاحهم الرئيسي لكنهم استخدموا السيوف في بعض الحالات ، وغالبا ما نشطوا كرجالة ، كان الهدف الرئيسي للزعر دفاعيـــا لذلك حملوا روح العداء تجاه السلطة المملوكية وأعوانها من العلماء وهذا يفسر الموقف العدائي من الزعر الذي وقفه ابن طولون وغيره من العلمـــاء (٣) ولقد حاول الزعر اكثر من مرة قتل بعض القضاة او رجال الدين، وبالمقابــــل كانت علاقة الزعر مع التجار والحرفيين جيدة بشكل عام وغالبا ما تعاونـــوا معهم (٤).

لقد كان لكل حارة زعرها وتزعم هؤلاء الزعر ، زعيم واحد أو أكثـــر في الحي نفسه ، ويدعوه ابن طولون باسم أزعر (٥) في حين ان المؤرخيـــن الاوائل تحدثوا من وجود . مقدم للاحداث في دمشق ولانقف على كلمة مقدم في المصادر المملوكية ونشعر ان التعاون والتنسيق لم يقم بين زعر احياء المدينة لابل

---

(١) : محمد بن علي بن طولون الصالحي — القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية — ط . دمشق ١٩٤٩ ، ص ٢٧— ٣٩.

(٢) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ — ١٩٠

(٣) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ص ١٨١ — ١٨٣، ٢٩٠.

(٤) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه :
ج١ ، ص ١٨١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٩ ، ٣١٦
ج٢ ، ص ٢٤

— ابن حجر ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٩٦

(٥) : ابن طولون — المصدر نفسه (مفاكهة) ص ١١٦، ١٥٣، ١٧٧، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٨، ٢٦٢ ، ٢٨٧، ٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انعدم في كثير من الحالات في أوساط زعر الحي الواحد وهذا يعلل بعض الاخبار التي تحدثت من تعاون بين بعض نواب دمشق او كبار الامراء فيها وجماعات من الزعر ومثل هذا التعاون جاء استثنائيا ولم يعبر عن موقف عام ، وفي الوقت نفسه ان تمزق الزعر يساعد على فهم الاسباب التي جعلت هذا التنظيم لايسعى لازالة السلطة المملوكية ووراثتها ، ففي اواخر العصر المملوكي تشعر مع ابن طولون ان الزعر باتوا سادة دمشق ، وكان بامكانهم طرد النائب المملوكي واقامة سلطة شعبية في المدينة ، لكنهم بدلا من ذلك تطلعوا نحو السلطة العثمانية ونشطوا في سبيل احلال العثمانيين مكان المماليك (١).

لقد كان الزعر يحملون على بعض الاتاوات مقابل خدماتهم وغالبامالجأوا الى تحصين الحارات وتحدي السلطة والتحكم بسكان الاحياء وارهاب خصومهم ومن ثم نقل النشاط الى داخل الاسواق (٢).

وجاء تحدي الزعر للسلطة سببا أساسيا أدى بالاصل الى قيام تنظيم الزعر وتطوره ، فالزعر وجدوا كردة فعل شعبية لحماية مصالح السواد الاعظم من الشعب سكان الاحياء وغيرهم ، جمايتهم من تجاوزات رجال السلطة وكان رجال السلطة يأتون الى الاحياء رغبة منهم في جمع الضرائب والمكوس وليس لسبب آخر امني او سياسي ، ولجأوا اثناء جمع الضرائب الى العسف بالناس ونهب ممتلكاتهم ومصادرة ما كان بحوزتهم (٣) لذلك كان لابد من مقاومة هذه التجاوزات خاصة وان العلماء الذين كان من المفترض الافتاء بعدم جواز المصادرة وفرض المكوس كانوا اما يلتزمون الصمت تجاه اعمال السلطة هذه أو يصدرون فتاوى

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ،ص ٢٧ – ٢٨– ٢١٢،٢٦٨

(٢) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ،ص ١٧٤ ، ٢٥١

(٣) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ج ١ : ١٨١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩، ٢٧٩-- ٢٨٠، ٢٨٣، ٣١٦ .

ج٢ : ص ٢٤ ،٤٢

– ابن حجر ، المصدر نفسه ، ص ٩٦

– ابن قاضي شهبه ص ٢٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بجوارها ، لذلك لم يكتف الزعر بمقاومة جباة الضرائب بل انتقموا من بعض القضاة والعلماء • وبما أن السلطة المملوكية كانت تلجأ الى مصادرة التجار أو طرح البضائع والسلع عليهم بأسعار تخدم مصالحها لابد أن التجار قد لجأوا الى طلب الحماية من الزعر(١) وهكذا تعاونوا معهم ، لكن لم يكن جميع العلماء على عداء مع الزعر فبعض العلماء لأسباب خاصة بهم انتموا الى الزعر وتعاونوا معهم (٢) وكذلك فعل بعض الاشراف (٣) انما بشكل محدود جدا ، فقد ظل السواد الاعظم من الزعر من عامة الناس ، انما لم يكونوا على درجة واحدة حيث تشير المصادر الى زعر الاحياء والى زعر القسري والى زعر الغوغاء (٤) ويبدو ان زعر الغوغاء كانوا هم الادنى مرتبة والاكثر فوضى وفقرا وأنه قد تم استئجارهم للقيام ببعض أعمال الاغتيال أو النهب او الاحراق والتدمير وغير ذلك لصالح بعض رجالات السلطة في صراعاتهم بين بعضهم بعضا (٥)•

وكان من مزايا العصر المملوكي على الاخص في فترات متأخرة وهي الفترات التي نشط فيها الزعر بشكل كبير كان من مزاياها عدم الاستقرار واستمرار النزاعات بين فئات المماليك ، وعلى العموم لم يتدخل الزعر في هذه النزاعات بل عدوها فرصة اغتنموها للافادة في النهب وسلب مقتنيات المماليك وأحيانا غير المماليك ، ومع ازدياد ضعف السلطات المملوكية ازداد نفوذ الزعر ونشاطهم واضطر بعض النواب الى الاعتراف بالزعر الى درجة أنهم باتوا أشبه بشركاء للمماليك في السلطان ، انما في المظاهر العامة ليس أكثر

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٢٤ •
ج١ : ص ١٨١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٩ ، ٣١٦ •
- ابن حجر ،ج٢ ،ص : ٩٦•

(٢) : ابن طولون (مفاكهة) ،المصدر نفسه ج١ ،ص :١٧٦ ،١٨١ ،١٩٦•

(٣) : ابن طولون (مفاكهة) المصدرنفسه ج١ ،ص ٢٦٢•

(٤) : ابن طولون (مفاكهة)، المصدر نفسه ،ج١،ص ١٩١ ،١٩٥ ،٢٠٤ ،٢٧٩ ج٢،ص ٤٢-٤٣•

(٥) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٧٦ ،٢٤٥ ،٢٥٩ ،٣١٦
- ابن حجر ،المصدر نفسه ،ج٢ ، ص ٩٦•

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي أنهم كانوا يشاركون في استقبال الرسل ومواكب الحجاج والنواب الجدد كما شاركوا في اعمال العرض العسكرية الموسمية الى جانب الخيالة من المماليك (١) ، لكن هذا التعاون مع السلطات المملوكية كان أشبه بهدنة على دخن حيث كان بعض النواب يلجأ الى الغدر برجالات الزعر أو الى استخدام قواته ضدهم داخل الاحياء ، وكان هذا يزيد من عدم الاستقرار والاضطراب فالعصر المملوكي على طوله لم ينعم به السكان بالاستقرار الا قليلا ، ولاشك أن عدم الاستقرار كان له انعكاسات اجتماعية خطرة تجلت في عدد من المظاهر المستنكرة فنحن لدى استعراضنا في فصل لاحق سنقف امام بعض هذه المظاهر من استخدام للحشيش واحتساء للخمور مع غلظة في الطباع وانعدام للرأفة والرحمة وغير ذلك من غناء ورقص ومباذل وهي مظاهر دفعت التركماني الى تأليف كتابه من البدع وحرضت التاج السبكي على تأليف كتابه معيد النعم(٢).

لانعرف شيئا عن التنظيمات الداخلية ومراتب القيادة لدى الزعر ، لكن يبدو ان مقدميهم جاؤوا جميعا من بين أوساط العامة وهذا ما توحي به اسماء الذين أتت على ذكرهم المصادر فكبير زعر الشاغور كان اسمه ابن الطبّاخ وكان كبير زعر الصالحية اسمه ابن الجاموس ، وكان أحد زعماء الزعر اسمه محمد النجار ، فهؤلاء وغيرهم انتموا الى العامة ، او فيما يبدو ان الزعر لم يمتلكوا الزعامة المطلقة في الاحياء ، فكثيرا ما تحدث ابن طولون عن زعر الحارات وأكابرها ولاندري من قصد بالاكابر هنا، لاشك أنه قصد قوما من غير العلماء مثل زعماء بعض الاسر الكبيرة أو غيرهم من الوجهاء ، وفي وسط اجتماعي انعدم الاستقرار به وانعدم الامن ، لم تقتصر الامور ان زعر الحارات في المدينة الواحدة لم يكتفوا بعدم التعاون فيما بينهم بل اصطدموا وتحاربوا ، والمدهش أن الحروب بين الحارات تلونت في بعض الاحيان

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص: ١٣٩ ، ٢٣٠، ٢٦٢، ٣١٤.

(٢) : سبق ان تعرضنا لهذين الكتابين في المقدمة الموقوفة على دراسة المصادر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلون العصبيات القبلية القديمة التي عرفتها مدن الشام لاسيما دمشق في العصور الماضية على الأخص الحروب بين القيسية واليمانية ولذلك سعى بعض الكتاب الى تفسير أصل الزعر على أساس العصبيات القبلية الموروثة (١).

لم يكن الزعر التنظيم الشعبي الوحيد في الأحياء ، لقد عرفت الاحياء تنظيما آخر حمل اسم الحرافيش مع تسميات أخرى ، نحن لانعرف بشكل مؤكد أصل الاشتقاق اللغوي لهذه التسمية ، فالحرفشة في اللغة هي النهوض الى الشر (٢) ولان استطعنا أن نربط بين الزعر وبين منظمة الاحداث ، انه لمن المتعذر ان نربط بين الحرافيش والزعر ، أو في ان نقول بأن الحرافيش كانوا مجموعة متدنية من غوغاء الزعر ، لقد اختلف الزعر من الحرافيش وتباينت ادوارهم ، فالزعر كان واجبهم الاول الدفاع عن سواد الشعب ضد تجاوزات السلطة ، لكن الحرافيش لم يقوموا بهذه المهمة مع أنهم استخدموا وسائل العنف واتخذوا ازياء خاصة بهم.

يرجح أن الحرافيش ارتبطوا بالتنظيمات الصوفية فلقد سيطر التصوف على الحياة العامة في العصر الأيوبي والمملوكي ، وباتت كل طريقة تمتلك زاوية او خانقاه خاص بها ، وهذه المراكز كانت ذات موارد مالية جيدة من الاوقاف والتبرعات والصدقات والمساعدات ومن موارد حكومية مختلفة ، وكانت موارد الزوايا تنفق على اطعام وايواء المتصوفة .

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ج٢ ، ص : ٠٧ .

(٢) : لسان العرب ، مادة حرفشة
- النجار ، المرجع نفسه ، ص ١٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس من شأننا الحديث عن طرق الصوفية وتنظيماتها ويكفي القول أن كل طريقة من الطرق كان لها أتباعها أو بعبارة اخرى أن الشعب توزعت ولاءاته بين طرق الصوفية وأعتقد الناس بولاية شيوخ الطرق ، وكان هناك تنافس بين مختلف طرق الصوفية وفي الوقت نفسه رأينا أن العصر المملوكي ومن قبله العصر الايوبي قد امتازا بعدم الاستقرار الداخلي واستمرار الحروب والاضطرابات وحملات الجيوش الغازية ، ونضيف الى هذه الكوارث الطبيعية ومظالم رجال الاقطاع وقد دفع اعداد كبيرة جدا من سكان الارياف على الهجرة الى المدن ولاشك ان المدينة بطبيعة الحياة فيها ظلت ايضا تجتذب المهاجرين اليها ، وغالبا ماكان المهاجرون من العناصر الشابة القوية البنية والشديدة المراس وعندما جاءهؤلاء بشكل متواصل الى المدن شكلوا قشرة اجتماعية عائمة وكانوا دوما عناصر غير منضبطة وباتوا عاطلين عن العمل لعدم امتلاكهم التخصص في حرفة من الحرف ، لذلك اضطروا الى التسول والى الالتجاء الى زوايا الصوفية ومراكزها ، وأصبحوا في كل حي من الاحياء تابعين للطريقة الصوفية المسيطرة ينفذون اوامر شيخ الزاوية الصوفية ويتلزمون بما يفيد الطريقة ويخدم مصالحها .. وعلى هذا فالحرافيش هم غوغاء الصوفية (١) ، عاشوا عاطلين عن العمل الا في بعض الحالات التي استخدموا فيها في اعمال السخرة وفي تنفيذ الخدمات القذرة ، كجمع جيف الحيوانات الميتة وتنظيف المجاري وغير ذلك من الاعمال ، ويبدو ان الدفاع عن مصالح الصوفية قاد الى تسليح الحرافيش ، وقاد أيضا الى استخدام الحشيش والادمان عليه ، فالصوفية كانوا يدعون الحشيشة باسم حشيشة الشيخ حيدر ، وكانت حلقات الذكر لديهم تستخدم أدوات الموسيقا

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ، ج١ ،ص ١٥ ، ١١٤ ، ٢٠٧ ، ٢١١
- البدر العيني (المصدر نفسه) ص ٣٨٩.
- النجار ، المرجع نفسه ، ص ١٨٢- ١٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغناء والرقص المتهيج الصاخب وهذا توائم مع طبائع هؤلاء الناس ، وأعار الصوفية مع الايام الحرافيش الفكر التنظيمي حيث انتظم حرافيش كل حي من الاحياء، ومع ضعف السلطة المملوكية والازمات التي مر بها الزعر ارتفع شأن الحرافيش حتى صار لهم سلطانهم الخاص (١) وباتوا يشاركون في النشاطات الشعبية والرسمية يسيرون في المواكب ويستقبلون السفراء والقضاة والنواب والموظفين المخلوع عليهم (٢) ، واستثمر بعض الناس من غير الصوفية بعض الحرافيش لتنفيذ بعض المهام من اغتيال أو حرق أو غير ذلك ولقد أشار اليهم ابن بطوطة في رحلته (٣) وكما حدث في حالة الزعر حين انتمى بعض رجال الدين الى الحرافيش ، فهناك اشارة الى عالم اسمه ابن شكر (٤) كان من عائلة علم كبيرة من أسر دمشق انضم الى الحرافيش ومارس الخلاعة والمجون على الرغم من معارضة أهله وأولاده له ، وانتشر نشاط الحرافيش أيضا بين النساء فقد حدثتنا المصادر ان ابن شعبان سلطان الحرافيش في دمشق كان يسير في موكب خاص به ، وأيضا كانت زوجته صاحبة موكب نسائي خاص (٥) ، وبلغ من مكانة سلطان الحرافيش ان السلطان المملوكي كان يسيره مع بعض الحملات العسكرية بل تدخل السلطان للاصلاح بين سلطان الحرافيش وزوجته (٦) ، وعندما باتت الجيوش المملوكية

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١١٤
- النجار (المرجع نفسه)،ص ١٨٣- ١٨٧.

(٢) : ابن طولون (مفاكهة)، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٥ ،١١٤، ٢٠٧ .

(٣) : ابن بطوطة (محمد بن عبدالله اللواتي) رحلة ابن بطوطة ط.القاهرة ١٩٥٨ ،ج ١ ،ص ٢٤.

(٤) : محمد بن عثمان قايماز الذهبي - العبر في خبر من غبر ط . الكويت ١٩٦٦ ج٥ ، ص ٣٥٧ .
- ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي - النجوم الزاهرة ط .دار الكتب المصرية ج٧،ص ٣٧٨ - ٣٧٩(وفيات سنة ٦٨٨هـ) .
- عبد الحي بن العماد الحنبلي - شذرات الذهب في اخبار من ذهب طبعة مصورة - المكتب التجاري - بيروت - ج٥ ،ص ٤٠٣- ٤٠٤

(٥) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١١٤

(٦) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تفتقر الى العناصر البشرية أقدمت على تجنيد اعداد كبيرة من الحرافيش ، وعلى الرغم من كثرة الحرافيش وتجنيدهم في الجيوش ومشاركتهم في بعض الحملات الخارجية لم يتعد دورهم التأثير الهامشي فهم لم يكونوا تنظيما موحدا ولم يتطلعوا لاهم ولا شيوخ الصوفية الى وراثة النظام المملوكي والحلول محلة ، لذلك غالبا ما استغل امراء المماليك الحرافيش لصالحهم ووجهوهم وعنفهم لخدمة اغراضهم الخاصة ، وانها لمأساة حقيقية ان يمتلك الشعب في اواخر العصر المملوكي كل الامكانات للتخلص من المماليك ، كما ان الفرص ساعدت على ذلك ، لكنهم بسبب تمزقهم ، وللسمات التي اتسم بها زعماؤهم من المشايخ لم يقوموا بهذه المهمة المتمناة ، وتولى ذلك سلطة خارجية غازية هي السلطة العثمانية .

ان عدم الاستقرار قاد الى انعدام الامن كما ان كثرة العاطلين عن العمل والفقر قد تعاونا مع عدم الاستقرار فتهيأت الاجواء لأعمال السرقة والسلب وقطع السبل والتهديد ، وأكثرت المصادر من ايراد أخبار الحرامية والمناسير وقطاع الطرق والنهب والاغتصاب والحرائق المدبرة والتدمير المتعمد للبيوت والقصور ويكفينا الاستشهاد ببعض الامثلة من ذلك(٢).

وقادت اوضاع عدم الاستقرار والمصاعب الاقتصادية الى اشكال من العنف غير المنظم وهو اللصوصية ، وهذا العنف وان لم يعرف التنظيم كان هادفا وجه بالدرجة الاولى ضد بعض الاثرياء من رجال السلطة وضد بيوت أثرياء التجار وحوانيتهم وأسواقهم ، وأطلقت المصادر على اعمال اللصوص اسم الحرامية او مناسير الحرامية ، ويلاحظ ان اعمال السرقة كانت في غالب الاحيان ينفذها

---

(١) : ابن العماد - المصدرنفسه ج٥ ، ص ٤٠٣-٤٠٤
- الذهبي ، المصدر نفسه ج٥ ، ص ٣٥٧.

(٢) : ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٢٤ ، ٩٨ - ٩٩ ، ٢٦٠ .
- ابن طولون (مفاكهة) المصدرنفسه ، ج١ ، ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٨٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩.
ج٢ : ص ٢١- ٢٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٤ .
- ابن الصيرفي ، المصدر نفسه : ج١ ص ٣٨٩ ، ج٢ : ص ٤٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أفراد . او مجموعة صغيرة من الافراد . من حي واحد ، لم تعرف مدن الشام ولا البلاد . العصابات الكبيرة للسلب والنهب ، مما يؤكد مجددا ان جميع أعمال السلب والنهب تمت بدافع الحاجة المادية ، ولم تصدر أبدا عن احتراف لمهنة اللصوصية وغالبا ما كثرت أعمال اللصوصية لدى سوء المواسم او تعرض البلاد لهجمات خارجية أو اضطرابات داخلية أثناء الصراع على السلطة بين امراء المماليك ففي تلك الاحوال كانت تزداد الحاجة المادية والضغوط الاقتصادية وتضعف ان لم نقل تنعدم سيطرة السلطة على المدينة ، وصحيح ان نظام العسس (١) كان معروفا في المدن الشامية لكن يبدو ان شأن العسس كان ضعيفا ، وغالبا ما نفذت اعمال السرقة ليلا عن طريق تسلق بعض البيوت أو فتح ثغرة في جدار بيت من البيوت ، والبيوت التي هوجمت كانت بيوت بعض التجار وبيوت بعض امراء المماليك مثل نائب السلطنة وغيره وفي كثير من الاحيان هوجمت بيوت القضاة لابل ان اللصوص هاجموا احيانا مجالس القضاء في وضح النهار للافراج عن بعض أصدقائهم ، وهاجم اللصوص ايضا في وضح النهار بعض الاسواق ونهبوها وفي كثير من الاحيان كانت ترافق اعمال النهب والسلب اشعال الحرائق في الاسواق والاحياء ، ولم تقتصر اعمال السرقة على الرجال بل مارستها بعض النساء وكثرت اعمال النشل ايام الاعياد وازدحام الناس في المواسم ، وهاجم اللصوص في بعض الاحيان اسواق صنع الاسلحة مثل سوق القواسين في دمشق وغيرها من المدن لتسليح أنفسهم ، واتت المصادر على ذكر بعض اسماء اللصوص والعقاب الذي انزل بهم والاجراءات التي كانت تتخذها السلطة خاصة فيما عرف باسم تدريب الحارات ومع هذا لم تذكر المصادر مايوحي بوجود عصابات منظمة تبعت احد . الملقى القبض عليهم او سواها (٢) هذا داخل المدينة اما خارج المدن

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٢٦.

(٢) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص: ٢١، ٤٣، ٦٣، ٩٨، ١٠١، ١٦١، ١٧٣، ١٩٥، ١٩٧، ٢٢٤، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٩٣، ٣٤٨، ٣٧٤، ٣٨٩.

- الصيرفي ، المصدر نفسه ،ج٢ ، ص ٤٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الارياف والبادية فقد اختلف لون اللصوصية حيث كان اللصوص يقومون بقطع الطرق وتولى هذه الاعمال بعض البداة أو ابناء الريف لذلك كانت تجرد الحملات العسكرية ضد البداة وابناء الريف بين آونة وأخرى (١)، ونجم من اعمال اللصوصية نتائج اجتماعية مؤثرة فغالبا ما سلب اللصوص اموال مجموعة من التجار فافقروهم لان اعمال مهاجمة الاسواق وبعض البيوت غالبا ماترافقت مع اشعال الحرائق وهكذا كانت النيران تأتي وبسرعة على عدة اسواق وبيوت كثيرة مما ينجم عنه مضار اقتصادية واجتماعية هائلة، ولقد عانت مدن الشام لاسيما دمشق من الحرائق كثيرا، واحرقت اجزاء كبيرة منها أيام تيمور وكذلك حدث الامر نفسه في حلب وحماة وغيرها من المدن(٢)، ويبدو أن المدن لم يكن فيها أية هيئات أو مؤسسات تتولى اطفاء النيران كما ان غالبية الابنية بالنظر لانتشار النيران السريع فيها كانت مصنعة من مواد رخيصة، وان بعض الاحياء كانت بيوتها أشبه بالاكواخ وكثرة حرائق المدن الشامية ورخص مواد البناء يعلل عدم بقاء بيوت أو قصور مملوكية فجل مابقي لنا من هذا العصر لم يتعد الترب المبنية بالحجارة وبعض المساجد والمدارس والمنشآت ذات النفع العام.

لعل خير مانختتم به هذا الفصل ان نشير مذكرين بالدور الذي شغلته مؤسسات التصوف في الحياة الاجتماعية، ولايعنينا ابدا الحديث هنا من التصوف كظاهرة ثقافية او دينية بقدر ان نقول ان التصوف ازداد نشاطا وانتشارا في الاوساط الشعبية وغيرها في العصر الايوبي ونضج في القرن السابع للهجرة، وانطبع في هذا القرن بطابع علم من العلوم الفلسفية بمدارس متشعبة، وباتت علوم العرفان الصوفي من العلوم الشرعية لها حظوة مثل حظوة علم التوحيد وعلم الكلام وعاش في بلاد الشام في هذه الفترة أعظم شخصيات التصوف مكانة مثل ابن عربي

---

(١) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٢٥ ، ٢٤٠

(٢) : ابن طولون (مفاكهة) المصدر نفسه ،ج١ ،ص ٢٨ ، ٥٥، ١١٨، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٤، ١٦٧، ٢١٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٦٠، ٢٨٤، ٢٩٣، ٣٣١، ٣٤٨.
ـ شهاب ـ المرجع نفسه ،ص ٣١٦ ـ ٣١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسهروردي ، وابن الفارض ، والسهروردي هو أبو حفص عمر بن محمد ، ولد سنة ٥٣٩هـ وتوفي سنة ٦٣٢هـ ، وخلف عددا من الكتب أشهرها عوارف المعارف ورشف النصائح ، واعلام الهدى ، اما ابن الفارض (٢) ابو حفص عمر بن الفارض المتوفى في السنة التي توفي فيها السهروردي ، فهو شاعر الحب الصوفي له ديوان واسع التداول أشهر مافيه قصيدته التائية التي حوت أكثر من سبعمائة وخمسين بيتا ، وتعد اروع أشعار الصوفية وانضجها ، ويبقى محي الدين بن عربي (محمد بن علي الطائي الاشبيلي)(٣) هو أعظم رجالات التصوف في القرن السابع وغيره من القرون ولد في الاندلس سنة ٥٦٠هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ وفيها دفن ، ومابرح قبره مزارا لسكان بلاد الشام ، لقد اطلق الصوفية على ابن عربي لقب الشيخ الاكبر فهو قد كان أكبر العارفين من المتصوفة وأكثرهم نشاطا وأعظمهم انتاجا نثرا وشعرا ، وقد حظي كتابه الفتوحات المكية بمكانة لم يحظ بها كتاب آخر من كتب الصوفية .

وشهد القرن السابع والقرون التي تلته نشاطاً كبيراً في بناء الزوايا والخانقاهات ، ونظم الصوفية انفسهم حيث

---

(١) : عمر بن علي بن الملقن ـ طبقات الاولياء ـ ط . القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٩٣ .
- يوسف بن اسماعيل النبهاني ـ جامع كرامات الاولياء ـ ط . بيروت ـ دار صادر ـ ج٢ ، ص ٢١٩ .
- قاسم غني ـ تاريخ التصوف في الاسلام ط . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٧٠١ .

(٢) : ابن الملقن (المصدر نفسه) ص ٤٦٤ .
- النبهاني ـ المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩
- غني ، المرجع نفسه ، ص ٧٠١ .

(٣) : ابن الملقن ، المصدر نفسه ، ص ٤٣٨ ، ٤٦٧ ـ ٤٧٠ .
- النبهاني ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١١٨ ـ ١٢٦ .
- غني ، المرجع نفسه ، ص ٧٠١ ـ ٧٠٢
- زكي مبارك ، التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ـ ط . القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٥٨ ، ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

امتلكوا رابطة خاصة بهم رأسها شيخ شيوخ الصوفية (١) الذي حظي بمنزلة اجتماعية وسياسية رفيعة جدا ، ولم يقل دوره في كثير من الأحيان من دور القضاة وكبار العلماء ، وسلف أن أشرنا الى الحرافيش وارتباط تنظيمهم المسلح بزوايا الصوفية ، فالزاوية التي كان دورها في الماضي لايتعدى المأوى ومقر الاجتماع لبعض الشيوخ ومريديهم تطورت الان تطورا عظيما وبلغت الاوج بأن أصبحت مركزا اجتماعيا هاما جدا ، لقد ملكت الزاوية امكانات مالية واقتصادية كبيرة جدا مكنها من الاضطلاع بأدوارها الجديدة فقد باتت الزاوية الان مركزا لتربية المريدين واعداد المرشدين الدينيين الشعبيين ومقرا لاقامة واطعام اعداد هائلة من الناس خاصة من الفقراء والمعوزين ، وكان العمل في الزاوية بشكل عام قد توزع على وجهين من أوجه النشاط الثقافي والتربوي فقد كان المريدون يخضعون لتمارين فيما عرف بالرياضيات النفسية وذلك بالاضافة الى التدريب على اعمال الذكر ، ورقصات الدراويش ، ويستمعون الى التعاليم الشفوية والنصائح والمواعظ التي كان يلقيها الشيخ ، ولم يكن من الصعب على الافراد العاديين في المجتمع بلوغ مرتبة المرشد او الانسان المتقن لرقصات الدروايش واستخدام الغناء والموسيقا فالوجه الثاني من أوجه النشاطات الصوفية في الزاوية كانت رقصات الدراويش ومجالس الذكر ، فقد كان الناس على اختلاف مراتبهم يقصدون هذه المجالس للابتعاد عن مشاغل الحياة والفرار من القيل والقال وللاخلاد الى الهدوء والتفكر مع التمتع بتناول شهي الاطعمة وسماع الاصوات الشجية والالحان والموسيقى الصاخبة ففي مجالس الذكر ينتقل الحضور من مرحلة الهدوء والتفكر الى مرحلة من الوجد والهياج العاطفي ، وهكذا نجد أن الزاوية قد قامت بدور آمنت فيه المتعة لجميع الناس دون خشية من تأنيب ضمير أو حظر شرعي (٢).

---

(١) : غني ، المرجع نفسه ،ص ٦٩٨- ٧٠٠
- لابيدوس ، المرجع نفسه ،ص ٢٩٤ - ٣١٤
(٢) : غني ،المرجع نفسه ،ص ٦٩٩ - ٧٠١
- مبارك ،المرجع نفسه ،ج١ ،ص ٢٢٧ - ٣٢٧
ج٢، ص ١٨٦، ٢٢٨، ٢٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الثالث "

من مظاهر الحياة الاجتماعية وأوجه النشاط في المدن الشامية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الثالث "

من مظاهر الحياة الاجتماعية وأوجه النشاط في المدن الشامية

عندما يستعرض الباحث أخبار العصرين الايوبي والمملوكي يخرج بانطباع عام بأن المدن الشامية كانت زاخرة بالنشاطات الاجتماعية المتنوعة ، فقد كانت الحياة تدب في كل مكان في الاسواق ، والمساجد ،والمشافي ،والزوايا والفنادق والخانات ، والحوانيت المتخصصة ،والمدارس وكل بقعة من البقاع ، فقد كان الناس مولعين بالمناقشات وتبادل الآراء وغالبا ما دارت المناقشات حول الوقائع العسكرية والامور السياسية والمعاشية ، ففي أيام صلاح الدين كان اهل دمشق وبقية المدن يتجمعون في اماكن خاصة ليترصدوا فيها أخبار المعارك ضد الفرنجة خاصة اثناء الحملة الصليبية الثالثة وحصار مدينة عكا ، فلقد وصلت اخبار اشتداد الحصار الى الدمشقيين وانتقلت من سوق الى سوق حتى وصلت الى سوق الصفارين فقام احد العاملين في هذا السوق لدى سماعه اخبار اخفاق المسلمين في رد المهاجمين واحراق الابراج الخشبية الهائلة التي صنعوها امام الاسوار فاغلق حانوته واخذ الطريق نحو عكا وسبح ليدخل في مينائها سرا حيث قدم نفسه للامير قراقوش وساعده على تحضير مواد احرق بها الابراج(١).

---

(١) : ابو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي - الروضتين في اخبار الدولتين ، طبعة مصورة - دار الجيل - بيروت - ج٢ ،ص ١٨٢- ١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان اهتمام الشاميين في مجالسهم بأخبار المعارك كانت من الاسباب التي دفعت كثيرا منهم للتطوع والمشاركة في اعمال الجهاد ضد الفرنجة ووضح هذا في اكثر من مناسبة في حطين وفي عين جالوت واثناء تحرير صفد وغير ذلك من الوقائع[1].

ولاشك ان ما تداوله الشاميون في مجالسهم كان المادة التي غذت الصور الملحمية الشعبية ويمكن لنا ان نلمس هذا في كل صفحة من صفحات سيرة الظاهر بيبرس .

ويستنتج من هذا ان اهل الشام كانوا لايكتفون بما يتداولوه نهارا، بل كانوا يجتمعون مساء ، فبعض الفئات كانت تذهب الى المساجد واخرى الى الزوايا وجماعات كانت تمضي امسياتها في بيت من بيوت حاراتها او في ساحة من الساحات اذا كان الوقت صيفا .

ان الاشارات التي وردت في بعض كتب الرحالة الذين زاروا مدن الشام على درجة كبيرة من الاهمية وكان من بين الذين قدموا الى دمشق ايام صلاح الدين الوهراني ومن خلال مقامات الوهراني ورسائله يمكننا ان نتعرف الى ماشغل الرأي العام الدمشقي أيام صلاح الدين ، لقد كان الدمشقيون يشكون فيما شكوه من سوء التصرف في اموال الوقف ومن اهمال مسجد بني امية حتى كاد المسجد ان يتداعى ، وتفاعل الوهراني مع الدمشقيين فكتب مقامة على لسان الجامع ، مفيد ان نقف عند بعض فقراتها لكن قبل ذلك من المفيد الاشارة الى إن الزائر العربي لدمشق او سواها كان لايشعر بالغربة ويشارك الشاميين مشاعرهم وهمومهم وسلف ان اشرنا الى ابن خلدون وما قام به أثناء حصار تيمورلنك لدمشق ، وسنسعى الان الى التعرف الى الاوصاف التي قدمها بعض الرحالة للحياة الاجتماعية ومن ثم نحاول استثمار مصادر اخرى .

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ، ج ١ - ص ٩٤٦- ٩٤٩
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الوهراني متحدثا على لسان جامع دمشق والمساجد والمشاهد الموزعة في المدينة وأطرافها في رسالة كتبها الى سعد بن أبي عصرون المسؤول عن المساجد وأوقافها : " اما بعد يا غدار لقد هيجت الالم وابهمت الظلم ومن استرعى الذئب فقد ظلم طالما تغافلنا عن خيانتك وتغاضينا عن جنايتك حتى اكتنزت الاموال واختزلتها ، وجمعت الذخائر واعتزلتها ، من اجل هذا كان سياحتك ،ولاجله طالت نياحتك ، وبسببه كنت تسيح وتصيح حتى غبطك المسيح ، لقد عجبت ايها الشيخ من محالك في ابتداء حالك ومن فساد امرك عند آخر عمرك ، ومن فساد دينك وضعف يقينك ملوت بالمسوح والقيد حتى ظفرت بأنواع الصيد وتقلدت بالقرون والعظام حتى تقلدت الامور العظام ، ان كنت في هذا العمل الا كما قيل في المثل :

على وصام لأمر كان يامله حتى حواه فما على ولاصام

وعرفني أيها الشيخ المفتون والبائع المغبون ، لم بعت الآخرة بالبرانية ، والباقية بالفانية ، ان فعلت هذا الا لعلة او تحقيق ملة اما ان تكون قد استطبت السكباج واستلمت الديباج"

وبعد هذا حكى الوهراني رد ابن ابي عصرون على هذه الرسالة فقال من جملة ما قاله :

" لقد قرفت سريا ، وقذفت بريا ، وجئت شيئا فريا ، فاشدد من عقالك وتأيد في مقالك ، فما كل شكل يذم شكله ... ولو كان لك عقل يهد يك أو رأي يهديك لواريت اوارك ، ولسترت عوارك ، أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي بأنك قطب مايتم فيك من المعاصي حتى لقبوك بسوق الفسوق وميدان المروق ورحاب قحاب حتى قال فيك القائل :

تجنب دمشق فلا تأتها وان راقك الجامع الجامع

فسوق الفسوق به قائم وفجر الفجور به طالع

ان المتأمل لما كتبه الوهراني في حديثه عن لسان جامع دمشق وفي احاديثه الاخرى في كتابه يجد أصداء ما كان يتردد بين الدمشقيين من المعارضين والناقدين للقضاة والعلماء والمشرفين على الاوقاف وفي الفئات المؤيدة لهؤلاء الرجالات ونلحظ لابل نشم في كل صفحة من مقاماته ورقاعه رائحة الخمور وكثرة الشكوى في اللواطه واعمال الفجور ، وموضوع اللواطة وشرب الخمور سنعود له ثانية ، ومفيد ان نذكر هنا ان الوهراني صور لنا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بصورة ساخرة الحياة اليومية في ديوان السلطان في دمشق ، وبين ان الموظفين والعاملين في الديوان اتسموا بالوضاعة والرياء والمداهنة وبالتسلط على الضعفاء والجشع غير المحدود فالعالم لايحظى بالمكانة بحفظه للبخاري ومسلم بل بلبس طيلسان وشد عمامة واتقان لفن السلب والمداهنة والقيادة والمجون (١).

ان ما كتبه الوهراني يصور جوانب شاسعة من قطاع الحياة الاجتماعية في دمشق خلال القرن السادس للهجرة ، ولايمكن ان نتهم الوهراني بالغلو والتطرف ففي جميع المجتمعات التي ينعدم فيها الاستقرار السياسي الداخلي ويقترن ذلك بطغيان الجند الأجانب مع التهديد الخارجي يولد حالات شاذة من السلوك فيها الرياء والتلون والانتهازية والسرقة والاستغلال والقنوط والوسوسة والشذوذ والهروب الى معاقرة الخمرة وتناول المخدرات لاسيما ماعرف باسم حشيشة الشيخ حيدر... وصورة الاوضاع الاجتماعية التي نجدها عند الوهران لانكادنجد لها ما يماثلها من اوصاف صدرت حول العصور التي سبقت القرن السادس بل نجد لها استمرارا حتى نهاية العصر المملوكي .

لقد زار ابن جبير بلاد الشام في الفترة نفسها التي جاء فيها الوهراني الى هذه البلاد وما قدمه ابن جبير من وصف للمدن الشامية التي مر بها فيه فوائد جغرافية واقتصادية وعمرانية وفقط يمكن استخلاص بعض الصور الاجتماعية من المواد المسهبة التي دونها عن دمشق ، وصف ابن جبير المدينة ومسجدها الجامع ولفت انتباهه كثرة المشاهد وأماكن الزيارة فيها ، وتحدث عن المدينة فأوضح ان رقعتها ضيقة ، لكن بيوتها بنيت بشكل حوى عدة طبقات اوسطها ثلاث طبقات ، ولذلك فدمشق كانت مكتظة بالسكان ، سككها وشوارعها ضيقة مظلمة ، بيوتها مبنية بالقصب والطين ، ولهذا غالبا ماكان يسرع الحريق اليها ويدمر اجزاء كبيرة منها (٢).

---

(١) : محمد بن محمد الوهراني : منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ٦١ – ٧١ ، ص ١٠١ ، ص ١٤٤ ، ص ٢٠٣ انظر ايضا : ابن العديم (بغية) المصدر نفسه ص ٤٢٤٣.

(٢) /: محمد بن احمد بن جبير – رحلة ابن جبير ، ط. القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٦٢ – ٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد جاء ابن جبير من الغرب الاسلامي من الاندلس ولم تكن به الحدة والقسوة التي اتسم بها الوهراني لذلك قدم لنا صورا عن احوال دمشق وجامعها تختلف في ايجابيتها من صور الوهراني ولم يتعرض ابن جبير بالنقد لأي مشهد شاهده في المناطق المسلمة من بلاد الشام لنصغي اليه وهو يتحدث عن النشاطات داخل المسجد الاموي .

" وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائما ومثله اثر صلاة العصر لقراءة الكوثرية يقرؤون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لايجيد حفظ القرآن ، وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه ازيد من خمسمائة انسان وفيها حلقات للتدريس للطلبة وللمدرسين فيها اجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء واهل الطلبة كثيرة واسعة "(١).

واثر هذا ذكر ابن جبير ان الايتام من الصبيان كانوا يأتون الى الجامع حيث يتعلمون وينفق عليهم ما يقوم بأودهم مع نفقات كسوتهم وموارد النفقة تأتي من وقف كبير خص للايتام ومعلميهم(٢).

ومن أوصاف ابن جبير نرى ان المرافق والخدمات كانت متوفرة في دمشق لاسيما للغرباء والواردين الى المدينة والمياه كانت تتدفق في كل بقعة من المدينة او سوق او سكة من السكك(٣). ولفت انتباه ابن جبير اوضاع المتصوفة وعيشهم الرغد في دمشق ،ولم يتوجه بالنقد للصوفية الذين انقطعوا للطعام والسماع وأعمال الذكر والتعبير وقال : " وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش واسكنهم في قصور تذكرهم بقصور الجنان(٤).

---

(١) : المصدر نفسه ص :٢٦٠

(٢) : المصدر نفسه ص : ٢٦٠ - ٢٦١

(٣) : المصدر نفسه : ص : ٢٦١

(٤) : المصدرنفسه ص : ٢٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واهتم ابن جبير بالحياة داخل البيمارستان النوري الذي كان يعمل به عدد من الاطباء يتفقدون احوال المرضى ويقدمون لهم الادوية والأغذية وان المجانين كانوا يعالجون داخل هذا المشفى وكانوا يربطون بالسلاسل ، ولدى حديثه عن المجانين هناك اتى على ذكر احد الفقهاء الذي اختص بتعليم القرآن للصبيان فهام بأحد الصبيان حتى اختبل ولحقته الفضيحة ، وفي هذا اشارة الى الشذوذ الجنسي الذي استنكره الوهراني وغالى في وصفه وهو من المسائل التي سنقف عليها وقفة خاصة في هذا الفصل (١).

ولم يكتف ابن جبير في الحديث عن المسجد الجامع بل تحدث عن كنيسة مريم في دمشق وعن بنائها وما حوته من ذخائر وايقونات ، وأوضح انها كانت تدار من قبل المسيحيين ، ويستخلص من لهجة حديثه أنه على الرغم من اشتداد اوار الصراع بين العرب والصليبين في تلك الفترة فان دمشق كانت خلوة من مشاعر الحقد والضغائن الطائفية بين سكانها من عرب مسلمين ومسحيين(٢).

ولفت انتباه ابن جبير تعظيم الدمشقيين للحجاج وخروج الناس لتلقي قوافل الحجيج مع الكرم الكبير الذي اتسم به اهل الشام في المدن والارياف فهم كانوا يكرمون الغرباء ويؤثرون الفقراء(٣).

وأثار فضول ابن جبير ودهشته عادات الدمشقيين في الجنائز فهم يمشون امام الجنائز قراء يقرؤون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا يرفعون أصواتهم بها . فتتلقاها الاذان بأدمع الأجفان(٤)" .

---

(١) : المصدر نفسه ، ص : ٢٧٢ - ٢٧٤

(٢) : المصدر نفسه ،ص : ٢٧٢

(٣) : المصدر نفسه ،ص : ٢٧٥

(٤) : المصدر نفسه ،ص : ٢٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان اهل دمشق أيام ابن جبير خاصة رجال الدين مغرمون بتبجيل بعضهم بعضا وقد افرطوا في استخدام الالقاب ، لكل واحد منهم صفة مضافة الى الدين أطلقها على نفسه فقد كانوا مابين " صدر الدين او شمسة ، او بدره ، أو نجمه ، او زينه ، أو بهائه ، او جماله ، او مجده ، او فخره ، أو شرفه ، ومعينه أو محييه ، أو زكيه ، أو نجيبه ، الى مالاغاية له "(١).

ولم يرض ابن جبير بعض ما شاهده من عادات الدمشقيين ذلك انهم كانوا " يمشون وأيديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الاخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة (أي الاسرى) مهانة واستكانة كأنهم قد سيموا تعنيفا وأوثقوا تكتيفا(٢)" .

وكان أهل دمشق يهتمون بأزيائهم ويطيلون ثيابهم " والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبرا(٣)" .

وكانوا يحبون المصافحة ويستعملونها ليس فقط اثناء تلقي بعضهم بعضا بل اثر الصلوات ، وكان وجهاء دمشق متعنتون في آرائهم كل منهم "قد زين له سوء عمله فرآه حسنا"(٤).

وبعد ابن جبير زار بلاد الشام الرحالة المغربي محمد بن محمد العبدري الذي خرج من بلدته ماحة سنة ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م وهو لم يدخل دمشق بل دخل بعض مدن فلسطين في طريق عودته من الحج ، وكان في العبدري حدة تشبه حدة الوهراني لذلك اكثر من توجيه النقد لكثير من المشاهد التي رآها حتى يمكن القول أنه أبصر من الالوان اللون الاسود فقط .

---

(١) : ابن جبير ، المصدر نفسه ، ص : ٢٨٤

(٢) : ابن جبير ، المصدر نفسه ، ص : ٢٨٥

(٣) : ابن جبير ، المصدر نفسه ، ص : ٢٨٦

(٤) : ابن جبير ، المصدر نفسه ، ص : ٢٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مر العبدري اولا بمدينة الخليل فأسهب في وصف مزارها ثم ذهب الــى القدس وكذلك وصف الحرم القدسي وصفا فيه تفصيل كبير،ومع ذلك قال: " ولـم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه ولامعنيـا به (١)" .

ويمكن فقط استخلاص بعض الاشارات الاجتماعية الضئيلة من أوصـاف العبدري لدى ذكره ان القدس حوت رباطين " في كليهما رزق جار للمنقطعين وأبناء السبيل(٢) " .

ولم يتحدث العبدري عن موائد الضيافة في مزار الخليل والناس الذين كانوا منقطعين للعبادة هناك معولين في أسباب عيشهم علـى موارد أوقاف مزار الخليل ، وبعد العبدري بفترة طويلة في الربع الاول في مطلـع القرن الثامن للهجرة شرع ابن بطوطة في رحلته ، وابن بطوطة هو شيخ الرحالة وأوسعهم شهرة وأكثرهم سفرا ، لكنه لم يكتب اخبار رحلته بل أملاهـا وقام ابن جزي الذي كان من كتاب البلاط في فاس بتاليفها ، ولانـدري مدى الأمانة والدقة في عمله ، ومهما يكن من امر ، ان ما تركه لنا ابـن بطوطة من مشاهدات من بلاد الشام هي مواد لها أهمية خاصة .

تحدث ابن بطوطه أن أهل الشام كان من عادتهم أن يتولى الاب تجهيز ابنته وقت زواجها " ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون(٣)" ومر ابن بطوطه بمدينة حمص فقال " وأهل حمص عرب لهـم فضل وكرم(٤) ".

وحين مر بجبلة اهتم بالحديث عن وليها ابراهيم بن أدهم وقال :" وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام(٥)" .

---

(١) : العبدري ، المصدر نفسه ،ص : ٢٣٠

(٢) : العبدري ، المصدر نفسه ،ص :٢٢٨

(٣) : ابن بطوطة ، المصدر نفسه ،ص : ٣٧

(٤) : ابن بطوطة ، المصدرنفسه ،ص :٣٨

(٥) : ابن بطوطة ، المصدر نفسه ،ص :٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوقف ابن بطوطة طويلا عند دمشق وخصها بوصف مسهب لم يخص بمثله مدينة اخرى من مدن الشام ، وصادف دخوله الى المدينة تعرضها سنة ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م لطاعون عظيم وان الناس بتوجيه من نائب السلطنة في المدينة قاموا بمصالجة مشكلة الطاعون بالصوم ثلاثة ايام والامتناع عن الطبخ بالاسواق ثم اجتمعوا في المسجد الاموي وبعدما صلوا الصبح خرجوا جميعا على آقدامهم وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومع النساء الولدان وجميعهم باكون متضرعون الى الله(١)" .

وفي هذه الوصف دلالة على ان اهل دمشق وان لجأوا الى هذه الطريقة في معالجة الطاعون لم يعرفوا التعصب الديني والتمييز الطائفي بل عاشوا في كل منسجم ومتعاون .

وفي الحقيقة ان مشاعر الدمشقيين كانت راقية جدا في فترة ابن بطوطة وكان المجتمع مرهف الاحاسيس شديد الاهتمام بالمعوزين وأصحاب الحاجات والغرباء فأوقاف دمشق " لاتحصر انواعها ومصارفها لكثرتها فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنه اوقاف على تجهيز البنات الى ازواجهن ، وهن اللواتي لاقدرة لاهلهن على تجهيزهن ، ومنها اوقاف لفكاك الاسارى ، ومنه اوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ومايلبسون ، ويتزودون لبلادهم ومنها اوقاف على تعديل الطريق ورصفها لان ازقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها اوقاف لسوى ذلك من افعال الخير(٢)" .

ثم اورد ابن بطوطة بعض الحكايات عن مشاهداته في دمشق من ذلك انه رأى مملوكا صغيرا سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني فتكسرت وان الغلام اخذ يبكي ويخشى اللوم او الضرب من سيده ، فنصحه بعض الدمشقيين بحمل القطع المكسورة والذهاب الى صاحب أوقاف الاواني ففعل فأعطاه ذلك الرجل مبلغا من المال اشترى به بديلا للصحفة المكسورة .

---

(١) : ابن بطوطة ، المصدر نفسه ،ص ٦٠ - ٦١

(٢) : ابن بطوطة ، المصدرنفسه ، ص ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدث عن كرم الدمشقيين ومروءتهم وعنايتهم باليتامى فقد اعتاد سكان المدينة على اختلاف اوضاعهم وثرواتهم ان لايفطر احد منهم في رمضان دون ان يكون لديه بعض الضيوف من الفقراء والضعفاء والغرباء الذين جاؤوا الى المدينة لقضاء حاجة أو الزيارة وكانوا يدفعون المال للمنقطعين ويزودهم بالزاد والراحلة (١).

لم يكن ابن بطوطة آخر الرحالة الذين جاؤوا الى بلاد الشام ، فقد جاء ابن خلدون اليها وأقام فيها بعض الوقت أثناء سقوط المدينة لتيمورلنك لكن مما يؤسف له ان مؤسس علم الاجتماع ليس في حديثه عن اقامته في دمشق ما يستفاد منه اجتماعيا .

وواقع الحال ان المواد التي يمكن جمعها من كتب الرحالة - على أهميتها - لاتكفي لتقديم فكرة واضحة من الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الايوبي والمملوكي ، ذلك ان ما يتمناه الباحث هو الحصول على تصور عن الانشطة الاجتماعية على اختلاف انواعها ، فالباحث يود رسم صورة للحياة اليومية في كل مدينة من المدن في الاسواق والمساجد والساحات والحارات والبيوت وورشات العمل والحرف وغير ذلك .

ويمكن ان يحصل على مايرغب به من كتب الحسبة ، فقد وصلنا عدة كتب صنفت من قبل بعض الفقهاء ذوي الدراية أو من قبل اناس تولوا وظيفة الحسبة والمستعرض لعناوين محتوى بعض هذه الكتب مثل كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة - لعبد الرحمن بن نصر الشيزري وهو شامي عاش في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد وكذلك كتاب الحسبة لابن تيمية ، وكتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام المحتسب الذي عاش في القرن الثامن للهجرة - الرابع عشر الميلادي ، وكذلك كتاب معالم القربة في احكام الحسبة لابن الأخوة المتوفى سنة ٧٢٩هـ - ١٣٣٨ م.

---

(١) : ابن بطوطة ، المصدر نفسه ، ص : ٦٣ - ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان عناوين محتويات هذه الكتب مع ما أورده التاج السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم المتوفى سنة ٧٧١هـ – ١٣٦٩م ، تمكننا من تخيل طبيعة النشاط اليومي في كل مدينة شامية ، فلقد تمحور هذا النشاط حول حوانيت باعة الحبوب والخبازين والفرانين وصناع الحلويات والاطعمة المطهية وباعة اللحوم المشوية وغير المشوية ، وحول حوانيت العطارين والصيادلة وباعة المنسوجات والعاملين في الحياكة والخياطة والصباغة والاحذية ، والصناعات المعدنية من صاغة وحدادين ونحاسين ، والعاملين في اسواق النخاسة وبيع الدواب والبيطرة ، والمدارس ودور التأديب وتربية الصبيان وفي الحمامات وحيث نشط الاطباء والكحالين والفصادين والحجامين في هذا الوسط دبت الحياة في كل طرف من اطرافه وكان أشبه بخلية للنحل ، كل فئة تعمل في دائرتها وبقعة نشاطها ، ويتخلل هذا كله أصوات المنادين والدلالين والسماسرة والعاملين بالوزن وحمل البضائع ونقلها على ظهورهم او على ظهور الدواب .

لقد انتشرت الحوانيت على طرفي شارع من الشوارع فكونت سوقا مختلطا او متخصصا وفي كثير من الأحيان كانت الاسواق المتخصصة مسقوفة وغالبا ماعرض الباعة بضائعهم على الارصفة ، وعلى العموم تمت عمليات البيع والشراء على الرصيف وليس في داخل الحوانيت ولهذه الاسباب أبعدت حوانيت الخبازين والطباخين والحدادين وكل من احتاج الى استخدام النيران او صدر عن عمله روائح قد تؤذي أبعدت الى قرب الاسواق في أطراف المدينة ، ولم يقتصر نشاط البيع والشراء على اصحاب الحوانيت بل غالبا ماجاب السوق ذهابا وايابا صغار الباعة من رجال ونساء وصبيان او جلس بعضهم في زاوية او ركن من اطراف السوق واضعا بضاعته امامه مطوقا لها وحاصرا اياها بساقيه ، وأعمال البيع والشراء خضعت لشروط العرض والطلب والقدرة على المساومة ، حيث آمن المسلمون بفكرة التجارة الحرة وعدم التدخل بالأسعار لأن الله هو المسعر(1) – ولقد كان لكل سوق من الأسواق عريف ينوب عن

---

(١) : عبد الرحمن بن نصر الشيزري – نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ط ، بيروت ١٩٦٩ ، ص : ٢ – ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتسب ويراقب أعمال الشراء والبيع ليحول دون اضطراب الاوضاع والغش والتدليس وليمنع " احمال الحطب وأعدال التبن وروايا الماء وشرائج السرجين (الزبل) والرماد وأشباه ذلك من الدخول الى الاسواق لما فيه من الضرر بلباس الناس(١) " ، وفي كل سوق من الاسواق كان هناك بعض الذين اختصوا بأعمال الوزن والقياس ، والكيل ، وبما ان الأسواق كانت بعيدة عن بيوت وأحياء السكنى لذلك وجد في كل سوق من الاسواق من عمل على تحضير وبيع انواع خفيفة وسريعة من الأطعمة والأشربة ، وكانت الحوانيت تفتح من الصباح الباكر وتظل حتى غروب الشمس لذلك نشط في كل سوق من الاسواق من قام بأعمال التنظيف في الشتاء وأعمال رش الماء في الصيف ، وبين حشود الباعة والمشترين كانت تسمع اصوات المتسولين وبعض رجال الصوفية ، وغالبا ما خفت النشاطات اوقات القيلولة لذلك كان اصحاب الحوانيت يتحلقون جماعات جماعات حول واحد من شخصيات السوق لتبادل الاحاديث او للمسامرة وصرف الوقت ببعض الالعاب مثل النرد والشطرنج ، لقد شكل اصحاب كل سوق من الأسواق هيئة اجتماعية ذات نشاط واحد ، ولاسباب كثيرة لم ينتج غالبية سكان المدن الخبز بل اعتمدوا على شرائه من حوانيت الخبازين وفي كثير من الاحيان عانى الناس من عدم توفر الخبز أو تدني جودته ونظافته ، فقد كان بعض الخبازين وأصحاب الافران لاينظفون داخل التنور أو الفرن ولايعتنون بنظافة أوعية الماء وغسل المعاجن ، وكان بعض العجانين يعجن بقدميه وقد يقطر العرق من ابطه وبدنه فوق العجين او يعطس او يتكلم وهو يعجن فيسقط بعض مخاطه في العجين وكان الذباب يجد مرتعاً خصباً في حوانيت الخبازين والأفران ، لذلك اهتم أعوان المحتسب بمسائل النظافة واهتموا أيضا بالحيلولة دون غش الطحين ومنع الخبازين من بيع الخبز الفطير وغير الناضج ،وأزمات نقص الخبز وقلة النظافة وانتشار الغش دفعت بعض السكان الى تحضير العجين في البيوت وارساله الى الأفران للخبز ، ودفع هذا الناس الى انشاء علاقات خاصة بأصحاب الافران كما

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص ١٣:
- محمد بن محمد القرشي (ابن الاخوة) معالم القربة في احكام الحسبة ط . القاهرة ١٩٧٦ ،ص ١٢٠: – ١٢٣ .
- محمد بن احمد بن بسام المحتسب – نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ط.بغداد ١٩٦٨ ،ص ١٦: – ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعتنوا بخبزهم أو ببعض انواع الطعام التي ترسل اليهم لتحضيرها ونظرالانشغال الرجال في الحوانيت داخل الاسواق تولت النسوة التردد على الافران ولهذا كان على المحتسب آن يراقب اخلاق أصحاب الافران وان يمنعهم من استخدام اجراء فوق سن البلوغ لان هؤلاء الاجراء يدخولن بيوت الناس على النساء اثناء غياب أزواجهم (١).

لقد اهتم اهل الشام بطعامهم وكان المطبخ الشامي وما زال غنياً بأنواعه وبطرائق تحضير الطعام ، وأحب الشاميون ايضا تناول انواع متعددة من الحلويات ، لذلك كان على المحتسب مراقبة الذين يتولون تحضير الاطعمة والحلويات حتى تكون موادهم نقية وآنيتهم نظيفة وعملهم مستقيماً، وكان اللحم على اختلاف انواعه مادة أساسية في تحضير أية وجبه من الاطعمة لذلك أهتم المحتسب بمراقبة اسواق الجزارين ليمنعهم من الغش وليشرف على شؤون النظافة (٢).

وعلى مقربة من أسواق الجزارين انتشرت جوانيت الشوائين وباعة الاطعمة والأشربة وكانت هذه الحوانيت موقع لقاء لمختلف الناس لتبادل الاحاديث والحوار واحياناً عقد الصفقات مع نيل قسط من الراحة ذلك أن المدن الاسلامية لم يكن فيها ساحات أو أبنية للنشاطات العامة ، لم يكن فيها أغورة او ملاعب ومسارح أو حدائق عامة ، لهذا انحصرت جميع أوجه النشاط الاجتماعي داخل الاسواق اللهم باستثناء بعض الولائم او النشاطات التي ارتبطت ببعض المواسم والأعياد حيث تمت في داخل الاحياء وكانت قصيرة وعرضية عابرة.

لقد اعتمد اهل الشام في أطعمتهم مبدأ التغميس وأكثروا من طبخ الثريد أو تحضير الغمه وهي طعام يحضر بالاعتماد على رأس الذبيحة وامعائها ومعدتها.

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص:١٤ - ٢٤
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص:١٥٤- ١٥٥
- ابن بسام ، المصدر نفسه ،ص:٦١ - ٦٢

(٢) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص:٢٧ - ٢٩
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص:١٥٨ - ١٧١
- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص ٣٤ - ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت الاسرة أو الأكلة يلتفون حول خوان واحد يستخدمون ايديهم بدلاً عن الملاعق وغيرها من أدوات الطعام (١).

ويبدو أنهم لم يهتموا كثيراً بأكل الأسماك وكانوا يؤثرون بعض انواع الحساء خاصة ماحمل اسم الهريسة (٢). وأقبل الناس على صنع النقانق وابتياعها لسهولة طبخها ويسر استخدامها (٣).

وأتت كتب الاحتساب على ذكر انواع كثيرة جداً من الحلويات مثل كعب الغزال ، والخبائص الناعمة والرطبة والصابونية مما كان يصنع بالسميد والطحين ويحتاج الى السمن والعسل والسكر ، ورواج صناعة الحلويات يفيد ان المجتمع الشامي لم يعانِ من قصور في الموارد . ذلك أن هذه الحلويات كانت تصنع في الاسواق لتباع الى عامة الناس ولا علاقة هنا البتة بينها وبين ماكان يحضر داخل قصور الحكام ورجال السلطة (٤).

وخلت كتب الحسبة من الاشارة الى الخمور نظراً لتحريم الاسلام لها ومع ذلك كان غير المسلمين يتولون صناعة الخمور وبيعها وكانت تستهلك بكميات كبيرة من قبل المماليك ، أما عامة الناس فقد ابتلي بعضهم باستخدام الحشيش وهذا ما سنتناوله بالبحث فيما بعد .

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص: ٣٢
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص: ١٧٦ - ١٧٧
- ابن بسام ، المصدر نفسه ،ص : ٣٩ - ٤٠

(٢) : الشيزري - المصدر نفسه ،ص: ٣٦ - ٣٧

(٣) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص :٣٨ - ٣٩
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص : ١٥٨
- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص : ٣٦

(٤) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص : ٤٠ - ٤١
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص : ١٨٠ - ١٨٤.
- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص : ٤٧ - ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالمقابل وقف موءلفو كتب الحسبة مطولاً مع العطارة والحشائش وصنع العقاقير والأشربة فالاسباب كثيرة موروثة وبعضها ارتبط بالمناخ ، أغرم اهل الشام باستخدام الروائح الزكية والاشربة المركبة والبخور مع الاسراف في استهلاك التوابل وما شابهها في تحضير الاطعمة والحلويات ، لقد كانت دمشق تنتج كميات كبيرة من الورود التي يستخرج منها ماء الورد وكذلك اعتاد الناس على استخراج واستخدام ماء الزهر بأنواعه في مجالات التعطر والأطعمة ،والتداوي وعرف الشاميون انواع متعددة من العقاقير والأشربة ، واستهلكوا الافيون والمواد المخدرة في مجالات كثيرة ، وكان من مهام المحتسب مراقبة صناعة الادوية وتعاطيها ، فقد كان الناس يرتادون سوق العطارين والحشائشين والصيادلة أكثر من سواه من الاسواق الاخرى .

وببدو ان قطاعاً كبيراً من الشعب عمل في مجالات تصنيع العقاقير والعطور والأشربة والتوابل واختصوا بها كما اختصت جماعات كثيرة ببيعها، ومع ذلك لانسمع بذكر الاقبال على صناعة السموم وتحضيرها كما كان رائجا في بعض الاوساط الاوروبية ، يضاف الى هذا ان الصيدلة والعطارة لم يكن العمل بها وقفاً على فئة محددة من الشعب (أهل الذمة) بل كانت صناعة مفتوحة لجميع الناس(1)".

واهتم الشاميون اهتماما كبيرا بمظاهرهم الخارجية واعتنوا الى ابعد الحدود بألبستهم من حيث الخياطة والألوان ، وكان رجال الدين - ومازالوا - يحرصون أشد الحرص على انعكاسات مظهرهم الخارجي على الناس وكثيرا ما تحدثت كتب التراجم عن علماء ملكوا المهابة والجلالة المظهر ،ومر معنا من قبل النقد الذي وجه لابن شكر ولغيره من الحرافيش او من الزعر لتماجنهم ولبسهم ملابس خرجوا بها عن الحد المألوف وخرقوا بها اصول المهابة وجلالة المظهر ولذلك انفق الناس مبالغ كبيرة على شراء الالبسة والعطور المركبة من غاليّة وعنبر ومسك ، واعتاد الناس ارتياد اسواق البزازين وباعة الأقمشة

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص: ٤٢ - ٥٧
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص: ١٩٩ - ٢٠٦
- ابن بسام ، المصدر نفسه ،ص: ٨٥ - ٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخياطين وباعة الملابس والثياب المتنوعة ، وفي تاريخ الاسلام شغل الثوب دوراً كبيراً في حياة الناس وفي العمل السياسي والديبلوماسي وكذلك في المجالات الاجتماعية والدينية ، فقد كانت دوماً هدايا الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء لبعضهم بعضاً او لرعيتهم او لرجالاتهم وسواهم من الملابس والمنسوجات وأطلق على هذه الهدايا اسم الخلع .

لقد كانت اسواق الملابس تعج دوما بالناس نساءً ورجالاً وشهدت هذه الاسواق نشاطاً اجتماعياً متميزاً من ذلك المنافسات بين منتجي الاقمشة والخياطين ومضاربات الاسعار ، كما ان كثيراً من الناس كان يذهب الى هذه الاسواق لرصد بعض النساء أو للمماكسة أو للتعرف او لاقامة علاقات وغير ذلك وعدداً كبيراً من قصص الحب او سواها نشأت في اسواق الملابس والمنسوجات(1).

وارتبط بالتردد على اسواق الملابس ارتباطا مباشراً وانما بشكل موسمي الذهاب الى اسواق الصباغين فقد كان كثير من الناس يلجأون الى صبغ بعض ملابسهم البيضاء بعد استخدامها لفترة من الزمن بألوان داكنة او باعادة صبغ بعض الملابس ، وأقبل الناس على هذه الاسواق أيام الاعياد وفي أوقات الأفراح وكان بعض الصباغين يلجأ الى تأجير الملابس المودعة لديهم لصباغتها لمن يكتريها ليلبسها في يوم فرح أو عيد(٢).

وكما اعتنى الشاميون بملابسهم اعتنوا بأحذيتهم وبشكل خاص بالأحذية النسائية ، فقد مال قسم كبير من النساء وحتى الرجال الى الحصول على أحذية تصر صريراً خاصاً عند المشي ، ووجه الشيزري نقده لهذه العادة التي تعلمها الشاميون من نساء بغداد واعتبرها قبيحة " وشهرة لاتليق للاحرار(٣)". وتميزت أسواق الأساكفة وباعة الأحذية بكثافة مرتاديها للحصول على الحذاء الجديد ولاصلاح الاحذية البالية أو التي تحتاج الى بعض الترميم والتعديل .

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص : ٥٦ - ٦٨

(٢) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص : ٧٢

(٣) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص : ٧٣

- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص : ٢٣٣

- ابن بسام ، المصدر نفسه : ص ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وارتبط بالملابس والمظهر العام ارتباطاً وثيقاً الاقبال على الحصول على الحلي ،فالشاميّات اهتممن عبر العصور اهتماماً كبيراً بالجواهر وبالحلي المصاغة من الذهب والفضة وكن يذهبن جماعات وفرادى إلى أسواق الصاغة وخاصة الثريات منهن ، ولهذا اعتاد بعض الشعراء وأهل المجون وسواهم على الذهاب الى اسواق الصاغة لرصد النساء ومشاهدتهن وواقع الحال ان اسواق الصاغة شهدت كل يوم نشاطاً اجتماعياً متميزاً بخصوصيته وارتفاع مستواه (١)" .

وعلى عكس اسواق الصاغة لم يرتد اسواق النحاسين والحدادين الا قليل من الرجال للحصول على ماكانوا يحتاجون اليه من سكين او مقراض او قدور أو بعض الأدوات الأخرى ، ومع هذا فان سوق النحاسين والحدادين اختلط النشاط فيه بالضجيج الهائل وبروائح الدخان الصادرة عن النيران ورائحة المعادن ولذلك جعلت هذه الأسواق في اطراف المدينة وعلى مقربة من الأسوار ،وتمركز النشاط الاجتماعي داخل الأسواق القريبة من المسجد الجامع أكثر من سواها(٢).

ان مختلف الأسواق كانت لجماهير الشعب يرتادها من شاء منهم ، ومع هذا يلاحظ ان جنود المماليك اعتادوا على ارتياد سوق خاص بهم كان يعقد في دمشق على مقربة من القلعة كان اسمه سوق " ابو علي او سوق الخيل" ففي هذا السوق كانوا يحصلون على الخيول ويقومون ببعض اعمال السباق والفروسية والعربدة وما شابه ذلك من مظاهر ويبدو ان ارتياد هذا السوق اقتصر عليهم وعلى تجار الخيول(٣).

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص: ٧٧ - ٧٨
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص: ٢٢٨ - ٢٣٠
- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص: ١٠٦ - ١٠٧

(٢) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص: ٧٩
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص/ ٢٣١ - ٢٣٢
- ابن بسام ، المصدر نفسه ،ص: ١٤٠ - ١٤٣

(٣) : محمد احمد دهمان ،ولاة دمشق في عهد المماليك ط. دمشق ،١٩٨١ ص ٤٦ - ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الاسواق الخاصة التي اعتاد على ارتيادها بعض الاثرياء او وكلاء رجال السلطة كانت اسواق النخاسة ، فلقد شكلت النخاسة المورد البشري الاساسي للنظام المملوكي وفي اسواق النخاسة بيع الجواري والغلمان واعتاد النخاسون على تقديم عروض خاصة تلفت الانتباه الى بضائعهم البشرية وتدفع بعض الراغبين الى الحضور لأسواقهم لمتعة عابرة او للشراء(١).

وخلاصة الامر لقد استقطبت اسواق المدينة الشامية نشاطاً اجتماعياً كبيراً لمختلف الناس خلال النهار وهو النشاط الاجتماعي الاعظم ومع انعدام الساحات العامة والمسارح وأماكن اللقاء الميسرة للجميع نجد أن الحمامات تولت شغل هذا الدور ، فالحمام تجاوز دوره أعمال النظافة والطهارة ... لقد حرص الاسلام على الطهارة واشترطها للصلاة وغير ذلك من أعمال العبادة. لذلك أقبل الناس على الاغتسال مرة كل يوم او عدة مرات في الاسبوع ، ويمكن ان نضيف الى مسألة الطهارة ، ان طبيعة المناخ في بلاد الشام في الصيف والشتاء ساعدت على الاكثار من استخدام الحمام ، ففي الشتاء الحمام يؤمن الدفء وفي الصيف يؤمن ازالة العرق والاوساخ والفضلات والى جانب النظافة رأى عدد كبير من اطباء العصور الاسلامية في استخدام الحمام سبيلا للتخلص من بعض الامراض وهذا مما زاد في مكانة الحمامات ورفع من اهمية دورها ، ومع هذه المكانة التي تمتعت بها الحمامات ، وعلى الرغم من توفر المياه في معظم المدن الشامية . فان عامة الناس لم يتولوا بناء حمامات خاصة بهم في منازلهم وفقط حوت قصور الحكام حمامات خاصة بالقصر ، ولعل مرد ذلك الى اسباب أهمها ان الحمام احتاج الى مكان متسع وأدوات معدنية كثيرة وكميات ضخمة من الوقود وهذا لم يكن أمرا ميسورا لعامة الناس خاصة اذا تذكرنا ما وصفت به المدن الشامية مثل دمشق وغيرها من ان بيوتها بنيت بمواد رخيصة قابلة للاحتراق بسرعة ، وكانت البيوت مكتظة بسكانها ، واحتاج الحمام لان يبنى بالحجر وأن يقوم على خدمته والعمل به عدد كبير من الناس

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ، ص : ٨٤ - ٨٥

- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص/٤٣٨ - ٤٣٩

- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص : ١٤٩ - ١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهذه الاسباب وأسباب أخرى لم يستخدم الناس في بيوتهم الحمامات ، واعتمدوا على الحمامات العامة ، وكان في كل مدينة شامية عدد كبير من الحمامات المختلفة الاحجام ومازال في دمشق بعض الحمامات التي بنيت في العصرين الايوبي والمملوكي وعلى العموم تألف كل حمام من ثلاث قاعات كبيرة الاولى حيث كان الناس يخلعون ثيابهم والثاني (الوسطاني) وكانت متوسطة الحرارة والثالثة (الداخلي) للاستحمام وفي كثير من الاحيان حوت القاعة الداخلية عدة حجر صغيرة وكان للحمام في العادة باب واحد . وعمل فيها عدة عمال كل واحد منهم اختص بمهمة من المهام ، فقد كان هناك من اختص بتقديم المآزر وهي على انواع فالمآزر التي استخدمت اوقات الاستحمام غير تلك التي استخدمت قبيل ارتداء الملابس ، هذا وقد اعتاد كثير من الناس على حمل مآزرهم وثياب الاستحمام معهم في بيوتهم وحملوا معهم الصابون والطيب والبيلون (الغسول) . وأدوات الحلاقة بشكل عام ، وفي كثير من الاحيان كان في كل حمام مزين تولى ازالة الشعر للمستحمين، ومما يلفت الانتباه في هذا المقام أن الطبيبين تعرفوا الى الحمامات في بلاد الشام وأعجبوا بها وبخدماتها وقد حكى لنا اسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار اكثر من حكاية حول هذا الموضوع وفيما بعد نقل الفرنجة تجربة الحمام معهم الى بلادهم وطوروها(١).

ومع المزين عمل في الحمام عدد من العمال توجب عليهم تنظيف الحمام وكنسها ، واشعال البخور بها وتعطيرها اكثر من مرة في اليوم .

لقد كان على المحتسب ان يراقب الحمام أكثر من مرة يوميا فيمنع الناس من الجلوس عريا فيها بدون مآزر ، كما يمنع دخول المرضى خاصة المجذومين والبرصان الى الحمام ويراقب الاخلاق والسلوك العام بمنع الغلمان والمرد من دخول الحمامات ، ويوصي المدلك والقيّم بالحمام في أن لاينظر الى عورة من يغسله أو يلمسها اثناء التدليك ، ويبدو ان الشاميين أعتادوا على استخدام العدس او غيره من الحبوب في تدليك أجسادهم في الحمامات ، ولذلك افتى

---

(١) : محمد بن محمد ابن الاخوة القرشي - معالم القربة في احكام الحسبة ط . القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٤٠ - ٢٤٤.

- أسامة بن مرشد الشيزري - كتاب الاعتبار - ط . برنستون ١٩٣٠ ، ص ١٣٦ - ١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفقهاء بتحريم هذه الاعمال(١).

لقد كان العمل في الحمام مستمرا ليلاً ونهاراً مقسم بين الرجال والنساء للرجال في طلوع الفجر حتى قبيل صلاة الظهر ، وللنساء من العصر وحتى العشاء ، وفي الحمام التقى اتباع شيخ من شيوخ الصوفية ومريدوه ، كما اعتاد الناس على التحدث في الحمام في شؤون حياتهم ومشاكلهم العامة والخاصة ، فالحمام كان مكان لقاء طبيعي لأكبر عدد من رجال كل حي من أحياء المدينة . منه تزول الكلفة ويتحدث الناس ويتسامرون على سجيتهم ، كما ان الحمام شغل ادواراً اجتماعية اخرى فعندما كان يدخل المريض الى الحمام كان في ذلك اعلان عن شفائه ، وكان العريس يدخل الحمام قبل ذهابه الى حفل الزفاف .

ولعل الحمامات شغلت دوراً اجتماعياً نسائياً أكبر مما أشرنا اليه حتى الان ، لقد اعتادت نساء كل اسرة من الأسر أو زقاق او حي من الاحياء ان يذهبن في موعد متفق عليه الى الحمام وكن يحملن معهن الاطعمة والأشربة المعدة لهذه المناسبة خصيصاً وفي كثيرٍ من الاحيان كن يحملن معهن بعض ادوات الطرب والغناء فقد كانت ساحة الحمام تتحول الى حلبة للرقص وعرض الجمال لذلك اعتاد الرجال الذين رغبوا في الزواج على ارسال نساء تخصصن في أعمال الوصف والتعريف الى الحمامات .

أضف الى كل ماتقدم أن العروس كانت تتجهز قبل ليلة زفافها بالذهاب الى الحمام ، كما ان المرأة كانت تحتفل بعد ولادتها بأربعين يوما بالذهاب الى الحمام .

---

(١) : الشيزري ، المصدر نفسه ،ص ٨٧ - ٨٨
- السبكي ، المصدر نفسه ، ص ١٣٤- ١٣٥.
- ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص : ٢٤٠ - ٢٤٤
- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص : ٦٧ - ٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كان في كل مدينة من مدن الشام بيمارستان او أكثر وبالاضافة اليه كانت هناك حوانيت وأماكن خاصة بالذين اختصوا بالطب العام وبطب العيون (كحالة) والجراحة وجبر الكسور . وكان الناس يقصدون البيمارستان أو حانوت احد الاطباء أو يجلبون الطبيب الى بيوتهم للكشف على المرضى ، ولجأت بعض النسوة الى الأطباء لاسقاط الحمل لسبب ما كما حاول بعض الناس الحصول على بعض الادوية السامة من الاطباء لاسباب خاصة بهم ، ولذلك أوصي المحتسب بمراقبة الاطباء وبتوصيتهم بأن لايفشوا الاسرار ولايهتكوا الأستار وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، وهذه الوصايا اندرجت أيضا على الكحالين والمجبرين والجرائحيين .

وانتشرت في مدن الشام بيوت مؤدبي الصبيان حيث اعتاد الناس على ارسال اولادهم اليها، ويبدو ان الناس امتنعوا عن ارسال بناتهم للتعلم وكانت بيوت مؤدبي الصبيان مكان اجتمع فيه عدد كبير من الذكور من مختلف الاعمار ، لذلك كان هذا المكان ببؤرة حيث امضى الاولاد اوقاتهم باللعب بالكعب والبيض والنرد ، وكان بعض الاطفال يتعرض للفسق ولتعلم قبيح العادات لذلك أوصي المحتسب أن لايسمح لمؤدب بالعمل اذا لم يكن متزوجا "ولايسمح لعازب ان يفتح مكتبا للتعليم الا ان يكون شيخاً كبيراً قد اشتهر بالدين والخير ، ومع ذلك لايؤذن للتعليم الا بتزكية مرضية وثبوت أهليته لذلك بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل(٢) " .

وأقبل الناس أيام الجمع وفي بعض الايام الاخرى أو في الامسيات على ارتيادمجالس الوعظ او مجالس القصاص، وكان الواعظ او القاص يعتمد على الاشارة وتميز العصر المملوكي بكثرة الملاحم الأدبية التي اعتاد القصاص على قراءتها في مجالس محددة مثل قصة عنترة ، وقصة حمزة البهلوان، والزير سالم

---

(١) : ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ - ٢٦١.
- الشيزري ، المصدر نفسه ، ص ١٠٣ - ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشريقة بني هلال وتغريبتهم ، وسيرة ذات الهمة ، وسيرة الملك سيف وغير ذلك من الملاحم الشعبية(١).

وأكثر الناس من زيارة المنجمين حيث مارس المنجم الكهانة وكتب التمائم ورقاع السحر ورسائل الروحانيات لاثارة محبة او تهييج أو كراهية أو للكشف عن سرقة أو قضية من القضايا، وزار المنجم النساء والرجال وفي كثير من الاحيان كان بيت المنجم مقرا لنشاط اجتماعي له لونه الخاص(٢).

وحيث أن غالبية العامة لم تحسن القراءة والكتابة وكانوا بحاجة الى كتابة رسائل أو عقود . أو تدوين بعض الاشياء اختص بالرسائل والعقود بعض الرجال وكانوا يجلسون على قارعة الطريق أو يتخذ أحدهم حانوتا لنفسه ، وكان على المحتسب مراقبة هؤلاء الناس لمنعهم من التزييف أو الخروج عن المألوف في كتابة الرسائل وفي مراقبة سلوكهم مع من يلجأ اليهم من النساء(٣).

وكانت كل مدينة تشهد بعض النشاطات ذات المظهر العام فغالبا ما أقدمت السلطة على التشهير ببعض المغضوب عليهم من رجالاتها أو أعوانها او بمن ثبت في حقه أنه اقترف جرما ما ، فقد كان بعض المعاقبين يجبر على الركوب على ظهر حمار بالمقلوب وبرفقته من يتولى صفعه والنداء عليه ، كما كان بعض المعاقبين يجلد . او حتى يعدم بقطع رأسه أو توسيطه على مشهد ومرأى من الناس(٤)، ولدى استعراض كتب التاريخ مع كتب الحسبة يجد الانسان ان المجتمع الشامي عرف بعض الامراض الاجتماعية المتفاوتة الخطورة فمن ذلك كان اللواطة والزنا واتيان البهائم ، وتناول المخدرات ، والقذف ، وتمضية الوقت بلعب النرد أو العاب مشابهة، وكثر استخدام الحشيش واللواطة في أوساط التجمعات الصوفية .

---

(١) : ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص ٢٧١ -- ٢٧٤

(٢) : ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦

(٣) : ابن الاخوة ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦

(٤) : ابن الاخوة ، المصدر نفسه ،ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الحشيش يزرع في اراضي نيابة صفد وبمصر ويخزن ليباع كمشروب يمضغه الناس فيحصل بذلك تاثير التخدير(١).

ومع الحشيش شرب بعض الناس الخمرة جهارة في بعض البساتين والمنتزهات وانتشر الانحلال الخلقي ولذلك عزا بعض الناس الجوائح والمصائب التي حلت بهم لكثرة الذنوب المقترفة ففي سنة ٧٩٣ هـ - ١٣٩١ م عم البلاء في دمشق واضطربت الاحوال وكثر النهب والحريق واشتدت الفتنة وأخذ بعض الوعاظ السعي معالجة الامور فخطب قائلا " يا معاشر المسلمين انما وقعت بنا هذه النازلة لكثرة ذنوبنا وارتكابنا المعاصي وكثرة الكذب والفجور وقلة الامانة واتباع الباطل وأكل الحرام وشرب الخمور ومنع الزكاة وترك الصلاة وقلة الحياء(٢).

ومرة اخرى في سنة ٧٩٩ هـ - ١٣٩٧ م شحت المياه ولم تتساقط الامطار طيلة الشتاء " وراح يفرغ شهر اذار ونهر بردى ليس فيه ماء يدير حجر طاحون وغلقوا الناس طواحين كثيرة لقلة الماء وتلفت اكثر مغلات الناس ومع قلة الماء فالمطر قليل جدا ، وقد عاينت الناس الموت (٣).

وامام هذه الازمة اخذ الناس يتساءلون عن اسباب البلاء وقد ذكر صاحب بستان في دمشق كانت تنفجر في أرضه عين الكرش ان سبب انقطاع المياه مرده ان اهل تلك الناحية كانوا يقدمون الى البستان ويجلسون قرب النبع " ويشربوا الخمر عندها ويفعلوا كل قبيح فنشفت ، فلما رأوها نشفت منعوا الناس عن القعود عندها وعزلوها فجرت قليلا (٤)" .

وحاول العلماء وغيرهم معالجة الموقف فطلبوا من الناس الصيام لمدة ثلاثة أيام والاقلاع عن اقتراف الموبقات ثم تجمهر أهل دمشق وخرجوا جميعا يريدون المزة للاستسقاء ، وكانت صلاة الاستسقاء أشبه بمهرجان من المهرجانات قال ابن مصري يصف ماحدث : " وطلعت القضاة مشاة ومعهم المصاحف والسناجق والناس في دعاء وذكر وابتهال الى الله تعالى وطلع حاجب الحجاب وكل أمير في دمشق ماشين..

---

(١) : شيخ الربوة ، المصدر نفسه ،ص ٢١١
- الطراونة - المرجع نفسه ،ص ١٦٨ (نقلا عن العثماني صاحب تاريخ صفد)
(٢) : ابن مصري ، المصدر نفسه - ص ٨٧
(٣) : ابن مصري ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٠
(٤) : ابن مصري ، المصدر نفسه ،ص ٢٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطلعت العلماء والمشايخ والفقهاء والفقراء ، وكان غالبهم حفاة باكين متذللين خاضعين ، وطلع جميع الصبيان الذين في المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ... وطلعت الناس في خلف بعضهم البعض في بكاء ودعاء واستغفار(١)" . وعندما تجمهر الناس في المزة نصبوا منبرا لقاضي القضاة وقام رجل الدين هذا يعظ الناس ويذكرهم وتوجه بالدعاء الى الله ليغيثهم ولم تتساقط الامطار وهنا دار في خلد بعض العامة ان سبب انقطاع المطر تسلط يهودي اسمه ابن النشو على الادارة المالية في دمشق فهاجموه وقتلوه وقطعوا رأسه ثم احرقوه ونهبوا بيته وكسروا اواني الخمر الذي وجدوها فيه ومع ذلك لم تسقط الامطار بل انشغل الناس بفتنة عمت المدينة واستمرت بعض الوقت (٢).

ان مهرجان الاستسقاء كان واحدا من المهرجانات التي عاشتها مدن الشام في بعض المناسبات وعلى الاخص في اوقات توديع قافلة الحج واستقبالها أو أوقات الاعياد او دخول نائب السلطنة او السلطان أو الجيش .

واهتم الشاميون كثيرا بعيدي الفطر والاضحى ، فكانوا يعدون الحلوى والملابس الخاصة ، وظلت مثل هذه العادات قائمة حتى الامس القريب ومن اطرف ماذكرته المصادرفي وصفها لبعض الاحتفالات ماحدثنا به ابن شيخ الربوة عما كانت تشهده مدينة حماة في موسم عيد الفصح قال :" وفي هذا العيد تبطل اهل حماة مدة ستة أيام أولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد وآخرها يوم الثلاث سادس الفصح ، وتنتقش فيه النساء وتلبس فيه الكساوى الفاخرة ويسبغون فيه البيض ويعملون الاقراص والكعك المسلمون اكثر من النصارى ويرد الى حماة اهل سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلمية وكفر طاب وأبو قبيس ومصياف والمعرة وتيزين والباب وبزاعة والفوعا وحلب ويطلعون جميعا الى العاصي

---

(١) : ابن صصري ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٧

(٢) : ابن صصري ، المصدر نفسه ،ص ٢٠٦ - ٢١٠

ج

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويضربون لهم أهل حماة على شطوطه خياما ويركبون في المراكب بالمغاني ويرقصون في المراكب النساء والرجال على الشطوط حتى تنتهك الخلائق ويمضي لهم ستة أيام لايرى في الوجود مثلها.

وكذلك يبطلون اول يوم صوم النصارى ... وفي هذه الليلة (ليلة الميلاد) يوقد أهل حماة كبيرهم وصغيرة وجليلهم وحقيرهم وجندهم وأميرهم من القناديل فوق الاسطحة ومن القنب والشيح شيئا عظيما ، ويوقدون من البارود والنفط انواعا شتى ، وكذلك في عيد الختان ويسمونه الميلاده الصغيرة وربما يوقدون فيها اكثر من الكبيرة وعيد الغطاس. ويعتنون بهذا العيد اعتناء عظيما[1].

ان العادات الاجتماعية التي اخذ بها أهل الشام ظلوا محافظين عليها الى ابعد الحدود حتى مطلع القرن الحالي وكثير من هذه العادات لم ترض بعض فقهاء الشام فتعرضوا لها نقدا وتشهيرا وهذا ما يتمنى الباحث في التاريخ الاجتماعي لو كان اضعاف مضاعفة ما وصلنا ، وهكذا يمكن الحصول على مواد وردت في مؤلفات يوسف بن عبد الهادي والشيخ علي بن عطية (علوان الحموي) هي على درجة عالية من التفصيل والاهمية تمثل بلاد الشام جميعا فابن عبد الهادي دمشقي والشيخ علوان حموي عرف وسط بلاد الشام وشمالها ، ومع مواد هذين الفقهين يمكن الافادة ايضا من الاشارات التي وردت لدى التركماني ، التاج السبكي ، وشيخ الربوة ، وابن طولون ، فهذا كله وان كان لايروى غليل الباحث في التاريخ الاجتماعي يساعد على تكوين بعض ملامح الصورة المطلوبة وتتعزز هذه الصورة وتظهر سماتها احيانا بشكل جلي من خلال المواد التي أودعها مؤرخ حلب الشيخ كامل الغزي في كتابه " نهر الذهب في تاريخ حلب ".

---

(١) : ابن شيخ الربوة ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ - ٢٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كان قوام المجتمع الاسرة والتزمت الاسرة بعادات وتقاليد في الحياة داخل البيت من مأكل وملبس وأثاث وفي أيام المناسبات والافراح والاتراح وكذلك في علاقات الاسرة بغيرها من الاسر .

فلقد اعتادت المرأة متى علمت بالحمل أن تتحرز على نفسها وتعتني بصحتها فتتجنب حمل ما ثقل من الاشياء والركوب على الدواب وتتوقف عن تناول بعض الأدوية خاصة المسهلات منها ، وتقوم باستحضار لوازم المولود التي عرفت باسم " الديارة " من كسوة وقماط ولفائف ، وكان لكل اسرة قابلة تعرف باسم الداية وهي التي كانت تتولى أعمال التوليد .

لقد كان في كل مدينة من مدن الشام بعض المزارات ، وكان في دمشق باب اسمه باب الفرج وحمل أحد ابواب حلب الاسم نفسه ، وفي الشهر التاسع كانت الحوامل تتردد الى هذا الباب تفاؤلاً وكان بعض أهلها يركز لها حربة(1) ، عند ضريح احد الاولياء وتجلب لها لتتوكأ عليها ساعة الوضع ، وعندما يلد الطفل ان كان غلاما صلت القابلة على النبي صلى الله عليه وسلم فعرف الناس ان المولود ذكراً وان كانت انثى ترضت عن فاطمة الزهراء ولدى الاعلان عن الولادة تبتدأ النساء بالزغاريد وكان الطفل يحمل بعد لفه الى أحد الرباشة ليؤذن في اذنيه وبعد عدة أيام من الولادة كان يعق له .

---

(1) : الشيخ كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، المطبعة المارونية حلب - (بلا تاريخ) ج ١ ، ص ٢٤٣- ٢٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت اسرة الزوجة تقوم باعداد طعام لطيف لها ويأخذ الزوار بالقدوم للتهنئة فيقدم لهم حلوى خاصة أسمها " المغلي " وقد يحضر بعض الناس القينات والمغنيات ويحمل المهنئون الهدايا ويقدمون للمغنيات " نقوطا " عبارة عن عدة دراهم (١).

لقد اعتاد الناس التهادي في الافراح بأنواع الحلوى أو الاقمشة أو النقود ، وغالبا ما جاءت الهدايا وفاءً ورداً لهدايا سابقة ، وبعد مرور أربعين يوما على الولادة كانت تذهب النفساء الى الحمام مع أقاربها وصديقاتها وفي الحمام كان يطلى جسمها ببعض المواد المركبة من العسل وغيره (٢).

وكان من عادة الشاميين تكحيل الاولاد بالاثمد ودهن جسم المولود بزيت الزيتون الممزوج بورق الآس ، وعندما تنبت اسنان الطفل كان يحتفلون بذلك بأن يسلقوا له القمح ويخلطوا معه الجوز والفستق واللوز ويطعموه من هذا الخليط ويوزعوا الباقي على الاقرباء والجيران .

كان الطفل يدفع منذ بلوغه سن الثالثة او بعيد ذلك الى احدى الكتاتيب المداره من شيخة أو شيخ ، ومتى أكمل الولد قراءة القرآن كانت اسرته تحتفل بذلك احتفالا مدويا بضرب الدفوف وجمع زمرة من دراويش الصوفية ، وكان الولد المحتفل به يدعوا زملائه وقد يقوم الاولاد بمسيرة صغيرة في الاحتفال ويتولون انشاد ابيات من بردة البوصيري او بعض المدائح النبوية الاخرى

---

(١) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٢٤٤ – ٢٤٦

(٢) : انظر ما تقدم ص (١٧٠ – ١٧٣) الحديث عن الحمامات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع الموسيقى والطعام كان البخور يحرق مع العود ، وذلك لدفع الارواح الشريرة عن الطفل ولهذا كان يقوم الانسان بنثر الشعير على الناس اعتقادا انه يدفع العين عن الولد.

وسلف ان اشرنا الى الاحتفال بختان الطفل والاحتفالات التي كانت ترافق ذلك .

وما ان يشتد عود الصبي حتى يأخذه والده بالصلاة والصيام وكان الاهل يحتفلون بصوم ابنهم للمرة الأولى احتفالاً خاصاً وكثيراً ما أعدوا طبقاً كبيراً مليئاً بجميع أنواع الحلوى ليفطر عليه في يوم صيامه الاول(١).

وما ان يبلغ مبلغ الرجال حتى يشرع والداه بتزويجه، فقد مال الناس الى الزواج المبكر ، وكانت الأم هي التي تختار الزوجة لابنها وهو لايراها الا ليلة زفافه ، وعمليات الخطبة وعقد القران كانت عبارة عن احتفالات تأتي مقدمة للاحتفال الكبير يوم العرس .

ولحسن الحظ أودع العالم علي بن عطية بن حسن الحموي المشهور بالشيخ علوان في واحد من كتبه واسمه نسمات الاسحار كان قد اوقفه على كرامات الاولياء والتصوف والزهد ، أودعه فصلاً سجل فيه عادات الأعراس في بلاد الشام في القرن التاسع للهجرة بين أنواع البدع التي سادت آنذاك وهذا الوصف وثائقي عظيم الفائدة فيه استطرادات اجتماعية كثيرة لاعلاقة لها بالأعراس لكنها تسجل صور بعض المظاهر الاجتماعية في ذلك العصر، اخذ الشيخ علوان على معاصريه الابتعاد عن السنة النبوية وأوامر الشريعة وقت اختيارهم لزوجاتهم ، فالنبي (ص) حظر من خضراء الدمن وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء ومع ذلك كان أهل

---

(١) : الغزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرن التاسع " اذا أراد انسان نكاحاً لايسأل لا عن دينها ولا عن نسبها وانما يسأل عن جمالها وجهازها وهل معها قماش كثير وجهاز ثقيل والحامل على هذا كله التساهل في الدين فاذا ذكرت له امرأة متجهزة كثيرة المال أرسل اليها واقبل بكليته عليها والحال أنها مغتابة نمامة كذابة تاركة للصلاة سيئة الخلق ، وهذا فعل من هو في غاية الحمق ، فان نفس الفاسق سمٌ قاتلٌ)[1].

وخلال فترة الخطبة تتلقى اسرة العروس الهدايا الكثيرة ليس من العريس فحسب وانما من اصدقائه وبعض الجيران والاقرباء ورؤوس الحارات والوجهاء وقد يندفع بعض الفقراء محرجين فيرسلون بدورهم الهدايا ، وفي كثير من الأحيان كانت الهدايا اطعمة وكان الطعام يوضع على مائدة كبيرة ويرسل محمولا على رأس حمال مكشوفا حتى يراه الناس فيقولون هذا عشاء فلان حتى يتبارى الناس في هذا المجال[2].

واعتاد الناس على المغالاة وقت كتب عقد النكاح ليس في تحديد كمية الصداق فقط وهو أمر شكا منه كثير من الفقهاء ، بل في الطريقة التي يكتب فيها العقد والوسيلة التي يكتب عليها ونوع الاحتفالات التي ترافق ذلك .

---

(١) : نشر المرحوم الاستاذ عبد الهادي هاشم الفصل الذي وصف فيه الشيخ علوان اعراس عهده في مجلة مجمع اللغة العربية الصادرة بدمشق ، انظر ج ٢ ، الجلد ٣٢ ، لعام ١٩٥٨ ص ٣٣١.

(٢) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كانوا يكتبون عقد (النكاح على حرير نحو ذراع أو اكثر اسرافاً وتبذيراً)(١). وقبيل العرس بأيام كان يجتمع أهل محلة الزوج غالبهم الصغير والكبير منهم ويستصحبوا معهم عددا كبيرا من بغال الحمل ويسيرون وسط استعراض صاخب نحو محلة الزوجة لنقل جهازها ولدى وصولهم الى تلك المحلة يجد سكانها قد تجمهروا ووقفوا على رأسها معلنين عن اقناعهم وعدم السماح لهم بدخول محلتهم واخذ العروس منها ، وبعد جدل يتم التوصل الى تسوية بتقديم عدة رؤوس من الغنم الى رجالات محلة العروس مقابل ان يولموا لهم ولائم كبيرة يقدمون فيها المآكل المتنوعة ، وهنا كان يذهب كل رجل من المحلتين الى بيته فقيراً كان أم غنياً ويامر زوجته بصنع طعام كثير للاسهام به في أمور الضيافة (فربما تكون مستقلة باصلاح بعض شأنها فيلعنها ويلعن آباءها واخوانها وفي الحقيقة ما لعن الا نفسه ... وربما يكون الانسان منهم فقيراً لايملك قوت ليلة ، او ليس عنده مايكفي اولاده فيتركهم يتضاغون من الجوع ويحمل قوته في طاعة الشيطان رياءً وسمعةً (٢) .

لقد اعتبر الشيخ علوان هذه التصرفات رياءً ونفاقاً بعيدة عما أمر به الدين ، وكل هذه التصرفات عيب وفضيحة .

وتصف الموائد ويأخذ الناس بتناول الاطعمة واثر ذلك يبدأون باللعب والمزاح واظهار الفرح ، ولم يشر الشيخ علوان الى استخدام الخمرة أو المشروبات المحرمة بل اكتفى بان ذكر انه والناس مشغولون بتناول الطعام يقوم اهل الزوجة بوضع جهاز العروس وأثاثها في اطباق أعدت خصيصاً لمثل هذه المهام ، ثم وضعوا الجهاز على ظهور البغال وجاؤوا بالحلي فوضعوها على رؤوس الحمالين ، ولم

---

(١) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣١

(٢) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقتصر الاحتفال على الرجال بل (انتشر النساء والرجال مختلطين في الازقة والأسواق رافعين الاصوات بالزغاليط قاصدين المفاخرة والمكاسرة[١]) .

لقد كان حمل الأثاث او مايعرف عادة باسم جهاز العروس الى بيتها الجديد . يتم وسط مظاهر احتفالية كبيرة ، كان ظهور الدواب ورؤوسها تغطى بوسائل الزينة وتعصب بالمناديل الملونة ، وكان قطار الدواب يتحرك نحو هدفه وسط النهار وأمامه جماعة يلعبون بالسيوف والترسة معهم طبل وزمر ورجال يتولون الانشاد والرقص[٢].

وفي ليلة العرس تعد الاطعمة من قبل أهل العريس وأقربائه وجيرانه وتوجه الدعوة الى (أكابر العلماء وأعيان الناس والامراء[٣]) .

والعرس كان في الحقيقة عرسان واحد للنساء وآخر للرجال، فاحتفال الرجال يقتصر على الطعام والغناء والرقص ، فاذا ما اكل المدعوون يقول الشيخ علوان : (حسبهم - صاحب الدعوة - لغرامة اضعاف ثمن ما أكلوه ويقول لبعض اصحابه ناد بالشاباش فيقول هذا المنادي اذا اعطاه أحد شيئا : شاباش يافلان هذا وجماعة من النساء يستمعون صوت المنادي فاذا سمى الباذل للنقوط رفعوا اصواتهم بالزغاليط خصوصا اذا كان المنادى باسمه من وجوه الناس .... فهناك تقع المفاخرة والمغايرة بين الاقران ويستحوذ عليهم الشيطان ويحصل لهم العجب بفعلهم الخبيث فينفقون اموالهم رياء وسمعة في سبيل ابليس وجنوده ، ومما ينادي المنادي اخلف الله عليك يافلان[٤]) .

---

(١) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ -٣٣٣

(٢) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ،ص ٣٣٣ وكانت هذه العادات قائمة في بلاد الشام حتى وقت قريب ولم تقتصر هذه العادات على بلاد الشام فهي ماتزال قائمة في بلدان المغرب العربي خاصة في مدينتي فاس ومكناس .

(٣) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٣

(٤) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعادة النقوط عادة شامية قديمة ذكرها المتنبي في شعره :

نثرتهم فوق الاحيدب بنثرة   كما نثرت فوق العروس الدراهم

وهي ماتزال قائمة حتى الان تتجلى في الارياف والبادية أكثر من المدن .

وبعد انقضاء وليمة الرجال يتوجه الجميع بصحبة العريس الى الحمام ويسيرون في موكب كبير ويستصحبوا معهم شمعاً كثيراً يوقدوه بين يدي العريس وخلال المسيرة الى الحمام يهللوا الجميع ويرفعوا أصواتهم باللهو واللعب واظهار السرور ، فاذا ما فرغوا المدعوون من الاستحمام ، لبس العريس اجمل ثيابه ووضع الطيب والعطور وتوجه نحو المكان الذي تجمعت فيه نساء المحلة وأهل العروس للاحتفال(١).

فقبل ليلة القران تكون العروس قد توجهت الى الحمام وخضبت نفسها بالحناء وتزينت ولبست أجمل الثياب وتحلت بالذهب ووضعت على وجهها الوان الزينة .

لقد اشار الشيخ علوان الى وجود نساء اختصصن بأعمال اعداد العروس وتزينها وعرفت المرأة التي كانت تتولى ذلك باسم الماشطة وكانت الماشطة تنتف حواجب العروس وتقوم بتحمير الوجه ووضع خضاب من السواد . ووضع ألوان من الزينة على أطراف الأصابع .

كانت العروس توضع اثناء الاحتفال على كرسي مرتفع ، وتضاء حولها الشموع وينشغل كل من حولها بالغناء والرقص وتقديم الهدايا (النقوط) .

---

(١) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٤

(٢) : الشيخ علوان ، المصدرنفسه ، ص ٣٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ساعة متأخرة من الليل يأتي العريس الى مقر الاحتفال النسائي ليتعرف الى عروسه . فيستقبل من جموع المحتفلات (والوجوه بادية والزينة ظاهرة لاحجاب ولاجلباب فيدخل الزوج للجلى بسل للعمى والظلام فيتلقينه بالشمع والزغلطة وهن سافرات عن وجوههن مبديات لزينتهن ، فتعفضه امرأتان من اقاربه واحدة عن يمينه واخرى عن شماله ، فيدخل على النساء الاجانب وربما يدخل معه شبانا بالغين من الاقارب ، كأخيه البالغ ومن في معناه فلا حول ولاقوة الا بالله ، فهناك يجلس على مكان رفيع فتتقدم كل امرأة اليه وتلصق الدراهم بين عينيه ورائحة الطيب منها فائحة وعينها محدقة اليه لامعة ...ثم تخرج العروس .. في شيء يقال له الشربوش والذي يظهر لي والعلم عند الله تعالى انه وما في معناه مما ظهر في زماننا ويلبسه النساءعلى رؤوسهن ويسمونه المقنزع ... فاذا خرجت وامتثلت بين يدي الزوج قام لها مكشف شيئا يقال له الجلاية عن وجهها واخذت تتقصف وتتكسر في حركتها وتتفتل وكلما دارت مرة لعق الزوج ومن معه ... الدراهم في جبهتها وعلى خديها ثم تذهب الماشطة بها الى بيت وتخلع عنها تلك الهيئة وتفرغ عليها ثيابا غير تلك الثياب وتلبسها عمامة كعمامة القاضي والفقيه والجندي ، وتمسك سيفا مسلولا معها فتأتي الى الزوج فيأخذ السيف منها ويضربها ببطنه على رأسها ثلاث ضربات)[1] ولم يعلل لنا الشيخ علوان سبب هذا التصرف أو معناه أو أصله لكنه تابع يصف الاحتفال ، فبعيد دخول العريس الى الاحتفال ينسحب غالبية المدعون من الرجال وحتى من النساء وقبيل الانصراف كان واحد من أقرباء العريس يصيح بصوت مرتفع معينا اسم الحمام الذي سيتوجه اليه العريس للاغتسال في الفجر ، وبعد الانتهاء من تعرف العريس الى عروسه يرافقها نحو بيتهما في الدار التي كانت الاحتفالات جارية فيها . فاذا ما اراد دخول الغرفة (قامت ام الزوج ففشخت رجليها مع مدغي الباب أي عضادتية ولا تمكن الزوجين من الدخول الا بعد انحنائهما من تحت رجليها ،فاذا استقرا في البيت تطلع النساء الاجانب

---

(١) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ،ص ٣٣٥ - ٣٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليهما من الكواة وجلسن يرقبن احوالهما الى الصبح ،فان لم يسمع لهما صوت طرقن الباب عليهما وحركن عزمهما ، هذا وقد علمن الزوجة الممانعة وحرضنها على عدم المضاجعة والبسنهما سروالا عقدنا عليه كذا وكذا عقدة (١). وختم الشيخ علوان حديثه في أن (بعض الناس يقدم بدعة قبيحة جدا ويصنع لعرسه مرسحا وفيه منكرات كثيرة من اضاعة الاموال فانه يحتاج فيه الى بذل مال كثير في شراء الزينة واجرة المغنين ويتفق فيه اختلاط النساء بالرجال وسماع الدف المصنج والغناء والفحش والبذاءة والخنث وتشبه الرجال بالنسوة وكثرة الضحك الناشئة عن الغفلة والقسوة (٢).

وأفادنا الشيخ علوان ان بعض العلماء استعاد شكل الاحتفالات بالاعراس هذه فقد اعتاد الفقهاء على قراءة صحيح البخاري وكان عندما يختم احدهم قراءة هذا الكتاب تخلع عليه خلعة ثمينة اكتريت ليلبسها ساعة الاحتفال بهذه المناسبة حيث يجتمع الرجال والنساء في مجلسه يهزجون ويضحكون ويظهرون سرورهم بما يشبه حفلة عرس كما أسلف الوصف (٣).

ولم يقتصر الفقهاء على التأثر بتقاليد احتفالات الاعراس بل اعتاد بعض الناس اثناء الاحتفال بالعرس على (التمسخر الزائد بمحاكاة كلام العلماء والخطباء وكشف العورة وأشياء نسأل الله العافية منها بمنه وكرمه مما يفضي الى الكفر ، فربما يلبس المضحك زي الكفار ويستهزئ بملابس العلماء الأخيار ومن استهزئ بالدين وأهله كفر ، وانواع الكفر كثيرة لاتكاد تحصر ... اختلفوا ايضا فيما لو حضر جماعة وجلس احدهم على مرتفع تشبها بالمذكر

---

(١) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧

(٢) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٧

(٣) : الشيخ علوان ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو العالم أو القاضي فسألوه المسائل وضحكوا وضربوا بالمخراق (المنديل المعقود ليضرب به) قال بعضهم يكفر وكذا لو تشبه بالمعلم وأخذ خشبة وجلس القوم حوله كالصبيان وضحكوا واستهزأوا به وهاتان مسألتان ونظائرهما تتفقان بالمراسح كثيرا(١).

وسلف بنا القول ان الشيخ علوان اعتاد على تقديم بعض الاستطرادات فمما اتحفنا به اشارات جميلة تحدثت عن انتشار عادة الوشم (وهو ان تغرز ابرة او مسلة او نحوهما في ظهر الكف او المعصم او الشفة أو غير ذلك حتى يسيل الدم، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل ونحوه فيخضر ... وهي مسألة عامة الوقوع خصوصاً في الفلاحين وأهل البوادي رجالهم ونسائهم(٢).

ان عادات الزواج التي اتينا على ذكرها قد اقتصرت على المسلمين وتميز المجتمع الشامي دوما بكثرة المسيحيين فيه، ولقد كان للمسيحيين أعيادهم واحتفالاتهم الخاصة بهم مع انهم تشاركوا والمسلمين في عدد كبير من الاحتفالات كما رأينا باحتفالات عيد الفصح بحماة.

فقد كان الشاب المسيحي اذا ما أراد الزواج يتوجه الى الكنيسة وهناك اثناء الانصراف من الصلوات يتطلع وجوه الفتيات اثناء خروجهن من الكنيسة وهنا يحاول التعرف اليها ومن ثم يشرع في خطبتها بشكل رسمي عن طريق ارسال وليه وبعض أقاربه يصحبهم واحد من رجال الدين، فرجل الدين هو الذي يطرح مسألة الخطبة ويقوم الاب بعد ابدائه الموافقة باحضار ابنته ليسألها رجل الدين عن رأيها واذا ما أبدت موافقتها تخبر الخاطب ليقدم لزيارتها مع امه ليقدم لها بعض الحلي، وبعد مضي بضعة ايام يشرع الخطيب

---

(١) : الشيخ علوان، المصدر نفسه، ص ٣٣٧

(٢) : الشيخ علوان، المصدر نفسه، ص ٣٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بزيارة خطيبته ثم عندما يحين الوقت المناسب يطلب تحديد موعد الزواج ، وقد يحدث في بعض الاحيان أن تفسخ الخطوبة وترد الحلي الى الخطيب ، انما في حال نجاح الجهود يحدد موعد للزفاف ويتم احتفال كبير يحضره الناس بازيائهم المعدة للمناسبات ويرافق الزفاف استخدام واسع لآلات الطرب والموسيقى ورقص ومرح وطعام وخمرة حتى الفجر[١].

وفي صباح ليلة الزفاف تستأنف أعمال الفرح والطرب وقد يستمر ذلك لمدة أيام وبعد مضي أسبوع يأخذ العروسان باستقبال المهنئين وذلك لمدة شهر كامل .

كانت هذه بعض عادات الافراح كذلك توفرت بعض عادات للاتراح لدى كل من المسلمين وغيرهم ، فعند المسلمين عندما كان يحتضر مريض او مسن يجلبون مرتلا للقرآن ويحضرون له الاكفان والنعش وأدوات الغسل ، وجرت العادة باكتراء بعض النائحات وهذه عادة شامية قديمة جداً ، فلقد كشفت أعمال السبر الاثرية عن أوعية زجاجية سماها الاثريون البكايات كانت تجمع فيها دموع النائحات او النذابات لتدفن مع الميت .

كانت النذابات ينثرن على رؤوسهن الحناء ويشدون حول اوساطهن المآزر ويطلين وجوههم بسخام القدور وقد يخدشن وجوههن ويفعلن ذلك حتى ساعة حمل نعش المتوفى ، ويقوم مناد بالتجول في شوارع المدينة للاعلان عن حادث الوفاة ومكان الدفن وساعته ومكان الصلاة والتعزية وعند حمل النعش قد يقوم احد اقرباء المتوفى بضرب باب الدار باناء خزفي حتى لايلحق الميت غيره من أهل الدار[٢] وتحمل الجنازة على الاكتاف ويتقدم الموكب طائفة من دراويش

---

(١) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

(٢) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٢٥٥ - ٢٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطرق الصوفية معهم بعض ادواتهم الموسيقية ويرددون خلال الموكب بعض المدائح النبوية او الآيات القرآنية وقبل انزال الميت في حفرته يرتل أحد رجال الدين آيات من القرآن وبعد وضعه بالحفرة يتقدم أحد الشيوخ لتلقينه وعادة التلقين شامية أزلية وجدت قبل الاسلام واستمرت حتى اليوم واذا كان المتوفى من ذوي اليسار ينصب حول قبره خيمة يرابط فيها عدد من قراء القرآن يتلونه ليل نهار لمدة اسبوع ويستقبل ببيت المتوفى او منزل احد اقربائه في مسجد الحي ويتلقى أقرباء الميت وآله بعض الطعام المعد خصيصاً من قبل جيرانهم وذويهم حيث تبسط الموائد ويدعى اليها الفقراء والمساكين لمدة اسبوع ، ويجدد ذلك بعد مرور أربعين يوما على الوفاة . واختلفت عادات المسيحيين في اتراحهم بعض الشي عن عادات المسلمين ، فبعد وفاة أي فرد منهم كانوا ينتظرون عليه بعض الوقت ثم يضعوه داخل صندوق ومن ثم يحملوه الى الكنيسة للصلاة عليه ويسير وراء الجنازة موكباً فيه بعض رجال الدين مع جمهور من الجيران والاقرباء والاصدقاء ، وبعد الصلاة عليه يحمل الى المقبرة ليدفن ومثلما اعتاد المسلمون ان يفعلوا في مثل هذه المناسبات فعل المسيحيون حيث وزعوا بعض الصدقات على الفقراء ، وصنعوا بعض المأكولات التي دعي اليها مختلف الناس وبخاصة الفقراء ، لكن المسيحيين لم يستخدموا عادات الندب والنياحة التي أشرنا اليها لدى المسلمين(١) .

وبما أنه وجد في بعض مدن الشام الرئيسة أقليات يهودية فيمكن لنا ان نفترض أن هؤلاء وقد عاشوا في ظل أجواء من الحرية العقائدية والاجتماعية قد اختلفوا عن سواهم ببعض العادات في الافراح والاتراح(٢) .

---

(١) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٢٥٦ – ٢٥٨ ، ٢٦٣ – ٢٦٤ .

(٢) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٢٦٤ – ٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اعتاد اهل الشام على الاحتفال بعدد من المناسبات كان من ذلك الاحتفال بيوم المولد النبوي ففي هذه المناسبة كان الناس يتجمهرون فئات وجماعات في المساجد والزوايا وبعض البيوت الكبيرة ، حيث كان هناك عدد من المنشدين ورجال الدين وأتباع الطرق الصوفية ويقوم منشدون بقراءة خبر ولادة النبي صلى الله عليه وسلم مع عدد من الاناشيد الدينية والمدائح النبوية وفي كثير من الاحيان كان هذا الاحتفال يختتم بحلقات للذكر ورقص الدراويش مع توزيع للحلوى واستخدام كبير لماء الزهر والبخور والمسك والروائح الطيبة وما شابه ذلك .

واحتفلوا ايضا بذكرى يوم عاشوراء وأعدوا لهذا اليوم أطعمة خاصة حضرت وفق طرائق خاصة ، كما واحتفلوا بيوم الاسراء والمعراج ، وبليلة النصف من شعبان حيث صنعوا انواعا خاصة من الحلوى الملونة ، كما واحتفلوا بليلة القدر وبمناسبات دينية اخرى ، وفي جميع هذه المناسبات شغل رجال الدين مع أتباع الطرق الصوفية الدور الاعظم . لقد احتل شهر رمضان بلياليه ونهاره مكانة خاصة لدى المسلمين فقد اعتادوا على زيادة انارة المساجد . واحراق كميات أعظم من الشمع ، وكان المنشدون ينشطون في المآذن او في داخل المساجد ومعهم قراء القرآن ومع اقتراب نهاية شهر رمضان أكثروا من ترديد الازجال والاناشيد في وداع رمضان والتأسف عليه ولربما خرج بعض الناس في مسيرات ليلية ومعهم طبول صغيرة يضربون عليها وطالما الحديث عن رمضان فالمسحر في رمضان شغل دورا كبيرا في تنقله في الاحياء قبل الفجر بساعات يحمل في يده طبلة صغيرة وتعلق على كتفه كشكولا كبيرا كان يضع فيه صنوف الاطعمة والحلوى التي كان يهديها اليه الناس الذين كان يتولى ايقاظهم لتناول طعام السحور . لقد كان شهر رمضان اقل شهور السنة نشاطا في مجالات العمل والانتاج الحرفي وغير ذلك . وبات هو أشبه بعطلة سنوية غير كاملة لجميع المسلمين ، ومع اطلالة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العيد يعود النشاط الى الاسواق بشكل منقطع النظير فتفتح الحوانيت ليل نهار ويشتري الناس اللحوم والحبوب والحلوى لاعداد طعام العيد وحلواه ، وفي صباح العيد يلبس الناس احسن ثيابهم وغالباماكانت جديدة اعدت لهذه المناسبة خصيصا فيتوجهون الى المصلى لصلاة العيد وكان لكل مدينة مصلاها العام فياحد اطرافها وبعد الفراغ من صلاة العيد يتوجهون الى المقابر لزيارة امواتهم ومن ثم يعودون الى بيوتهم لتناول طعام الافطار والشروع بزيارات المعايدة المتبادلة بين الاهل والجيران والاصدقاء وفي أيام العيد كان بعض من اختص بأعمال الغناء او بأعمال تستهدف جميعها ادخال السرور على النفوس ، فهناك كان من يلبس الثياب الغريبة ويقدم الرقصات في احدى الساحات او في الازقة والشوارع(1)، وهناك من كان يقوم باعداد بعض وسائل اللهو واللعب للاطفال او من كان يعرض العاب بعض الحيوانات من تيوس وقرده وديكة وعرفت بعض المدن الشامية في مواسم الاعياد بعض أعمال الفروسية وسباق الخيل(2)، كما انها كانت مناسبة لكثير من الانحرافات الخلقية والخروج على الآداب العامة بعد انقطاع استمر شهرا من الزمان ، فكان بعض الشباب يقبل على احتساء الخمرة أو القيام ببعض المغامرات اللاأخلاقية .

وبعد مضي العيد بأيام قليلة كانت مدن الشام تشهد نشاطاً موسمياً يشارك فيه الشاميون وغيرهم من المسلمين الذين قدموا الى بلادهم من البلدان المجاورة ونعني بذلك الاستعدادات للذهاب الى الحج ، فهذه الاستعدادات كانت تستغرق أكثر من شهر من الزمان واحتفل الشاميون خاصة بدمشق كما سلف وأشرنا(3) بتوديع قافلة الحجاج ومن ثم استقبالها فيما بعد وزيارة الحجاج وتهنئتهم وهي عادات لاتزال قائمة حتى الان.

---

(1) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١،ص ٢٦٧ - ٢٧٤.

(2) : انظر ماسيأتي في الصفحة (٢١١- ٢١٤) لدى الحديث عن الفروسية .

(3) : انظر ماتقدم في الصفحة (١٥٨)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع المواسم الدينية احتفل الشاميون بمواسم اخرى ارتبطت بالمناخ وبالانتقال من فصل الى آخر فاحتفلوا ببداية الربيع واحتفلوا أيضا في بعض المواسم الاخرى وكانوا يذهبون لزيارة القرى في الارياف أو البساتين وفي هذه المواسم غالبا ماشغلت الاسر باعداد الاطعمة لتستخدم في فصول تالية . فبعد الحصاد كانت الاسرة تنشغل بشراء القمح وغسله وتنقيته ليصنع منه البرغل أو ليصنع منه الدقيق ،ومع نهاية الصيف كانت الاسر تشغل نفسها باعداد بعض البقول المجففة والفواكه أو بعض المواد المستخرجة من العنب أو غيره ، وفي الحصول على الزيت من الزيتون وفي حفظ الزيتون لتناوله في الشتاء (١)، وفي ليالي الشتاء غالبا ما تجمعت فئات من الشعب في بيت أحد الوجهاء لتتبادل الاحاديث او لتستمع الى من يقرأ عليها قصص ألف ليلة وليلة أو احدى الملاحم الشعبية التي راجت كثيرا ولربما اقتصر بعضهم على تلاوة القرآن أو سماع بعض الاناشيد الدينية ، هذا وعرف المجتمع الشامي لعبة خيال الظل(٢) منذ ماقبل العصر الأيوبي واستخدمها بشكل واسع في مختلف المناسبات خلال العصرين الأيوبي والمملوكي فهذا ما رواه لنا ابن حجة الحموي .

اعتاد أهل الشام من مسلمين وغير مسلمين على القيام بزيارة بعض الاماكن المقدسة من معابد قديمة أو مزارات أو قبور أولياء وقديسين وانتشرت الاماكن المقدسة في جميع أرجاء بلاد الشام طولاً وعرضاً، وما من مدينة او بلدة الا وحوت أكثر من مزار كثير منها كان مقدساً لدى الشاميين منذ ماقبل الاسلام وحافظ على قداسته واشترك المسلمون وغير المسلمين في زيارة المكان الواحد.

---

(١) : الغزي ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٢٧٥ - ٢٧٧

(٢) : علي بن محمد بن حجة الحموي ، ثمرات الاوراق في المحاضرات ، طبع على هامش المستطرف القاهرة ، ١٣٦٨هـ ،ج ١ ، ص ٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد قام مؤرخو المدن بذكر بعض المزارات وقد أفرد الهروي علي بن أبي بكر المتوفى بحلب سنة ٦١١ هـ حيزاً كبيراً من كتابه الاشارات الى معرفة الزيارات لذكر الأماكن المقدسة في بلاد الشام ، ولشدة اهتمامه بزيارات بلاد الشام ابتدأ بالاشارة اليها حيث قال : " فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب وكان الواجب أن نبتدأ بذكر مدينة السلام حرسها الله تعالى اذ بها امام المسلمين وخليفة المهتدين(١).

تحدث الهروي عن زيارات مدينة حلب التي تقدمها عدة أماكن ارتبطت بالنبي ابراهيم عليه السلام نظرا لما راج بين العرب بأن مدينة حلب تأسست من قبل هذا النبي ، ويلاحظ ان بعض المزارات اشترك بها جميع الحلبيين وبعضها خص الشيعة من المسلمين وبعضها الاخر خص المسلمين بشكل عام ، فالذي خص الشيعة مشهد الدكه الذي قيل قد حوى قبر المحسن بن الحسين ، حيث جاء في بعض الاخبار انه ولد لاحدى زوجات الحسين بعد كربلاء ومع مشهد الدكه مسجد غوث حيث كان منه قطعة من الحجارة عليها كتابه قيل انهما خط علي بن أبي طالب وأنها حملت الى حلب من صفين وبظاهر باب النصر كان هناك حجر بارز على الطريق أعتاد الناس ان ينذروا له النذور حيث كان " يصب عليه ماء الورد والطيب وللمسلمين فيه اعتقاد ولليهود والنصارى ويقال تحته قبر بعض الأنبياء عليهم السلام أو الاولياء والله أعلم(٢) " .

وحوت القرى التي أحاطت بحلب مشاهدها التي كانت تقصد من قبل الحلبيين وغيرهم من أهل الشام ، ففي قرية براق التابعة لبلدة اعزاز " معبد يقصده الزمنه والمرضى من الاماكن ويبيتون به

---

(١) : ابوالحسن علي بن ابي طالب بكر الهروي ، الاشارات الى معرفة الزيارات ط . دمشق - ١٩٥٣ ، ص/١.

(٢) : الهروي ، المصدر نفسه ، ص : ٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاما ان يبصر المريض من يقول له دواؤك في الشيء الفلاني أو يبصر من يمسح يده عليه فيقوم وقد برأ باذن الله تعالى كما ذكره أهل الموضع والله أعلم.

وفي كفر نجد من أعمالها فيها بئر يقصدها من دخل في حلقه علقه ويصعب اخراجها ، كلما شرب من ماء البئر شربة وطاف بالبئر مرة فاذا كمل سبع مرات خرجت بغير أذى[1]" .

ان ظاهرة التداوي عن طريق زيارة بعض الاماكن المقدسة ظاهرة قديمة في بلاد الشام وهي ما تزال قائمة حتى الان على الرغم من التطور وتقدم علوم الطب ، وهكذا نجد في انطاكية أماكن مقدسة وفي طرسوس وفي قنسرين وفي جبل السماق (جبل الزاوية) وفي معرة النعمان وفي حماة وحمص وبعلبك ومناطق البقاع وفي دمشق ومناطقها ، فدمشق حوت أكبر عدد من الاماكن المقدسة مثل مغارة الدم في سفح جبل قاسيون ، والقدم في الطرف الجنوبي من المدينة وفي قراها قبر السيدة زينب وأم كلثوم ، وفي مقبرة باب الصغير قبور بعض الصحابة ، كما ان مسجد بني أمية كان وما زال فيه مقام ينسب الى النبي يحيى ، ومشهد ينسب الى الحسين بن علي وآخر ينسب الى زين العابدين وزاوية تنسب الى الخضر. ع

ولم تقتصر الاماكن المقدسة على ماينسب الى نبي او واحد من الصحابة أو الاولياء بل كان في المدينة عدة أماكن لانواع مخصصة بالاستشفاء مثل عمود لتيسير الولادة وآخر لشفاء امراض الظهر ومكان للشفاء من عدة أمراض كما ان معظم المدن عرفت مادعى بالاوائل الاماكن المرصودة منها مابني لرصد الفئران وآخر للبعوض وهكذا [2].

---

(1) : الهروي ، المصدر نفسه ص ٦;

(2) : الهروي ، المصدر نفسه ،ص : ٦ - ١٦

- ابن العديم (بغية) ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص :٤٥٩ - ٤٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كان الطب متقدما بشكل عام في العصرين الأيوبي والمملوكي ومع هذا لم يقتصر أمر التداوي بالاماكن المقدسة والمرصودة على الفقراء وغير المثقفين من الناس بل تعداه الى العلماء ورجال السلطة والثقافة والادب ، فقد تحدث ابن العديم عن عمود داخل مدينة حلب كان " اذا اصاب الانسان او الدابة عسر البول اتوا به اليه وأداروا به حوله فيزول مابه (١) " .

ونقل ابن العديم عن علي بن مرشد جد اسامة بن منقذ ان كلباً عضه في بلدة سرمين ، فما كان من جده الحسن العوفي جد الاسرة التي شغلت دورا كبيرا في تاريخ دمشق في عصر الدولة البورية ماكان منه الا أن حمله الى بئر وقع الى الشمال من حلب يعرف بجب الكلب .

يقول الامير المنقذي أنه عض في تشرين وعندما وصل به جده الى البئر (سقاني منه وغسل يدي ورجلي ووجهي وقال اقلع ثيابك فقلت ، الله ، الله ، ان خلعت ثيابي في هذا البرد مت فقال وليت مت يافاعل ياصانع ، فاستقى اربعين دلوا وصبها علي وقال تتطلع في الجب وكان آية الجب ان نفع المرعوش أبصر النجوم في الجب وان لم ينفعه سمع نبيح الكلاب ، فقال ماترى فقلت أرى النجوم في الماء فقال الحمد لله وركب وأخذني (٢) " .

ويلاحظ ان التداوي خضع لطقوس محددة ، وهذه الطقوس لم تقتصر على اماكن التداوي لكنها شملت اماكن التبرك والعبادة ، فلهذه الاماكن كان الناس ينذرون النذور من أموال أو أشياء أو أضاحي وكانوا يمضون الى المكان المنذور اليه فيبيتون به عدة أيام او يقتصرون على عمل زيارة سريعة ومع ان هذه الطقوس مازالت بقاياها قائمة حتى الان يمكن ان نفترض انها كانت نفسها في بلاد الشام ومصر ; ولحسن الحظ قام

---

(١) : ابن العديم (بغية) ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٤٧٤:

(٢) : ابن العديم (بغية) ، المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٤٧٤: — ٤٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محمد بن ناصر الدين الانصاري المعروف بابن الزيات المتوفى سنة ٨١٤ هـ بتأليف كتاب أوقفه للحديث عن الاماكن المقدسة في مصر وعن شروط الزيارة وآدابها سماه الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة مهد الزيات اولا أن النبي (ص) أباح للمسلمين بعدما نهاهم زيارة القبور حتى انه زار قبر امه ، وقال ان على الزائر اولا ان يخلص النية ويقصد بزيارته وجه الله فاذا مادخل الى المكان المزار قال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا بكم ان شاء الله لاحقون ، ثم يتوجه بمخاطبته ارواح الاموات والدعاء لاصحابها ويحظر على الزائر الجلوس على قبر المزار وينبغي ان يأتي القبر من تلقاء وجه الميت(فيقف مستدبر القبلة مستقبلا وجه الميت فانه في زيارته ومخاطبته ميتا كمخاطبته حيا وان يسلم على الميت كمن يسلم على من يزوره [1]) .

وتدلل آداب الزيارة هذه على ان المسلمين ورثوا معتقدات قديمة تتعلق بفناء الاجسام وبقاء الارواح وان الارواح تمتلك قدرات كبيرة جدا قادرة على الالهام والشفاء لابل اكثر من هذا قادرة حتى على توجيه الضرر والاذى لمن أساء الادب تجاهها ، وتوائم رواج هذا المعتقد مع سيطرة الفكر الصوفي على عقول غالبية المسلمين الامر الذي تمرد عليه بعض الفقهاء خاصة من الحنابلة .

وارتبط بآداب الزيارة والتردد على القبور ظهور حكايا كثيرة روت ان بعض الناس كان قد رأى جماعات من الاموات سألهم عن قضايا كثيرة منها كيف كان حسابهم وماذا لقوا من رب العالمين[2].

---

(١) : محمد بن ناصر الدين الانصاري المعروف بابن الزيات - الكواكب السيارة من ترتيب الزيارة ، طبعة مصورة ، مكتبة المثنى - بغداد - ص ١٤ - ١٦

(٢) : الزيات ، المصدر نفسه ، ص ١٧ - ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاشك ان زيارة القبور والحديث عن الاموات هي ظاهرة اجتماعية عبر فيها الناس عن مشاعرهم في أن الموت لم يقطع اتصالهم بذويهم واصدقائهم لخلود الروح والتخاطب بين الأرواح لايمكن ان يتوقف ابدا ، فالارواح جنود مجندة (١).

لقد كانت بعض الزيارات تتم موسميا الى قبور محددة حيث كانت تعقد الاسواق وتتم بعض انواع الاحتفالات حسب الطريقة الصوفية في الذكر واستخدام رقصات الدراويش مع الموسيقى(٢).

وزيارة القبور غالبا ما استخدمت كوسيلة من وسائل الاستشفاء من مرض مستعص أو في سبيل الحصول على حل لأزمة او معضلة من المعضلات فلقد كانت عقلية الناس تؤمن بالغيبيات ايمانا مطلقا ولذلك راجت حكايا الكرامات واعمال الاعجاز حتى ان المعجزات تعدت في تاثيرها الانسان فشملت النبات والحيوان وغير ذلك .

ولقد أورد الزيات مثله في ذلك مثل كتاب التصوف الذين ترجموا للاولياء ، او رد حكايا كثيرة فهذا شيخ تزوره السباع وتتمرغ على عتباته وهذا آخر يزرع الحصا في الارض فتنبت حالا نباتا حسب الطلب وآخر يمسك التراب في يده فيتساقط ذهبا الى غير ذلك من قدرات وخوارق فالولي يستطيع طي المسافات ويمكن ان يرى في مكانين او عدة أمكنة في وقت واحد ويمكن أن يختفي عن عيون الناس مايريد اخفاءه والنور دوما يندفع مفيضا من قبور الا ولياء(٣).

---

(١) : انظره في كنز العمال ،ج ٩ / ٢٤٦٦٠ – ٢٤٧٤٠ – ٢٤٧٤١.
(٢) : الزيات ، المصدر نفسه ، ص ٨٧ – ٩٨.
(٣) : الزيات ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ – ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان قراءة حكايا الكرامات لاتحكي صورة خيال جامح وجد عند عامة الناس وانما تصور عدداً كبيراً من الاحلام التي لم يستطيعوا الا الفرار منها من ظلم الواقع ومرارته ، وينبغي التعامل مع هذه الحكايات بهذا المعيار وليس بمعيار الانحطاط والتقدم .

لقد ابدى عامة الناس احتراما كبيرا لموتاهم واعتبروا المدافن أماكن لها حرمتها وانه لايجوز تناول الذين ماتوا الا بالخير ومن هنا جاءت الحكايات التي تحدثت عن اموات اتصلوا بالاحياء في المنام أو بوسيلة اخرى وطلبوا منه سداد دين عليهم أو القيام ببعض الخدمات من وصايا او رسائل أو اخبار يترتب عليها حل بعض المعضلات والمشاكل الحياتية (١). حيث اورد عددا كبيرا من الحكايات من هذا القبيل .

سلفت الاشارة من قبل أكثر من مرة الى اصابة المجتمع ببعض الامراض الخلقية وعلى رأسها الشذوذ الجنسي ، وصحيح ان تاريخ الاجزاء الجنوبية في بلاد الشام قديما ارتبط في الكتب الدينية بأخبار الشذوذ الجنسي والعقاب الشديد الذي أنزله الله تعالى . فقد اخذهم (وهم في حوفهم يلعبون وقطع دابرهم وهم في سكرة عشقهم يعمهون (٢)" .

ومن هؤلاء الذين انزل الله تعالى بهم عقابه جاء كلمة اللواطة واللواطية بالعربية .

---

(١) : الزيات ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ - ٣٠٣.

(٢) : أحمد بن حجلة المغربي ، ديوان الصبابة ، ط . بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كتب العرب بعد قيام الاسلام في المشرق والمغرب كتبا في العشق والحب انما المتصفح لهذه الكتب لايرى مكانا يعتد به لقضايا اللواطه ذلك ان الاسلام قضى عليها الى ابعد الحدود في الفترات المبكرة في تاريخه ، وعادت هذه الظاهرة المرضية للحياة منذ العصر الأتابكي وأخذت شكلا مزعجا في العصرين الايوبي والمملوكي ، فبالاضافة للامثلة التي سلف ومرت بنا نجد بعض الكتاب الذين كتبوا في العصر المملوكي حول العشق والعشاق افردوا فصولا من كتبهم حول عشرة الغلمان وعشقهم وحوت هذه الفصول أخبارا وضحت سيرة عدد كبير من الرجال بهذا المرض ، وأهم الكتب التي كتبت في العصر المملوكي ديوان الصبابة لابن حجلة المغربي وكتاب تزيين الاسواق في اخبار العشاق لداوود الانطاكي .

يقول ابن حجلة الذي ولد في دمشق وفيها نشأ (ولقد جبت البلاد مابين جيحون والنيل فوجدت الميل الى الذكر لاتخلو منه بقعة[1]) .

لقد انتشر هذا المرض بين صفوف الحكام وعدد كبير من العلماء ورجال الصوفية ، فقد روي عن سهيل أكبر خدم نور الدين محمود بن زنكي انه اشترى مملوكا بخمسمائة دينار وكان يحضر هذا الغلام يوميا الى خيمته ، فقد كان جميل الصورة أهيف القد وظل هذا الغلام مع نور الدين حتى توفي فجاة ، وجرى عتاب بين سهيل ونور الدين ، قال نور الدين (ياسهيل ان بعض الظن اثم .فاستحيت فقال قد عرفت حالي وانت ربيتني هل عثرت لي على زلة ، قلت حاشا الله ، قال فلما حملت الكتاره (سلاح يشبه السيف) وحدثتك بالسوء ماانا معصوم لما رأيت المملوك وقع في قلبي مثل النار فقلت اشتريه لعله يذهب عني ما انا فيه فلم

---

(١) : ابن حجلة ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يذهب فقالت لي نفسي أريد كل يوم ان أراه فأمرتك باحضاره ، أريد ان تحضره الى البرج بالليل ، فامرتك باحضاره ، فلما حضر، ما تركتني النفس انام وبقينا في حرب الى السحرفهممت أن أعصده الى عندي فتداركني الله برحمته ، فكشفت رأسي وقلت الهي عبدك محمود المجاهد في سبيلك الزاب عن دين نبيك (ص) الذي عمر المساجد والمدارس والربط يختم أعماله بمثل هذا فسمعت هاتفا يقول : قد كفيناك يا محمود فعلمت أنه قد حدث به حدث(١).

ولكن ملك نور الدين الارادة فحال بين نفسه وشهواتها فلم ينحرف واكتفى بالنظر ، فان قاضي القضاة ابو عبدالله شمس الدين محمد بن خلكان الواسع الشهرة لم يستطع ان يضبط نفسه فقد وقع في غرام احمد بن مسعود بن الملك المظفر صاحب حماة وكان له معه حكايات كثيرة وغريبة وراوده على نفسه فابى عليه لكنه أصر ولم يدع فرصة لكسب المتعة بالنظر اليه حتى تتهيأ له الظروف ليتمل به ففي احد الايام كان ابن خلكان يجلس في حضرة الملك المظفر فخرج ابنه احمد وهو غلام عليه ثوب اسود قد شد وسطه بمنديل مطرز بالذهب وفي يده شمعة ومعه دينار فجلس ليتناول من ابيه قطعة من الحلوى وهدية كانت معه فسقط الدينارمن يده فوضع الشمعة امام وجهه ليفتش عن الدينار وهنا نظر ابن خلكان الى وجه الغلام (فالتهبت نار عشقه في قلبه وخرج مكتم ذلك أياما فمرض واشتد به الحال ، فبين هو كذلك إذ ارسل المظفر ولده يعوده ، فحين رآه وثب قائما كأن لم يكن به مرض ، وكان الغلام حاذقا فعرف ذلك منه فاخبر أباه بذلك فحجبه ، فقال من رأى القاضي بعد ذلك انه كان يبيت الليالي الى الصباح لايعرف النوم وهو يقول :

انا والله هالك   آيس من سلامتي

او ارى القامة التي   قد أقامت قيامتي

---

(١) : ابن حجلة ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقيل مات وهو ينشدهما .

وحكي انه كان بعد حجبه لايركب الا يوم الموكب ، وان القاضي كان يقصده مستخفيا ، فينظر اليه فبلغ أباه فمنعه الموكب ، فكتب اليه ابن خلكان :

ياسادتي اني قنعت وحقكم ... في حبكم منكم بأيسر مطلب
ان لم تجودوا بالوصال تعطفا ... ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لاتمنعوا عيني للقريحة ان ترى ... يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم ياحبيب ما الذي ... ألقاه من كمد اذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة ... لولاك لم يك حملها من مذهبي
قسما بوجهك وهو بدر طالع ... وبليل طرتك التي كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من ... اخطارها في الحب اصعب مركب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت سري في هواك ولذلي ... خلع العذار ولو ألح مؤنبي
لكن خشيت بأن يقول عواذلي ... قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فدتيك حرقة قد قاربت ... كشف القناع بحق ذياك النبي
لاتفضحن بحبك الصب الذي ... جرعته في الحب أكدر مشرب(١)

ان هذه الابيات تنطق بأشياء كثيرة ومثلها حفلت به كتب الادب للعصرين الايوبي والمملوكي ، وهناك روايات تحكي ان الشذوذ الجنسي وعشق الغلمان استشرى بين الناس وانتشر بين مختلف الفئات ، ففي حمص كان هناك مؤدب يقال له ابن الدوري فعشق غلاما ممن كان يقوم على تعليمه وكلف به فاخبر الغلام والده فاكتفى الوالد بنقله الى مؤدب آخر فمرض ابن الدوري واشتد غمه وملك الجرأة ان كتب الى أبي الغلام يستعطفه فاجابه انه سيرفع امره الى الحاكم اذا لم يتوقف عن غيه ففقط ابن الدوري وتغير لونه من وقته وتقيأ الدم.

---

(١) - داوود الانطاكي : تزيين الاسواق في اخبار العشاق - ط ، بيروت ، ١٩٧٢، ج٢ ، ص ٢٣٧-٢٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فحمل الى بيته وجلب الطبيب ليفحصه فاخبر الطبيب ان كبد ابن الدوري قد تفطرت وانه ميت لامحالة (١).

لقد دفع عشق الغلمان بعدد من الأعيان في العصر الايوبي الى اللجوء لتعرفات كانت لاتقرها الاعراف ولاتسمح بها مكانة مقترفيها السياسية او الاجتماعية ، فقد عشق شرف العلا وكان من أعيان الايوبيين في حلب (غلاما نصرانيا وتهتك فيه حتى لبس المسح ، وتزي بزي الرهبان وكان يتبع الغلام حيث توجه وساح في الارض عشقاً وهياماً ولم يخجل من تعرفاته كما ان سلطان حلب الايوبي لم ينكر عليه ذلك (٢).

وتجاوز تأثير الانحراف على بعض الناس ماقام به شرف العلا فقاد الى جرائم قتل ، فقد حكى ابن حجلة قال : ومما (رأته عيناي وسمعته اذناي ووعاه قلبي وذلك اني لما كنت في دمشق سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة اتفق ان شابا من ابناء دمشق جميل الصورة عدا على انسان كان يحبه فقتله فحمل الى الوالي فلما سأله أنكر فعراه ليضربه بالسياط ، فتقدم انسان كان يعشق ذلك الشاب وقال للوالي لاتضربه فانه ماقتله وانما قتلته انا فأحضر الوالي الشهود وكتب عليه محضرا باقراره بالقتل واطلق الشاب وكان ايتمش نائب دمشق يومئذ فلما حكيت له هذه القصة واطلع على باطنها توقف في قتله وأمر بحبسه ، فلم تمض الا ايام حتى حضر أرغون الكاملي من حلب عوضا عن ايتمش في نيابة دمشق فكان اول شيء حكم فيه من الدماء شنق ذلك العاشق المسكين بمقتضى المحضر المكتتب عليه وقد رأيته تحت القلعة وهو مشنوق والناس حوله يتأسفون عليه ويذكرون حكايته ويتعجبون منها (٣).

---

(١) : الانطاكي ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٦

(٢) : ابن حجلة ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٧.

(٣) : ابن حجلة ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨

- الانطاكي ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان في كتابي ابن حجلة والانطاكي عدد كبيرا جدا من الحكايات عن حوادث اجتماعية تتعلق بالانحراف والشذوذ الجنسي في العصرين الأيوبي والملوكي حتى ليمكن للمرء ان يتحدث من خلال هذه الحكايات عن انواع من عشق الغلمان منها مايمكن ان نسميه (بالعشق العذري) فلقد اكتفى بعضهم خاصة في الصوفية بمحبة الغلمان المرد للنظر فقط دون ممارسة الشذوذ الجنسي وهناك قصص تحدثت عمن عشق عذريا فمات بسبب العشق ودفع هذا بعض المتشددين من الفقهاء الى اصدار فتاوى تمنع من معاشرة الاحداث ومن النظر الى الوجوه الملاح ، فقد حكى احدهم قال : (كنت امشي مع استاذي فرأيت حدثا جميل الصورة اترى يعذب الله هذه الصورة بالنار ؟ فقال : اونظرت اليه ، سوف ترى غبها ، فنسيت القرآن بعد عشرين سنة ، ومن المعلوم ان النظر الى الامرد يوقع في سكرة العشق (1)) .

ولم يقتصر الشذوذ الجنسي على الرجال بل تعداه الى النساء ، فالمرض الاجتماعي ينتشر عادة مثل الطاعون ، فقد تحدث ابن حجلة عن انتشار مرض السحاق في أيامه وأورد عدة قصص ومقطوعات شعرية من ذلك قول احدهم :

شغل المرد بالبدال وأضحى نسوة الناس شغلهم بالسحاق
كل جنس بجنسه قد تكفى فعزاء يا معشر الفساق (2)

وكان العشاق يتراسلون وبعض الرسائل التي اوردها الانطاكي فيها دلالات على رقي في المشاعر وتطور حضاري في التعبير ، انما هو جميعا يصب في قناة اسمها العلاقات الجنسية دونما مراعاة لمسائل الحلال

---

(1) : ابن حجلة ، المصدر نفه ، ص : ٢٤٧
- الانطاكي ، المصدر نفسه ، ص : ٢٧٦.

(2) : ابن حجلة ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ = ٢٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجرام وقواعد الاخلاق العامة ، يقول الانطاكي : (ومن الطف ماوقع في الرسائل من النكت العجيبة والطرف الغريبة الناشئة عن فرط الذكاء الذي يغلب نوره على ابن ذكاء ان ابن السلطان صلاح الدين افتتن بقينه حتى تملك حبها قلبه فعلم ابوه امره فمنعه عنها فازداد غمه فارسلت اليه كسرة عنبر ، فلما كسرها وجد فيها زر من ذهب فلم يدري ما أرادت بذلك فاطلع على سره القاضي الفاضل فقال :

أهدت لك العنبر في وسطه ... زر من التبر قليل اللحام

فالزر والعنبر معناهما ... زر هكذا مختفيا في الظلام)(1)

أورد بعد ذلك عددا من القصص الاجتماعية يمكن ان يدخلها تحت عنوان ماعرف في ايامنا باسم الادب المكشوف ، وليس مدهشا ان يورد الانطاكي هذه الحكايات ، لكن الباعث على الدهشة في الحكاية التي اوردناها دور القاضي الفاضل فيها ، وهو رجل الدولة الكبير الذي كان يعد الرجل الثاني بعد صلاح الدين الايوبي ، ويمكن ان نربط هذا الدور بالدور الذي مزي الى ابن خلكان والى شخصيات دينية وسياسية اخرى .

ان التعرف الى هذه الادوار يساعدنا في معالجة سؤال : لماذ عرف المجتمع الشذوذ الجنسي وأعمال الخيانة ؟ وفي محاولة للاجابة على هذا السؤال قد يقول الانسان من الاسباب الترف المادي لدى الجماعات الحكام والاثرياء ورجال السلطة الايوبية والمملوكية يقابله فقر مدقع وحرمان لدى فئات الناس المحرومة هذا من جانب ومن جانب آخر اعتمد النظام العسكري المملوكي بأصوله الايوبية على الغلمان المستوردين ، وهؤلاء الغلمان قد يكون بعضهم

---

(1) : الانطاكي ، المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص ٤١٤ -- ٤١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مر بتجارب للشذوذ الجنسي اثناء فترة التداول بأيدي النخاسة وقد يكون بعضهم لجأ الى الشذوذ الجنسي اثناء فترة التدريبات العسكرية التي امتدت زمنا طويلا ويقابل هذا في الوقت نفسه تجمعات الصوفية في الزوايا والربط خاصة الحرافيش وهؤلاء عاشوا محرومين من الأسر والرعاية المنزلية لذلك انحرفوا فتناولوا المخدرات ولجأوا الى الشذوذ الجنسي .. ان التورط السلطوي يبعث على الدهشة ويعلل في الوقت نفسه عدم استنكار كثير منهم لاعمال الشذوذ والانحراف ولهذا لانسمع الا بعض الاصوات الخافتة التي تعرضت لهذه الامراض ونجد محاولات للتداوي من امراض الشذوذ عن طريق كتابة التمائم والرقى(١).

وقدم لنا الانطاكي عددا من الوصفات التي عولج بها من اصيب بعشق الغلمان وتورط ببعض أعمال الخيانة والهروب الى مثل هذه الوسائل هو مؤشر على ان الذين أصيبوا بالمرض هم الذين افترض بهم التصدي له ومعالجته معالجة خلقية حازمة.

---

(١) : الانطاكي ، المصدر نفسه ،ج٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

امتلكت بلاد الشام طبيعة خلابة متميزة هذا مالفت انتباه جميع الذين زاروا البلاد من الرحالة ، وقد استغل الشاميون جمال طبيعة بلادهم احسن استغلال وتفاعلوا مع هذا الجمال فاستعاروا منه رقة الطبع والدماثة والاحساس بالجمال ورقي الذوق وحسن التخاطب مع الطبيعة والناس ، ولقد شعر بهذا جميع من زار بلاد الشام وهو ما زال حيا يمكن ان يراه الانسان في كل بقعة من بقاع دمشق ، ودمشق هي المثل الشامي الاعلى .

لقد اعتاد الشاميون في مختلف المناسبات خاصة في فصل الربيع ومطلع فصل الصيف الذهاب الى مشاهدة الغوطة ومنتزهاتها ، وكانوا يقصدون احيانا بعض المواقع القريبة من دمشق مثل الزبداني وغيرها .

كما حوت نواحي مدينة دمشق عدة منتزهات عامة ملكت جميع الخدمات التي كان الناس يحتاجونها في ذلك العصر.

يقول ابو البقاء عبدالله بن محمد الدمشقي في كتابه نزهة الانام في محاسن الشام :" ومن محاسن الشام بين النهرين وهو مبتدأ الوادي يشتمل على فرجة سماوية وسويقة بها حانوت طباخ وصاجاتي وقطفاني وفقاعي وحواضري وفاكهاني وشواء وقلاثين وسكرواني ونقلي وقاعة لبن وعدة للجلبية وحمام[1] ....).

واستطرد في وصفه لهذا المنتزه فتحدث عن وجود مقعفين يرتادهما جميع الناس وقبالتهما زاوية يرتادها الصوفية والفقراء ، وهناك زقاق فيه قاعات ومطاعم وغرف والجميع مشرف على بردى ، وهناك عدة نواعير اضفت على المنطقة رونقاً خاصاً ، لقد كان الناس يقصدون هذا المنتزه في مختلف الاوقات ويحصلون على الطعام والظل والشراب المتنوع والمتعة وامكانات الخلوة[2].

---

(١) : عبدالله بن محمد البدري ـ نزهة الانام في محاسن الشام ،ط . القاهرة ١٣٤١هـ ص :٦٥

(٢) : البدري ، المصدر نفسه ، ص ٦٥- ٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك متنزهات اخرى في دمشق اوقفت على جميع الناس منها منتزه الجبهة (وهي أرض مربعة قدر فدانين عليها سقائف تظلها من غير طين بين شجر الصفصاف والحور والجوز وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من اربع جهاته مع البرك والبحرات بالنوافير وهي على جنب نهر بردى وبه النواعير وبه حوانيت للشرائجية والجزارين والطباخين والحوافرية والاقسماوية والنكاهين وغير ذلك ، وبها مسجد ومدرستان ومربط للدواب ومقاصفيه واقفون في خدمة الناس وعندهم اللحف والامطاع والعبي لمن يبات [1]) .

ومثل هذا المنتزه منتزه قطية وكان يمر بوسطه فرع نهر القنوات وقامت عليه النواعير وتعددت فيه البرك والبحيرات وحوى حوانيت الخدمات وكان فيه ايضا مربط للدواب وما يحتاج الناس اليه للمبيت وقال البدري كان فيه (حتى الاطباق والملاعق لمن ياكل وهذا مما لايوجد في بلد من البلاد) [2].

والذي يثير الاهتمام هنا ان دمشق عرفت ماتسمي في ايامنا هذه بالخدمات السياحية واحسن أهلها توظيف واستغلال جمال مدينتهم وامكاناتها ، وتوفر الخدمات السياحية يعني قيام اتصالات غير منقطعة بين سكان مدن بلاد الشام وبين سكان المدن والارياف وكذلك بين بلاد الشام وغيرها من بلاد (العرب والمسلمين وبلدان حوض البحر المتوسط ومقرر ان الاتصالات بين الشعوب واسطة لنقل المؤثرات الاجتماعية والحضارية والثقافية ومن هنا نجد الان في بعض بلدان المغرب العربي بعض العادات والتقاليد ذات الاصل الشامي والتي اندثرت في الشام ولازالت حية في البلدان التي انتقلت اليها،وانه لعظيم الاهمية ان يتولى مجتمع بلاد الشام التأثير في غيره من المجتمعات[3]".

---

(١) : البدري ، المصدر نفسه ، ص ٧٧- ٧٨

(٢) : البدري ، المصدر نفسه ، ص ٧٩

(٣) : البدري ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩ (الابيات الشعرية التي قالها ابن سعيد المغربي وابن حجة الحموي معبرين فيها عن انطباعاتهم تجاه ما شهدوه في دمشق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان كتاب نزهة الانام سجل فني جدا بأوصاف المنتزهات والمقاصف التي كانت بدمشق وهي كلها قد حوت الخدمات نفسها والجمال والترتيبات ، ويمكن للانسان ان يخرج بصورة ان مجرى نهر بردى وتفرعاته امتد على اطرافها المقاصف التي قدمت الأطعمة بأنواعها والحلويات والفواكه وغير ذلك من الحاجيات والخدمات .

ولم يقتصر الناس على الاستمتاع بهذه الأماكن التي وجد ما يماثلها في معظم المدن الشامية في حمص وحماة وحلب وطرابلس والقدس والخليل وعكا وصور وصفد وغيرها ، بل كانوا يقصدون الأرياف في بعض المواسم مثل موسم البطيخ[1]، ومواسم جني الخضراوات وتحضيرها للاستخدام في الشتاء ، ويستخلص من أوصاف البدري ان أغنياء دمشق اختصوا ببعض الأحياء التي بدا عليها الثراء وتوفرت فيها الخدمات فمحلة الخلخال ومحلة المنيع اختصا بسكناهما الاتراك المماليك ورجالات الدولة وموظفيها ، وكانتا قائمتين على نهر بانياس تطلان على منطقة المرجة المشهورة[2].

لقد اعتاد الدمشقيون خاصة الغلمان منهم على السباحة في نهر بردى ، ويبدو ان عددا من الذين كانوا مصابين بالانحراف الخلقي كانوا يقصدون المقاصف ليس للتمتع بجمال الطبيعة فقط بل لمراقبة أجساد الغلمان المتعرين وهم وهم يعومون فهذا ابن خلكان الذي اشرنا اليه من قبل كان يذهب الى الربوة لمراقبة الغلمان ووصلنا من شعره واصفا بعض ما شاهده قوله :

---

(١) : البدري ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ – ٢٦٤.
(٢) : البدري ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ – ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسرب ظباء في غدير تخالهم ... بدورا بأفق تبدو وتغرب

يقول خليلي والغرام مصاحبي ... أمالك من عهد الصبابة مذهب

وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى ... فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا (١)

وكان لأهل الشام ومازال عناية خاصة تميزوا بها بالعطور والورود والزهور وقد تفننوا في استخراج العطور من الورد والزهر ودخلت العطور في معظم انواع المشروبات والاطعمة والحلويات الشامية (٢) والادوية .

---

(١) : البدري ، المصدر نفسه ، ص: ٩٠ - ٩١

(٢) : البدري ، المصدر نفسه ، ص١٠٢ - ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد غلب الطابع العسكري على الدولتين الايوبية والمملوكية وشغل الجند في حياتيهما أخطر الادوار وأهمها . وبالنظر لاستمرار المواجهات الخارجية والاضطرابات الداخلية مع التهديد الصليبي الناشىء عن بقايا الممتلكات الصليبية وعن قبرص وبيزنطة والدول الاوربية بالنظر لهذا كله تعزز المظهر العسكري للدولة وانعكس على قطاعاتها الداخلية والخارجية ، فقد كثر بين صفوف الشعب المتطوعة وفي كثير من الاحيان أقبل القضاة والعلماء على التدرب وتدريب الناس وتحريضهم على الجهاد ، وعبرت فئات الشعب عن مطالبها واهدافها ومواقفها بتنظيمات ذات لون عسكري كالفتيان والزعر والحرافيش .

ويمكن ان نضيف الى هذا كله التراث العربي الاسلامي الغني جدا في ميادين الفكر العسكري والحروب ، لهذا عبر الناس في كثير من اوجه نشاطاتهم العسكرية تعبيرا عسكريا وغالبا ما شهدت المدن الشامية اعمال استعراض واحتفالات ذات طابع عسكري ، فلقد اعتاد الناس على روءية الجيوش تقدم من مصر ومن النيابات الشامية لتجتمع في دمشق وغيرها بغية تنفيذ مهمة عسكرية وكانت الجيوش توضع وسط مظاهر احتفالية بالغة وكذلك تستقبل لدى عودتها خاصة اذا جاء النصر حليفها .

ويذكر ابن القلانسي انه منذ ايام نور الدين صارت دمشق تعبر عن فرحتها وأعيادها العسكرية بمظاهر من الزينة يشترك فيها جميع افراد الشعب بعرض مالديهم من سجاد وبسط وأقمشة ملونة على شرفات بيوتهم أو في الطرق وفي محلاتهم ، وظلت هذه العادة قائمة في المدن الشامية حتى امس قريب . ولم تقتصر اعمال الاستعراضات على الجيوش النظامية بل رأينا ان الزعر والحرافيش يقومون باستعراضات خاصة بهم ويعقدون الموائد الاحتفالية الكبيرة وفي بعض الاحيان كانوا يشتركون مع الجيوش النظامية في استعراضاتها ، وجرت بعض الاستعراضات والمواكب الاحتفالية لدى استقبال الحكام والنواب الجدد او القضاة المخلوع عليهم او لدى استقبال حملة بعض المراسم السلطانية والاوامر الهامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا كله تحت الاشارة اليه في ثنايا البحث ، لكن ينبغي ان تذكر ان سكان المدن جندا ومواطنين كانوا يقيمون احتفالات دورية ذات سمة عسكرية او كانوا يحتفلون في مواسم الاعياد بأعمال والعاب عسكرية ، فتراث الفروسية تراث غني وقد اوصى النبي (ص) المسلمين بتعلم الفروسية والمناضلة والرمي[(١)]. لذلك كانت الجيوش الايوبية والمملوكية كثيرا ما تختتم اعمالها التدريبية وسط مظاهر احتفالية في ميادين مخصصة داخل المدن او في اطرافها ، وحوت كل مدينة شامية قرب القلعة ساحة كبيرة كانت تسمى بالناورد . كانت عبارة عن ساحة تشبه الدائرة تجري فيها الاحتفالات والتدريبات العسكرية وأعمال السباق والرماية وكان يدعى اليها الجمهور ويبتهجوا فيها كثيرا ، وكانت بعض هذه الاحتفالات تعقد في نهاية كل اسبوع او بشكل متواتر خلال تواريخ محددة .

كانت اعمال السباق تتم بين الخيل وبين البغال والحمير والجمال وكان الناس يتراهنون ويكسبون الاموال او يخسرونها نتيجة لذلك وهذا مادفع بعض الفقهاء الى مناقشة موضوع الحلال والحرام وموقف الدين من قضايا المراهنات[(٢)].

ولم يتفرغ جمهور المشاهدين لروية المتسابقين من الفرسان او سواهم بل جلب بعضهم بضائع ليبيعها للجمهور المحتشد او بعض الحيوانات لتقوم بألعاب وعروض بهلوانية يكسب منها واهم هذه الحيوانات كانت التيوس والقردة وكان الفرسان يقومون اثناء الاحتفالات باستعراضات و

---

(١) : محمد بن ابي بكر الزرعي (ابن قيم الجوزية) الفروسية ،طبعة مصورة دار الكتب العلمية بيروت ، ص ٢-٥ .
- احمد بن محمد الحموي - النفحات المسكية في صناعة الفروسية ط، بغداد ١٩٥٠ - ص ١٣ - ١٥

(٢) : ابن قيم الجوزية ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ - ٢٩
- الحموي ، المصدر نفسه ، ص ١٤- ١٧، ٣١ - ٣٧
- مؤلف مجهول ، السيف والرمي ،نشر في مجلة المورد البغدادية ، المجلد الثاني عشر ، العدد الرابع ،١٩٨٣ ص ٣٩١- ٣٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومبارزاة قتالية بالسيوف والرماح وكان بعضهم يقوم باظهار براعته ومهارته في ركوب فرسين او في القفز من الارض الى ظهر الفرس وغير ذلك من اعمال بهلوانية تثير حماس الجمهور ، وعبر بعض الفرسان عن اتقانهم لاستخدام السيوف بان قاموا اثناء الاحتفالات برمي مناديل حريرية الى الهواء وقطعها بالسيف او قطع قطع من الورق او الكباد او وسائد محشوة بالقطن ، وكان بعض الفرسان والجند يظهر براعته باستخدام السكاكين والخناجر والمزاريق والفؤوس او بالرمي بالنشاب ، فقد كان الناس يتبارون برمي النشاب توضع لهم دريشة يرمون عليها وكانت الدريشة تسمى بالقرطاس أو يوضع مادمي باسم البرجاس للرمي عليه وهو أشبه باسطوانة محفوفة كان على الرماة اظهار براعتهم بتمرير رماحهم ونشابهم من خلالها(1).

لاشك ان الاستعراضات العسكرية والمواكب واعمال السباق والجريد قد استنفذت جزءا كبيرا من اوقات الناس وشغلت حيزا عظيما من اهتماماتهم وأقبل عدد كبير من الشعب على اقتناء الخيول والعناية بها او اقتناء بعض الحيوانات للسباق او أعمال اللعب والتسلية .

واستعراضات الفروسية لم تكن ابدا عملا اختص به اهل المدن بل شارك في هذه النشاطات في المدن وخارجها سكان الارياف والبدو ، واعتنى البدو كما سكان الارياف بالخيول العربية الاصيلة واهتموا بنقاء انسابها وهذا تقليد مازالت بلاد الشام متميزة به .

وارتبط بأعمال الفروسية أعمال الصيد ورمي البندق ، وكان رمي البندق قد اخذ يزاحم رمي النشاب على مكانته ، والصيد رياضة مارسها الامراء والحكام والجند وكذلك افراد الشعب ، وعندما ما نستعرض ما كتبه اسامة بن المنقذ في كتاب الاعتبار نجد ان الناس كان يهتمون بأعمال الصيد ومحطاته وكانت هناك في بعض الاحيان حملات جماعية للصيد .

---

(1) : الحموي ، المصدر نفسه ، ص ٦١ - ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحكى لنا ابو الفداء (١) بعض ماحدث معه اثناء رحلات الصيد واصطياد الناس الطيور والحيوانات المفترسة واحتفلوا بذلك وعدوه نوعا من اعمال الفتوة والفروسية .

ان طبيعة الحياة في العصرين الايوبي والمملوكي وغلبة السمة العسكرية عليها أوجدت نوعا من انواع التنافس بين الفئات المدنية والعسكرية ولم يقتصر هذا التنافس في التعبير عن نفسه في اقدام المدنيين على تشكيل تنظيمات لها السمة العسكرية كما سلف ورأينا بل عبر المدنيون عن هذا التنافس أدبيا فكتبوا رسائل جاءت بمشابة مقامات او مناظرات بين السيف والقلم ووصلنا من هذه المناظرات رسالة السيف والقلم للمؤرخ ابن الوردي عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ) وواحدة اخرى حملت العنوان نفسه لابن نباته المصري محمد بن محمد (ت ٧٦٨ هـ) وقراءة هذه الرسائل تعطي المرء انطباعا واضحا عن صراع بين فئتين اجتماعيتين واحدة وهي المدنية مثلت الكتلة الكبرى وثانية وهي العسكرية مثلت الكتلة الاصغر انما الاشد بطشا وفي هذا الصراع ابدى كل فريق حججه التي تبرهن على افضليته وعندما كان السيف يفقد الحجة يلجأ الى التهديد باستخدام القوة (٢).

---

(١) : De Planhol, The world of Islam, New York , 1959 P.P. 9 - 12.

(٢) : جرى نشر هاتين الرسالتين في مجلة المورد البغدادية ، المجلد الثاني عشر - العدد الرابع ١٩٨٣ ، ص ١١٣ - ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتدخل السيف في رسم عدد كبير من صور الوقائع الاجتماعية ، والسيف عادة يرسم بالدم ، يرسم صورا قبيحة وموءذية لكن المؤرخ عليه ان يتتبع جميع الصور ولذا تم البحث في صور العقوبات في العصرين الايوبي والمملوكي والتعرف بالوقت نفسه الى الاماكن التي كانت تنفذ فيها العقوبات ، ففي غالب الاحيان استهدفت السلطة من وراء تنفيذ العقوبات ارهاب الشعب واشغاله اكثر من تطبيق القانون واحقاق الحق ،وغالب العقوبات في العصرين الايوبي والمملوكي كانت شديدة غير انسانية وزاد في بشاعتها انها نفذت على مرأى ومسمع من جميع افراد المجتمع وعلى هذا باتت عمليات القصاص أشبه بطقوس دموية منها تنفيذ اوامر الشريعة ، وتنوعت العقوبات في العصرين الايوبي والمملوكي وكان اشهرها : الصلب ، والشنق والحرق ، والتوسيط ، والتسمير ، والتعليق بالكلاليب ، او ضرب الاعناق ، والخوزقة ،والتجريس ، والترسيم.

والصلب عقوبة قديمة عرفها المجتمع العربي منذ اقدم العصور ، وكان الصلب اما حتى الموت او فقط للتعذيب ، لكن غالبا ما كان حتى الموت ونقرأ في القرآن الكريم " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم[1]" ، وقوله أيضا " لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين [2]" وقوله "ولأصلبنكم في جذوع النخل[3]" . وكانت هذه العقوبة تجري في دمشق وغيرها من بلاد الشام فتطبق ضد الموتى وضد الاحياء ، وكان المصالبون يصلبون على شرفات سور المدينة او على شرفات أحد ابوابها الكبار[4].

---

(١) - سورة النساء : الاية ١٥٧

(٢) - سورة الاعراف : الاية ١٢٤

(٣) - سورة طه : الاية ٧١

(٤) - ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٥ - ٤٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقامت السلطات الايوبية بالصلب احيانا داخل اسواق دمشق فقد ذكر ابن كثير في حوادث سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م ان رجلا اعجميا ادعى في دمشق انه عيسى بن مريم فأمر نائب القلعة بصلبه فصلب خارج باب الفرج الى جانب حمام العماد(1). وذكر ابو شامة في حوادث سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ان رجلا كان اسمه ابن الدخيتة مات في السجن وكان قد تولى اصدار عملة مزيفة وبعد وفاته (صلب ميتا على قيسارية الفرش يوم السبت الثامن والعشرين من رجب ،وأنا رأيته مصلوبا وعمري يومئذ ثماني سنين ودخلت في التاسعة اللهم استر في الدنيا والاخرة)(2).

وذكر ابو شامة ايضا في حوادث سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م، ان الملك الايوبي المعظم صلب (في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الاخضر شمس الدين بن الكعكي رأس حزب ، وخلفه جماعة ورفيقا له منكسين على رؤوسهم ، وكانوا ينزلون على الناس في البساتين ويقتلون وينهبون والمعظم في الكرك ، وبلغه ان ابن الكعكي قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل وكان صاحب بصرى : انا اخذ لك دمشق ، فكتب الى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي ورفيقه منكسين ، فصلبهما في العشر الاواخر من رمضان فاقاما آياما في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما ، ولايقدران على طعام ولاشراب الى ان ماتا ، مات ابن الكعكي اولا وكان يستغيث كثيرا ويقلق وكان رفيقه أجلد منه وأصبر وكان رجلا خياطا آدم اللون وقيل انه كان بريئا مما رمي به . فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه وكان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة وله أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية)(3).

---

(1) – ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٩.

(٢) – عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، ذيل الروضتين ،ط .بيروت ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .

(٣) – ابو شامة ، المصدر نفسه ، ص ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ايام الحكم المملوكي صار سوق الخيل تحت القلعة من جهة الشمال اعظم اماكن النشاط المملوكي في دمشق ولاتساع الاعمال فيه وكثرة من كان يطرقه من الناس من مختلف الفئات بات اشبه بالساحة الرئيسية بدمشق لذلك جعل مكانا لتنفيذ العقوبات ففي سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م جاء مرسوم من السلطان في القاهرة باعتقال جميع اهل الذمة العاملين في الدواوين والكتابة وطلبهم على ان يعفى من الطلب من اعلن دخوله بالاسلام ، فالاسلام يجب ماقبله ، وجلب هؤلاء وجعلت الحبال في اعناقهم وشرع الجند في شدهم وهنا أعلنوا عن دخولهم بالاسلام فكتب محضر بذلك وأطلق سراحهم(١)، ووصف لنا ابو شامة أيضا بعض حوادث الشنق في عصره فقال انه في سنة ٦٠٥هـ /١٢٠٨م (دخل عند الاذان في السحر مملوك افرنجي كان لفلك الدين سليمان وكان سكران الى مقصورة الخطابة وفي يده سيف مشهور ضرب به جماعة مات منهم اثنان او ثلاثة ووقعت بعض الضربات من جانب المنبر فاثرت فيه والناس مجتمعون لصلاة الصبح وعملت في ذلك أشعار وكان يغنى بها في الاسواق وسمعتها وانا صغير احفظ منها :

مقصورة الخطيب طلب	والناس ولوا الهرب
في جانب المنبر ضرب	بالسيف حتى انكسر

ثم قبض عليه وترك بالبيمارستان ، وشنق بجسر اللبادين آخر النهار ولم يكن على الجسر ذلك الزمان هذه العمارة ، بل كان على حافته الشرقية درابزين يدلى المشنوق فيه الى الطريق المسلوكة بجيرون فيراه الناس في الطريق كما يرون المارة بالجسر المذكور(٢).

---

(١) - ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج ١٣، ص ٢٩٤

(٢) - ابو شامة ، المصدر نفسه ، ص ٦٤:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر ابو شامة في حوادث سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م أن رجلا من أهل قرية تل منين اغتال واحدا من كبار تجار دمشق كان (قد عاينه باع شيئا واستوفى ثمنه) وبعدما القي القبض على القاتل شنق بين الميدانين [١]. وفي العصر المملوكي صار المكان الذ بني فيه جامع يلبغا مقرا لتنفيذ عمليات الشنق حتى انه صار يعرف باسم تل المشنقين [٢]. ونفذت اعمال الشنق ايضا في اماكن اخرى في دمشق وحدثنا ابن طولون انه في سنة ٩٠٥ هـ/ ١٤٩٩ م شنق احد المماليك قرب مئذنة الشحم ، كما وذكر في حوادث السنة التي سلفت تلك السنة ان نائب دمشق أمر بشنق واحد من زعر الصالحية فعلق بشجرة قرب دار السعادة وشنق وفي سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢ م سرق رجلان رأسين من المواشي بعد ذبحهما فقبض عليهما وشنقا على باب الحانوت الذي سرقا منه ، وفي هذه السنة نفسها اتهمت امرأة بخنق طفلة صغيرة في محلة السويقة ودفنتها في بيتها وبعدما كشف امرها ، امر النائب بشنقها على رأس زقاقها وبعد موتها انزلت والحبل حول عنقها وسحبت في الازقة ثم دفنت بعد ذلك ، هذا وأورد ابن طولون اخبار بعض حوادث الشنق الاخرى التي تمت في أيامه [٣] .

كان الحرق من العقوبات التي عرفها عالم العصور الوسطى وغالبا ما ارتبط الحرق بالامور الدينية ، وكان الحرق ينفذ في دمشق في منطقة سوق الخيل تحت القلعة الى الشمال وكانت هذه المنطقة تمتد من التلة التي اقيم عليها جامع يلبغا حتى منطقة

---

(١) - ابو شامة ، المصدر نفسه ، ص ٢١٦.

(٢) - ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج ١٤ ، ص ٢٢٠- ٢٢١.

(٣) - ابن طولون ، المصدر نفسه (مفاكهة)ج ١ ، ص ٢١٣ - ٢١٤، ٢٢٥ ، ٢٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المناخلية عند باب الفرج في دمشق اليوم ،ومن حوادث الحرق التي اتى على ذكرها المؤرخون ماورد عند ابن كثير أنه في سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م ألقي القبض على نصراني متلبسا بجريمة الزنا والدعارة جالسا مع امرأة مسلمة يشرب معها الخمر وكان الموسم شهر رمضان فحملا الى نائب السلطنة فأمر باقامة الحد على المرأة فجلدت اما الرجل فأمر نائب السلطنة بتحريقه ، فأحرق بسوق الخيل(١). وقد وصف لنا الغزي كيفية الاحراق .

اثناء حديثه عن القاء القبض على محمد بن سيف الدين الدمشقي وكان قد ناب في القضاء عن قاضي القضاة ابن الشحنة وغيره ، ثم ثبت فيما بعد انه رافضي فحرق في رجب سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م مع رجل آخر كان على مذهبه حيث جيء بهما فربطا من رقبتيهما وايديهما وارجلهما وشدت الحبال في أوتاد ثم القي حولهما القنب والحطب وكتل من القصب والمواد السريعة الاشتعال وبعد هذا أطلقت النار فاحترقا حتى صارا رمادا ثم القي برمادهما في نهر بردى(٢).

أما التوسيط فكان غالبا ما يعاقب به أصحاب الجرائم السياسية ، او ماعرفوا باسم الخارجين على السلطان فقد كان يعتقل المتمرد ثم يؤتى به فيربط الى لوح خشبي ويوضع على ظهر دابة ويشهر به في الاسواق وبعدما تنتهي عملية التشهير التي غالبا ما تترافق مع عمليات انزال انواع من العذاب كان هذا المعتقل يؤخذ الى منطقة سوق الخيل وهناك يعدم توسيطا أي يقطعه بضربة سيف في الوسط ، ففي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ركب نائب السلطان بدمشق ومعه مجموعة من مقدمي الامراء والجند واجتمعوا في سوق الخيل وبعدما اكتمل الاجتماع تم استدعاء

---

(١) - ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج ١٣ ،ص ٣١٢.

(٢) - نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ط . بيروت ١٩٤٥ ، ج٢ ، ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مملوكين كانا من مماليك الامير تنكز فأمر بتوسيطهما فعلقا على الخشب ووسطا ونادى مناد عليهما هذا جزاء من خرج على السلطان وتجاسر عليه(١). وفي سنة ٧٥٠ هـ /١٣٤٩م اعتقل الامير سيف الدين الجيبغا بن عبدالله المظفري لقتله واحدا من الافراد اسمه ارغون شاه وبعد اعتقاله أقر أن الامير فخر الدين ايباس بن عبدالله الناصري قد وافقه على قتل أرغون شاه فاعتقل هذا الاخير أيضا وجرى توسيطهما داخل سوق الخيل بنفس الطقوس المعتادة ، وفي بعض الأحيان جرت هذه الطقوس ونفذت تجاه اسطبل دار السعادة(٢).

أما ضرب الاعناق لعقوبة مازالت تاخذ بها بعض الدول حتى الان وغالبا ما استخدم السيف لتنفيذ هذه العقوبة ، واستخدم الفأس (البلطة) في بعض الاحيان ، والاعدام بالسيف يعرف في العربية باسم (القتل صبرا) ، ففي سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م جرى اعتقال ناصر بن الشرف الهيتي وكان قد اتهم بالكفر نتيجة لمحبته بعض من اتهموا بالزندقة حيث اظهر الاستهانة بآيات الله لذلك تقرر اعدامه وقد حضر جلة علماء دمشق بما فيهم ابن تيمية وابن كثير نفسه مع رجالات البلد وأعيان الدولة عملية الاعدام وشهدوا سياف النائب يضرب عنقه ، وفي سنة ٧٤١هـ /١٣٤٠م ضربت في سوق الخيل أيضا عنق رجل اتهم بالزندقة والردة عن الاسلام(٣).

أما التعليق بالكلاليب فهي عقوبة استخدمت لردع اللصوص والحرامية والمناسير وقطاع الطرق وهي جاءت مرافقة او بديلة لعملية الخوزقة وقد حدثنا ابن طولون عن خوزقة رجل من زعسر دمشق وعن بنت خطا كانت جارية احترفت البغاء(٤).

---

(١) - ابن كثير، المصدر نفسه ،ج١٤ ، ص/١٨٨.
(٢) - ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص:٢٤٥.
- ابن طولون ، المصدر نفسه (مفاكهة) ج ١ ، ص:١٥٣ ، ١٨٦.
(٣) - ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج ١٤ ، ص ١٢٢ ، ١٩٠ .
(٤) - ابن طولون ، المصدر نفسه (مفاكهة)ج ١ ، ص:١٢ ، ١٠٨، ٢٢٠، ٢٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتسمير هي عقوبة تشبه عقوبة الصلب فقد كان يؤتى بالمعاقب وبدلا من أن يربط الى لوح من الخشب كانت اعضاؤه تسدق بمسامير غلاظ وظلت هذه العقوبة معمول فيها بدمشق حتى العصر العثماني حيث ذكرها البديري الحلاق في يومياته عن حوادث دمشق(١).

اما التجريس فهو نوع من انواع التشهير وكثيرا ما أركب المعاقبون على حمار بالمقلوب وطلي وجهه بالسواد وطيف به.

واما الترسيم فيشبه ما ندعوه في ايامنا هذه باسم الاقامة الجبرية ، وغالبا ما كانت هذه العقوبة تتخذ ضد بعض الموظفين من كبار رجالات الدولة الاداريين الذين تولوا مع العمل الحكومي النظر ببعض الاعمال الدينية مثل الاوقاف وماشابه ذلك، وكانت هذه العقوبة تقضي بالاقامة الجبرية ليس داخل منزل المعاقب وانما في احدى المدارس ، فقد ذكر ابن كثير في حوادث سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ان الاوامر جاءت من القاهرة بالقاء القبض على ناصر الدين محمد بن المقدسي وكان وكيل بيت المال وناظر الخاص والاوقاف ، وحقق معه فوضح انه اختلس اموال الاوقاف وغيرهما، فرسم عليه بالاقامة بالمدرسة العذراوية(٢) .

ولم يذكر لنا ابن كثير كم طالت مدة الاقامة الجبرية ؟ وهل تلاها العفو ام انزال قصاص اشد ؟

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل هو الحديث باختصار عن الملابس في العصرين الايوبي والمملوكي ، فالملابس من حيث المظهر العام لها دلالاتها الاجتماعية العامة ، فالبذخ وجودة الاقمشة والابهة

---

(١) - احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ط . القاهرة ،بلاتاريخ ص ١٧١ .

(٢) - ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص :٣١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تدل على ان مكانة المرتدي لمثل هذه الملابس عالية وكانت ثرواته كبيرة والعكس صحيح فبساطة الملبس قد تدل على اما على الزهد او على ان صاحب الملبس البسيط كان فقير او متوسط الحال وكلما ساء نوع الملبس كلما كانت له دلالاته كما ان صنع اللباس من حيث الطول والعرض والضيق والالوان كل هذا له موشراته الاجتماعية ففيه مايدل على تذوق الناس في فترة من الفترات وتحوي مختلف مصادر العصرين الايوبي والمملوكي اشارات عديدة يمكن من خلالها استخلاص اوصاف ملابس رجالات هذين العصرين لكن رجال السلطة من سلاطين وامراء وقضاء ورجال دين فقط ، أما ألبسة عامة الناس فالموءرخ الذي لم يشر الا عرضا لنشاطات عامة الناس ، لم يشر مطلقا الى البستهم ، ومن مزايا هذين العصرين وبخاصة العصر المملوكي كثرة المنمنمات التي حوتها بعض المخطوطات الادبية والتاريخية والعسكرية وفي هذه المنمنمات تتعزز لدينا ملامح ملبوسات اعيان العصرين الايوبي والمملوكي ونظل نبحث عن ملابس افراد الشعب فلا نجد ما نبتغيه .

وصحيح قد قيل الناس على دين ملوكهم وقد يصح هذا الكلام على بعض جوانب الحياة الا على الملابس في ظل انظمة الاقطاعيين العسكري والديني حيث حرم الشعب من قوته وذاق طعم القهر والحرمان والاستقلال باستمرار ودونما شفقة .

وهناك بعض الدراسات تناولت الالبسة الاسلامية في هذه الفترة بشكل عام والبسة العصر المملوكي بشكل خاص (١).

---

(١) – من الكتب التي استطعنا الوقوف عليها كتاب الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي تأليف الدكتور صلاح حسني العبيدي ط . بغداد ١٩٨٠ والملابس المملوكية تأليف ل . آ. مايــر ترجمة صالح الشيتي ط . القاهرة ١٩٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان على رأس السلطة في بلاد الشام في العصر الايوبي السلاطين الايوبيين ، اما في العصر المملوكي فرسميا كان الخليفة العباسي في القاهرة هو رأس السلطة يليه السلطان ثم رجالات الدولة من عسكريين ومدنيين ، والالبسة المملوكية هي امتداد موروث عن الالبسة الايوبية ووصف هذه الالبسة العام هو نفسه اللهم باستثناءات بسيطة تعلقت بدرجة البذخ والالوان واتساع الثوب وقصره وضيقه.

بالنسبة للخلفاء في القاهرة يفترض ان ملابسهم هي استمرار لملابس خلفاء بغداد فشعار خلفاء بغداد كان السواد وقد تبنى هذا الشعار خلفاء القاهرة وظهر في غطاء الرأس أي في العمامة والقباء ، فالعمامة التي كان يضعها الخليفة على رأسه كانت سوداء تميزت بأنه كانت لها عذبة تتدلى خلف الظهر بشكل واضح وكان الخليفة يرتدي ثوبا أكمامه ضيقة فرجية او كاملية سوداء(١).

وقد يكون القباء الذي يرتديه الخليفة قد داخل نسيجه بعض الخيوط الذهبية او خيوط ملونة اخرى والقباء بالاصل ينسج اما من الصوف أو من القطن أو الكتان وقد يبطن بالفرو الثمين جدا(٢) ، وفي العصر الذي حكم فيها سلاطين الجراكسة تبدلت البسة الخليفة وصارت تشبه البسة كبار المماليك(٣)، اما السلطان فقد تميز عن غيره من قادة الجند بشعار السلطنة فجميع السلاطين في العصرين الايوبي والمملوكي كانوا عسكريين انحدروا من أسر عسكرية ولذلك تميزوا بالبستهم بما تميز به الجند بالبستهم عن المدنيين وكان السلطان شعاره عمامة سوداء وجبة سوداء مع حزام (حياصة) مذهب

---

(١) - القلقشندي ، المصدر نفسه (صبح) ،ج ٣ ، ص :٢٧٤-٢٧٧

(٢) - القلقشندي ، المصدر نفسه (صبح) ، ج ٣ ، ص :٢٧٧

- جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ،ط ، القاهرة ١٣٢٧هـ ، ص : ١٧٠.

(٣) - محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٨٤ ، ج٣ ، ص :١٦٤.

- القلقشندي ، المصدر نفسه (صبح) ،ج٤ ، ص ٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستخدم كحمائل للسيف الذي كان بدوره قرابه مذهب وكذا مقبضه وحتى الذهب صب في متنه .

ولعل من اهم مزايا العصرين الايوبي والمملوكي الاهتمام الزائد للسلاطين ولنوابهم وكبار قادتهم بمظاهر الأبهة والبذخ غير المحدود على الالبسة والخيول ومعدات القتال والخيم والقصور فقد حدثنا المقريزي عن بناء احد القصور حيث قدم وصفا لبعض الاثاث الذي وضع فيه بعض وسائل الزينة فذكر انه نسج له حصير واحد طوله اربعين ذراعا وكلف هذا الحصير اربعمائة الف درهم وأجمل المقريزي حديثه بقوله :

" وكان جملة المصروف على هذا القصر اربعمائة الف الف وستين الف درهم من ذلك لازاورد خاصة بمائة الف درهم "(1)، واقيم حفل في هذا القصر وقام السلطان بالانعام على كبار معاونيه فانعم لعشرة أزواج بسط من الحرير وعدة اواني من البلور وعدد كبير من الخيول والجمال وبعدما أكل الجميع وشربوا (خلع السلطان على احد عشر امير احد عشر تشريفا أطلس وأركبوا الخيول بسروج الذهب ، وخلع على بقية الامراء مابين خلع كاملية واقبيه وأركبوا ايضا الخيول المثمنة بسروج الذهب والفضة على قدر مراتبهم(2)، ووصف لنا المقريزي هدية من الهدايا السلطانية تالفت من سروج من الذهب والفضة وركب من الذهب ولجم ايضا . وبعض السرج رصعت بالجواهر وعدد من السيوف المرصعة والمذهبة وحياصة من الذهب المرصع وستمائة كساء من القماش الثمين(3)، واسرف السلاطين في استخدام الفراء وكانت كل قطعة فراء تكلف مبالغ عالية جدا ربما تزيد على الالف دينار واستخدم الفراء كوسيلة

---

(1) - المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك)ج٢،ص :٤٥٣.

(2) - المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ج٢، ص :٤٥٣.

(3) - المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك)ج٢ ، ص ٤٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتزيين الملابس وتبطين ماخص منها لفصل الشتاء ، وكان بعض السلاطين يدخل شيئا من التعديلات في زيادة الابهة والسرف والبذخ . وكانت ملابس العلماء ايضا خاصة القضاة منهم ثمينة جدا وتباهى هؤلاء بازيائهم واعتمد كثير منهم على المظهر الخارجي كوسيلة من وسائل الهيبة وفرض الوقار ، ونقل السيوطي وصفا لملابس القضاة والعلماء في أيامه وقبلها فقال (واما القضاة والعلماء فخلعهم من الصوف بغير طراز فلهم الطرحة ، واصل الصوف ان يكون ابيض وتحته اخضر ، وأما زي القضاة والعلماء فدلق متسع بغير تفريق فتحته على كتفه وشاش كبير منه ذؤابه بين الكتفين ويميلها الى الكتف الايسر أما من دون هؤلاء فالفرجية الطويلة الكم بغير تفريج والذؤابة ايضا يميلها الى الكتف الايسر ومنهم من يلبس الطيلسان واما قاضي القضاة الشافعي فرسمه الطرحة وبها يمتاز ومراكبهم البغال ويعمل بدلا من الكنبوش الزناري ،وهو من الجوخ بالعباء المجوفة الصدر مستدير من وراء الكفل والبسة الخطباء دلق مدور اسود للشعار العباسي وشاش اسود وطرحة سوداء.[(١)]) .

هذا بالنسبة للرجال من المماليك والقضاة والعلماء . اما بالنسبة لنساء هذه الفئات فاعتمدت ايضا على البذخ وكانت المرأة تلبس قميصا من قماش رقيق كشف ماتحته وفوق القميص رداء اسمه الفوقانية وأولت نساء ذلك العصر الاثارة اهتماما كبيرا لذلك اسرفن في الاقمشة وتوسيع اكمام الثياب[(٢)] ، وأيضا اولت النساء السراويل من حيث اللون والطول والقصر وشكل التكة ونوعية الجواهر والحلي المستخدمة عناية كبيرة ، كما كانت النساء يلبسن طواقي مرتفعة فوق رؤوسهن ، اما الاحذية فكانت متنوعة منها ماصنع من الجلد الملون ليستخدم خارج

---

(١) - السيوطي ، المصدر نفسه ،ج ٢ ، ص ١٧٠.

(٢) - محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ط. بيروت ١٩٣٦ ،ج ٩ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البيت ومنها انواع صنعت لتستخدم داخل البيت ، وفي داخل البيت يبدو ان المرأة اهتمت بلبس القبقاب اكثر من لبس الحذاء والقباقيب كانت تصنع من الخشب وكانت تزخرف وترصع فالقبقاب كان يطيل المرأة ويمكن من ظهور مفاتن ساقيها وقدميها واطراف سراويلها ، ويروى ان النساء بنات الخطا كن يلبسن السراويل الحمر(٢). ووضعت بعض النساء اقنعة مختلفة الالوان والاحجام حول الوجه ، لكن هذا لم يمنع ان النساء كن يظهرن سافرات الوجوه في الشوارع والاماكن الهامة اثناء الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة(٢).

---

(١) - المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ،ج١ ، ص :٨٠٢.

(٢) - ماير ، المرجع نفسه ، ص : ١٢٣ - ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الرابع "

الفلاحون - البدو

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصل الرابع "

الفلاحون - البدو

سلف وقلنا في مطلع الفصل الثاني :

غالبا ما امتزجت الكتابات المعاصرة فيها المفاهيم الاجتماعية بالاقتصادية بالثقافية الشعبية لكن مع تطور علم التاريخ بات التمييز أمراً مطلوباً ولقد رأينا ان كثيرا من العلماء لايفرقون بين التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي فهم لايعدون الاقتصاد الا مظهراً من مظاهر متعددة للنشاط الانساني بل يعتبرون النشاط الاقتصادي اهم اقسام الحياة الانسانية (١).

في الحقيقة للاقتصاد أبعد الاثار وأخطرها على الحياة الاجتماعية وفيما يتعلق ببلاد الشام ، لقد تحكم المناخ وكمية الامطار والبنية الجغرافية بالحياة الاقتصادية لهذه البلاد ، يقول النويري : (ان قانون البلاد الشامية مبني على نزول الغيث ووقوع الامطار في أبانها واوقات الاحتياج اليها (٢)) .

والمستعرض لصورة البنية الجغرافية لبلاد الشام انطلاقا من الغرب أي من ساحل البحر المتوسط يلاحظ اولا وجود سهل ساحلي ضيق ثم يتلوه سلسلة جبلية ممتدة من الشمال الى الجنوب وقفت حاجزا بين هذا السهل والمناطق الداخلية وبعد هذه السلسلة الجبلية قامت مجموعة وديان الانهار الشامية الكبرى الاردن وبردى

---

(١) : انظر ماسلف في الصفحة (١١٢)

(٢) : احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، طبعة مصورة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي - القاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعاصي وقويق وفي هذه الوديان قامت مدن الشام الكبرى وهي التي اسهمت اكثر من سواها في صنع تاريخ بلاد الشام من جميع الاوجه ، وعلى حافة هذه الوديان قامت مناطق البادية الشامية وسهوبها ومفازاتها الواسعة وارتبط مع هذا التقسيم ارتباطا مباشرا كميات الامطار التي تهطل عادة في بلاد الشام فهي في السهول الساحلية كثيرة وهي ايضا غزيرة فوق الجبال انما كلما اتجهنا شرقا انخفضت كميتها حتى الندرة وهكذا تضافرت البنية الجغرافية مع المناخ فرسمت التشكيلة الاجتماعية لبلاد الشام ، فعلى الساحل قامت عدة مدن استغلت الامكانات الزراعية لكن وجهتها كانت دوما نحو البحر ومجتمعها مجتمع بحري متوسطي .

وفي الجبال الوعرة قام نمط من الحياة الخاص والذي غالبا ماتلون بألوان عقائدية زادته تمييزا ، اما في وديان الانهار فقامت المدن الكبرى مثل القدس ودمشق وحلب وحمص وحماة ، وعرفت هذه المدن نمط الحياة المستقر الذي اعتمد على التجارة والحرف والصناعة والزراعة المروية وارتبط به مباشرة مناطق الريف بقراها الكثيرة التي اعتمد سكانها على الزراعات البعلية وأعقب هذا البداة الذين اعتمدوا حياة الترحال فاعتنوا بتربية المواشي واسهموا اسهامات كبيرة في الحياتين السياسية والعسكرية وقدموا زادا بشريا ودما جديدا بشكل مستمر لسكان الارياف والمدن .

ومع هذه البنية الجغرافية والمناخية لابد من الاشارة الى مافرضه الموقع من مؤشرات فبلاد الشام ذات موقع متوسط متميز هي مرتبطة بأوربة عبر آسيا الصغرى وعبر البحر المتوسط وهي أيضا مرتبطة ببلاد الرافدين والمشرق ، اما من الطرف الاخر فهي وثيقة الصلة بشبه جزيرة العرب وبمصر فالقارة الافريقية ، وعلى هذا تبادلت المؤثرات مع مختلف بلدان العالم ، لقد كانت وما زالت جسرا عبرت عليه الحضارات وبوتقة التقت فيه المزايا

والمؤثرات الانسانية فأعادت تركيبها ومن ثم توزيعها الى مختلف بقاع الارض ولاشك ان هذا كله قد أوجد بعض التمايز بين منطقة واخرى حسب الجوار لها.

ان هذا لايعني البتة ان بلاد الشام عرفت انماط اجتماعية متنافرة او كما يذهب بعضهم انماط عرقية مختلفة ، لقد عرفت مجتمعا عربيا سماته العامة عربية انما لكل فرد منه او جماعة لون جذاب واجتماع الالوان يعطي للمجتمع العربي في بلاد الشام الحيوية والتدفق المستمر والابداع والتجديد وامكانات التاثير في كل مجتمع في داخل ديار الوطن العربي وما جاوره .

من هنا نجد ان قبائل عربية كثيرة قطنت في الساحل والجبال والمناطق الداخلية مثل قبائل كلب وأيضا قبائل كلاب فأعداد كبيرة من سكان الجبال لازالوا حتى الان ينتمون لقبائل كلب ومشهور الدور الذي شغلته هذه القبائل في تاريخ بلاد الشام قبل الاسلام وبعده حتى عقب العصر الايوبي .

وهنا لابد من التذكير ان النظام القبلي بصيغة العربية اعتمد في جميع أرجاء بلاد الشام من البادية حتى السواحل، وسلف ان رأينا ان بعض المؤرخين في العصر المملوكي اعتبروا نشاط الزعر والحرافيش نوعا من انواع العصبيات القبلية فبين محتويات دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوط كتاب صنفه يوسف بن عبد الهادي وهو بخط يده حمل عنوان كتاب الهوى والذعر في أحول الزعر والعصبيات ومايحصل في ذلك من الفتن والسيئات (١)

---

(١) : الظاهرية رقم ،٣٢٤٣، أدب ، ان خط هذا الكتاب على درجة من السوء تجعل قراءته شبه مستحيلة ، فنحن غير متأكدين من صحة الجزء الاخير من العنوان وقد بذلنا كل جهد ممكن للافادة من محتواه فكانت المحصلات لاتكافيء جزءا يسيرا من الجهد المبذول .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان قوام الحياة الاقتصادية في بلاد الشام هو الزراعة ، والباحث في هذا المجال وفي تاريخ استغلال الارض وملكيتها يجد دوماً ان الدولة هي المالك الاكبر ويليها الموءسسات الدينية أي تقاسم المعبد والقصر امتلاك الارض ولذلك وقعت على عاتق الدولة أعمال فتح القنوات واستصلاح الاراضي وبناء الجسور وانشاء السدود واقامة النواعير ، وبما ان الدولة هي السلطان الاكبر فقد انعكس طغيانها واستبدادها على حياة العاملين في الارض والمرتبطة حياتهم بالانتاج الزراعي صناعة او تجارة ، وفي كثير من الاحيان كان طغيان الدولة سبباً في قيام بعض الحركات والثورات ودفع بالعاملين بالارض الى هجرها الى المدن .

والدولة في العصرين الايوبي والمملوكي كانت دولة عسكرية أعطيات جندها ارتبطت بالارض وهو ما عرف باسم الاقطاع العسكري .

لاشأن لنا في البحث بتاريخ الاقطاع العسكري وتطوره والاصلاحات التي أدخلت عليه ، والذي يهمنا ذكره ان الجند اهتموا بالحصول مايكفي نفقاتهم وزيادة. سواء أبقي للفلاحين شيئاً أم لم يبق ،ولحسن الحظ دون النويري في كتابه نهاية الارب أفضل المواد المعروفة حتى الان من الاوضاع الزراعية وأحوال الفلاحين في العصر المملوكي(1).

سنجد انفسنا والحديث عن الفلاحين نبحث امراً اجتماعياً ممزوجاً بشكل لايمكن فصله عن الاحوال الاقتصادية . كانت الزراعات في بلاد الشام مروية او غير مروية (بعل) ، وأشهر المناطق التي قامت بها الزراعات المروية كانت غوطة دمشق وقد ابدع الدمشقيون وسائل للري على درجة عالية من التقدم فهم لم يكتفوا بتوزيع مياه نهر بردى الى عدة انهار تروي

---

(1) : النويري ، المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص: ٢٥٥ - ٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مختلف مناطق دمشق وضواحيها وغوطتها ، بل أبدعوا طرائق لرفع المياه حتى يمكن ارواء اي منطقة بالراح[1]. وانتجت غوطة دمشق مختلف انواع الخضار والفواكه وخضعت كما خضع غيرها من مناطق بلاد الشام لنظام الاقطاع والاوقاف ، والزراعة في بلاد الشام غالبا ماكانت صيفية وشتوية وقليل منها خريفي ، واحتلت الشتوية المكانة العليا لأنها انتجت الحبوب بمختلف انواعها وانتجت الصيفية القطن والذرة والسمسم والرز والفول وبعض الخضراوات والفواكه .

كان على الفلاح حراثة الارض منذ مطلع الخريف خاصة بعد نزول بعض الامطار الخفيفة كما توجب عليه اعداد او شراء ادوات الفلاحة من محراث وغيره ، وحيوانات الفلاحة ، وهو الذي كان يقوم بالبذار وحماية الحقول والاراضي المزروعة حتى لايتطرق اليها انسان او حيوان ، وفي كثير من الاحيان دفع الفلاحون حياتهم مقابل حراسة حقولهم ، فكان هذا الفلاح المسكين الاعزل يواجه غارات البداة وغارات الجيوش الغازية واذا كان يسكن في الاطراف يتحمل اعباء التدمير المتعمدة من قبل الصليبيين وغيرهم ، كما ان الاراضي المزروعة غالبا ما كانت مسارح للعمليات الحربية وان نجت من هذه العمليات لم تنجو من حملات الصيد في مطلع الربيع وبداية الصيف فاذا ماسلمت الارض وسلم له الحقل يبدأ بالحصاد ثم (بالرجاد) نقل المحاصيل الى البيادر ، واثر تجمع المحاصيل في البيادر يتولى درسها ثم التذرية واعمال التنظيف ، كان الفلاح المسكين يعمل هو وزوجه واولاده صغارا وكبارا في هذا السبيل المضني ، وذلك تحت اشراف وكلاء الاقطاع والديوان ورجال السلطة ، الذين كثيرا ما اعتدوا على الفلاح فابتزوا ماكان لديه من مؤن أو امتعة كما اقترفوا بحق اسرته الموبقات[1].

---

(١) : النويري ، المصدرنفسه ،ج٨ ،ص : ٢٥٥ – ٢٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كان الفلاحون ايضا يتعرضون لاعمال السخرة ، قال التاج السبكي (ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لايد لآدمي عليه وهو امير نفسه [1]).

لقد خضع الفلاحون لقوانين في التعامل الزراعي فهم لم يكونوا ملاكا للارض وكذلك المقطعون ومع هذا كانوا يديرون الارض لحساب رجال الاقطاع والاوقاف والملاك ، وقامت القوانين على عدة قواعد هي قاعدة المقاسمة او المثالثة او المرابعة او المخامسة او المسادسة او المسابعة او المثامنة ، وغالبا ما اعتمدت قاعدة المقاسمة في الاراضي المروية ، وسادت قاعدة المرابعة في غالبية اراضي البعل التي كانت تزرع بالحبوب واستخدمت قواعد المخامسة والمسادسة الى المثامنة في الاراضي التي وقعت على الاطراف وكانت عرضة لاخطار العدو ، والمعني بهذا كله انه في قاعدة المقاسمة يأخذ الفلاح نصف الانتاج ويأخذ المقطع النصف الاخر ، أما في المثالثة فيأخذ الاقطاعي الثلث وفي المرابعة الربع والمخامسة الخمس والمسادسة السدس والمسابعة السبع والمثامنة الثمن ، ويوحي هذا للوهلة الاولى ان الفلاح كان في وضع جيد ، انما هناك فارق بين القاعدة والتطبيق وفي التطبيق كان مايتبقى للفلاح من مجمل الانتاج لايتجاوز العشرة بالماشة لابل في كثير من الاحيان كان لايحصل على شيء البتة . فبعدما كان الاقطاعي يحصل على حصته يقوم وكلاء الديون بأخذ كمية مقابل الضرائب المفروضة وبعد هذا يقتطع من حصة الفلاح ماعليه من ديون وأثمان البذار وثمن الحيوانات وما ترتب عليه من فوائد ربوية شديدة ، وفي آخر المطاف كان عليه ان يدفع عشر مابقي له فهذا مافرضته الشريعة لذلك كان الفلاح معرضا لظلم وعتو مابعد عتوه [2].

---

(1) : عبد الوهاب السبكي ،معيد النعم ومبيد النقم، ط ، بيروت ، دار الحداثة ، ص : ٣٤

(2) : النويري ، المصدر نفسه ،ج ٨ ، ص٢٥٧ - ٢٦٠

- التاج السبكي ، المصدر نفسه ، ص١٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهذه الاسباب كان الفلاح ينتهز فرصة للفرار من القرية ، والنزوح الى المدينة او الى منطقة ما ، وكانت اعمال النزوح تشتد لدى احتباس الامطار وتدهور المواسم .

وكان الفلاح يجد الفرصة المواتية للنزوح اثناء اضطراب الامن وخلال اجتياح البلاد من قبل الجيوش الغازية ، ولقد اجتاح المغول بلاد الشام في العصر المملوكي مرارا.

ولجأت السلطات الى ارغام النازحين الى العودة الى قراهم قال التاج السبكي : (وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهرا ، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منه فيها ، وكل ذلك لايحل اعتمادة. والبلاد تعمر بدون ذلك ، بل انما تخرب بذلك ، لانهم يضيقون على الناس فيضيق الله عليهم ، ومن قبائحهم (أصحاب ديوان الجيش) انهم اذا اعتمدوا شيئا ما جرت بهم عوائدهم القبيحة يقولون هذا شرع الديوان ، والديوان لاشرع له ، بل الشرع لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم فهذا الكلام ينتهي الى الكفر[1]) .

لقد خضعت بعض المناطق في بلاد الشام لانظمة غير الانظمة التي اشرنا عليها اعلاه ، فكان بعض الفلاحين يقدم على زراعة قطعة من الاراض يضمنها ضمانا مقابل مبلغ محدود ، كما ان بعضها أدير بعد تحريرها من الصليبيين حسب قواعد الاقطاع الاوروبي وهو الذي حمل عند العرب اسم الفصل ، والفصل هي تعريب لكلمة vassal ومعنى هذه الكلمة في النظام الاقطاع الاوروبي التابع أو الفلاح المستعبد[٢].

---

(١) : التاج السبكي ، المصدرنفسه ، ص ٣٤

(٢) : النويري ، المصدر نفسه ،ج ٨ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو ان الفلاحين في البساتين والكروم خضعوا لشروط اقتصادية اختلفت عن غيرها وهكذا عاشوا في ظل أوضاع اجتماعية امتازت عما سواها.

كان الفلاحون يتعرضون لدفع انواع مستحدثة من الضرائب حسب ماكانت تقضي به الاوضاع السياسية والعسكرية وكان عليهم دفع ضرائب لخدمات البريد وغيرها (١).

وفي اواخر العصر المملوكي عندما شحت المادة البشرية من الرقيق واحتاجت الجيوش المملوكية للمقاتلين عمدت السلطات المملوكية الى تجنيد اعداد كبيرة من الفلاحين خاصة في المناطق الجبلية في فلسطين (٢).

اختصت بعض مناطق الساحل الشامي خاصة سهول طرابلس بزراعة قصب السكر وكان هذا القصب يتم عصره وتحصل الضرائب والحصص من منتوج السكر وغالبا ما استولت السلطات المملوكية على كامل الانتاج واحتكرته لتستهلكه وبذلك حرمت المنتج كما سبب الحرمان للشعب (٣).

كان الدولة في العصرين الايوبي والمملوكي بسبب الالتزامات العسكرية بحاجة دائمة للمال ولهذا لجأت الى فرض انواع كثيرة من الضرائب وأبدعت نظاماً ادارياً على غاية من الدقة في سبيل تحصيل الضرائب لعدم اضاعة أي مورد من الموارد ، وكان الفلاح هو الدافع الاكبر للضرائب بشكل مباشر او غير مباشر وعلى جهود الفلاحين استطاع النظام المملوكي ومن قبله الايوبي من الاستمرار وتامين الاعطيات ومختلف النفقات للجند (٤).

---

(١) : النويري ، المصدر نفسه ،ج ٨ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ج١ ، ص ٩٤٦- ٩٤٩

- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج ٨ ، ص ٢٠٤

- ابن خلدون ، المصدر نفسه ،ج٥ ، ق ٤ ، ص ٨٩٠ - ٨٩٩

(٣) : النويري ، المصدر نفسه ،ج ٨ ، ص ٢٦٤ - ٢٧٢.

(٤) : النويري ، المصدر نفسه ،ج ٨ ، ص ٢٥٣- ٢٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاشك أن أوضاع الاستغلال المنيفة هذه جعلت من الفلاحين جماعة علي درجة لايمكن وصفها من المعاناة والبوس والشقاء .

ولقد تعرض المقريزي في أكثر من مكان من كتبه لأوضاع الفلاحين من ذلك قوله : (ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن اقطع تلك الناحية ، الا انه لايرجو قط ان يباع ولا ان يعتق بل هو قن مابقي ومن ولد له كذلك[1]) .

هذا الوصف من المقريزي على درجة كبيرة من الأهمية وهو اولا وثائقي صور فيه المقريزي مارآه في أيامه من ان الفلاح الذي تمتع من قبل تجربته في العمل والارتباط بالناحية التي يعمل بها وبصاحب الارض تغير وضعه ودخل في مرحلة أبشع من العبودية يقول المقريزي (واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ولافيما مضى قبلها من دول أمراء مصر اقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية وانما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الامراء والاجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم[2]) .

الاحوال التي عاش في ظلها الفلاحون في بلاد الشام ومصر كانت حيث الواقع الاجتماعي والاقتصادي متشابهة الى أبعد الحدود الا ان الاوضاع في مصر كانت اقسى منها مما كانت عليه في بلاد الشام كما يستفاد من الاشارات التي اوردها التاج السبكي خاصة قوله : (والحال في غير الشام أشد منه فيها)[3] كان المقريزي يعرف أن الرقيق يأمل بالعتق او بتبدل الاحوال معه كما كان يعرف أن أبناء الرقيق خاصة من المماليك كانوا يعتبرون من الاحرار ويطلق عليهم اسم اولاد الناس اما الفلاح فقد ربط بالارض وصار ملكا للمقطع

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه (الخطط) ،ج١ ،ص ١٥٣.

(٢) : التاج السبكي ، المصدر نفسه ، ص ٣٤.

(٣) : احمد بن علي المقريزي ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ط ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣ - ٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو واولاده ، انقطعت آماله وسدت السبل في وجهه لذلك لجأ الى الفرار وقاد هذا الى اهمال الاراضي الزراعية مما سبب عددا كبيرا من الأزمات الاقتصادية فالمقريزي الذي وصف حال الفلاح هذا هو نفسه تصدى لمعالجة انهيار النظام الاقتصادي المملوكي الذي كان من مظاهره زغل العملة وما نسميه في أيامنا بالتضخم النقدي[١].

وشغلت مسألة زغل العملة بال غير المقريزي من علماء العصر المملوكي فقد عقد علي بن اللبودي فصلا خاصا في كتابه فضل الاكتساب وأحكام الكسب وآداب المعيشه على مسألة زغل العملة فاوضح ان الزيف قد لحق الذهب والدراهم الفضية والفلوس (وسائر ما يتعامل به المسلمين[٢]).

وتعرض أيضا المقريزي لآثار زغل العملة فبين ان من بين الآثار اللجوء الى الرشوة وشراء المناصب على مختلف انواعها (الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وسائر الاعمال بحيث لايمكن التوصل الى شيء منها الا بالمال الجزيل ، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ الى مالايمكن يوءمله من الاعمال الجليلة والولايات العظيمة[٣].

ووجد الذي اشترى منصبه بالرشوة ، أو بالبذل ان عليه تحصيل مادفعه ومرابح كبيرة في أسرع وقت ، ولم يكن امامه سوى زيادة الضرائب والقسوة والاستغلال الذي لايعرف الرحمة للفلاحين بالمصادرة وبانزال اشد العقوبات المؤلمة بهم ، وقادهذا الى مزيد من التمزق الاجتماعي وسوء اوضاع الفلاحين ، يقول المقريزي : (فلما دهي اهل الريف بكثرة

---

(١) : احمد بن علي المقريزي ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ط . القاهرة ١٩٥٧ ص ٣ ـ ٤ .

(٢) : علاء الدين علي بن اللبودي ، كتاب فضل الاكتساب وأحكام الكسب وآداب المعيشة . نسخة خطية مصورة في مكتبة الدكتور سهيل زكار: ٢٧ ظ

(٣) : المقريزي ، المصدر نفسه (اغاثة) ، ص ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغارم وتنوع المظالم اختلت احوالهم وتمزقوا كل ممزق وجلوا من أوطانهم فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة مايزرع بها ولخلو أهلها ولرحيلهم عنها بشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلى من بقي منهم (١)) .

وتنبه ابن خلدون بدوره وهو استاذ المقريزي الى بعض ماكان يعانيه الفلاحون فتنبأ ان اكثار الغرائب على الرعاياوالعاملين بالزراعة والفلاحة ومختلف أفراد الشعب سيقود الى الانهيار العام ودمار المجتمع وزوال النظام الحاكم فقد اذهبت كثرة الضرائب التي باتت بحكم العادة المفروضة تزداد كل يوم بضرائب جديدة أذهبت (غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم لقلة النفع ، اذا قابل (الواحد من الرعايا) بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الايدي من الاعتمار جملة ، فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها ، وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص ، حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس ورائها نفع ولافائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى ان ينتقص العمران بذهاب الامال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة اليها (٢)) . كان الفلاحون أيضا معرضين لاغتصاب الدولة لحيواناتهم ولجوء النظام المملوكي الى تبني (رأسمالية الدولة) وهو مايسميه ابن خلدون التجارة السلطانية ، فلجأت السلطات الى فرض الاسعار التي تريدها بيعا وشراء لتغتصب ماتريد اغتصابه بثمن متدن او بلا ثمن ، فالسلطان

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه (اغاثة) ص ٤٤ .

(٢) : ابن خلدون ، المصدر نفسه (المقدمة) ، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(لايجد من يناقشه في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه [١]) .

كان هم السلطات المملوكية الحصول على المال بسرعة ودون حساب للنتائج ، ففي بعض الاحيان كان عمال الدولة يكلفون التجار والفلاحين بشراء بعض السلع المخزونة او المستوردة بصرف النظر عن اعتبارات احوال الاسواق او مكان رواج أو بيع السلعة وكانوا (لايرضون في اثمانها الا القيم وازيد ، فيستوعبون في ذلك نضاض اموالهم ، وتبقى تلك البضائع عروضا جامدة ، ويمكثون عطلا من الادارة التي فيها كسبهم ومعاشهم ، وربما تدعوهم الضرورة الى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الاسواق بأبخس ثمن ، وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم ، ربما يذهب رأس ماله ، فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الارباح مايقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي الى فساد الجباية ، فان معظم الجباية انما هي من الفلاحين والتجار لاسيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها ، فاذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة ، او قعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة او دخلها النقص المتفاحش[٢]) .

كل هذا يؤكد مرة تلو اخرى ان اوضاع الفلاحين كانت في ظل السلطات العسكرية الغريبة على درجة من السوء لايمكن وصفها ومع هذا لابد لنا من ان نسجل هنا ان الفلاح العربي نزح من الريف الى المدينة لكنه لم ينزح من بلاده وظل متمسكا بها ولم يفقد قط ايمانه بأرضه وبقضاياه ففي معركة حطين ثم في معركة عين جالوت واثناء تحرير صفد وغير ذلك من معارك التحرير الكبرى كان دور الفلاحين حاسما ربما تفوق في كثير من الاحيان على دور المماليك والمرتزقة [٣].

---

(١) : ابن خلدون ، المصدر نفسه ، (المقدمة) ، ص :٤٩٨

(٢) : ابن خلدون ، المصدر نفسه ، (المقدمة) ، ص :٤٩٩

(٣) : المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ،ج١،ص :٤٣٠- ٤٣١

- محي الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ط ، الرياض ١٩٧٦ ، ص :٢٥٨ - ٢٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستخلص من مختلف المصادر التي اشارت الى الفلاحين واعمال نزوحهم من الريف الى المدينة ان المستوى الثقافي لديهم كان متدنيا ولم يتقن الفلاح غير لغة التعامل مع الارض ولعل هذا يعلل عدم نشوء طبقة برجوازية او منظمات حرفية من بين النازحين كما حدث في اوروبا ، بل ان النزوح سبب مشاكل اجتماعية كبيرة في المدن فكان عدد العاطلين عن العمل في ازدياد دائم وعاش النازحون كفئة عائمة على سطح المجتمع المدني فكان من بينهم الحرافيش والبطالين الذين امتصتهم بعض فئات الصوفية وزواياها كما سلف وأشرنا والذين انتشرت بين صفوفهم الانحرافات الخلقية مع تعاطي المخدرات ، ويشعر الانسان ان النظام المملوكي عانى من الانهيار الداخلي او بالحري انهار من كافة الجوانب وفقط كان ينتظر ضربة الخلاص التي جاءت مع جيوش العثمانيين .

هذه قضية على درجة كبيرة من الخطورة تحتاج الى وقفة متأنية ولايمكننا فعل ذلك الان لانه مازال يتوجب علينا أولا تبيان بعض مانزل بالفلاحين نتيجة لانحباس المطر وتفشي الامراض والاوبئة وحدوث الزلازل ومن ثم عرض احوال الشريحة الاجتماعية الثالثة من سكان البوادي والسهوب ...

كان الفلاح في بلاد الشام يعاني كما رأينا الى ابعد الحدود من رجال الاقطاع وأهل الديوان ومختلف رجالات السلطة وكذلك دفع ثمن المخاطر الخارجية التي نجمت عن الاعمال العسكرية المغولية والصليبية فلقد كان بامكان الدولة تامين الموارد لتغطية النفقات الحربية أما الفلاح الذي اتلفت محاصيله كان في كثير من الاحيان تتلف نفسه وأهله فغالبا مادمرت الاعمال العسكرية مناطق برمتها وارغمت الناجين من الفلاحين على النزوح فرارا بأرواحهم لايملكون من متاع الدنيا شيئا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما ودفع الفلاحون ثمن الاضطرابات الداخلية وصراع المماليك بين بعضهم بعضا خاصة فترة الانتقال من دولة المماليك الاولى (التركية) الى دولة المماليك الثانية (الجراكسة) وفي كثير من الاحيان اغارات القبائل البدوية على قرى الفلاحين فاتلفت الحقول ورعت المحاصيل قبل حصادها .

وكان الفلاح اذا ما نجا من ظلم الانسان واستغلاله لاينجو في كثير من الاحيان من كوارث الطبيعة ، وحدث مرارا ان تضافرت الطبيعة ورجل الاقطاع والسلطة للعمل ضد الفلاح المسكين ، فانحبست الامطار وحدثت الزلازل وانتشرت الاوبئة (الطواعين) او جاءت الفياضانات فالحقت الدمار بمسكنه وحقله .

وصحيح ان الاوبئة والزلازل والمجاعات أصابت افراد المجتمع كله لكن وقعها كان على الفلاح أشد وادهى .

تعرضت مصر للمجاعات والاوبئة اكثر مما تعرضت اليه بلاد الشام لكن ما من مجاعة أ وباء اصاب مصر إلا وتاثرت به بلاد الشام الى أبعد الحدود ، فمن أشهر المجاعات التي عرفتها مصر ما وقع بسنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م ، وقد وصف عبد اللطيف البغدادي ما شاهده في مصر في كتابه الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر

واورد عددا كبيرا من قصص وفظائع نتائج المجاعة في القاهرة وأتى على ذكر ماعانت منه الارياف فقال : (واما الضواحي والقرى فانه هلك أهلها قاطبة الا ما شاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الامهات والقرى الكبار كقوص ، والاشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضا لم يبق فيها الا تحلة القسم ، وان المسافر ليمر بالبلدة فلايجد فيها نافخ ضربة وتجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين[1]) .

---

(1) : عبد اللطيف البغدادي ، الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ،ط ، دمشق ١٩٨٣،ص ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واضطرت اعداد كبيرة من المصريين الى الهجرة نحو بلاد الشام، وقد عانى المهاجرون أشد العناء اثناء سفرهم نحو بلاد الشام، يقول البغدادي (واما طريق الشام فقد تواترت الاخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة ، وأنها عادت مادبة بلحومهم للطير والسباع وان كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تاكل منهم ، وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحوف عندما انتجعوا وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ، ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن ، وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ، ومزقوا في البلاد كل ممزق وكثيرا ماكانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون جوعا حتى يموتوا . ، وأما بيع الاحرار فشاع وساع عند من لايراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض علي جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة اخرى جاريتين احداهما بكر ينادى عليهما احد عشر درهما ، وسألتني امرأة ان اشترى ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها ان ذلك حرام خذها هدية وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بسان يشتروهم او يبيعوهم وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك .

واعجب من جميع ما اقتصصناه ان الناس مع ترادف هذه الايات عاكفون على أصنام شهواتهم ، لايرعوون منغمسون في بحر ضلالتهم كأنهم هم المستثنون ، فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجرا ومكتسبا ومنه مهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من يزعم انه افتض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر، وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم هذه الجملة التي اختصصناها وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة [1]) .

---

(١) : البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان المستعرض لمواد كتاب البغدادي يجدها تعيد رسم هذه الصورة المأساوية بتفاصيل تنفطر لها القلوب وكلها تحكي قصة انهيار كامل اقتصاديا واجتماعيا وخلقيا .

وتعرض المقريزي لاخبار هذه المجاعة وغيرها وأورد اخبار الموت واقدام الناس على أكل لحوم البشر جهارة والتفاصيل التي اوردها المقريزي اقل من تفاصيل البغدادي انما تتميز عليها بأن المقريزي علل أسباب المجاعة ووصف بعض الاجراءات التي حاولت الدولة معالجة الازمة فيها وقال في نهاية وصفه (سنة سبع افترست أسباب الحياة فلما اغاث الله الخلق بالنيل لم يوجد احد يحرث او يزرع فخرج الاجناد بغلمانهم وتولوا ذلك بانفسهم ولم تزرع أكثر البلاد لعدم الفلاح ، وعدمت الحيوانات جملة فبيع فروج بدينارين ونصف ومع ذلك كانت المخازن مملوءة غلالا والخبز متيسر الوجود(١).

ان عبارة المقريزي الاخيرة على درجة كبيرة من الخطورة ولها دلالات لاتنتهي اقلها ان مستودعات المماليك كانت مليئة بالحبوب اثناء المجاعة التي افنت العباد ودمرت البلاد ، ومع ذلك لم تحاول هذه السلطات الغريبة ، هذه السلطات المستغلة ، سلطات العبيد الذين ماتت في نفوسهم جميع الاحاسيس ، لم تحاول معالجة الازمة بتقديم بعض الغلال للشعب الذي سلبوه رزقه وحرموه من جهده وتركوه طعمة للموت وللتفسخ الاجتماعي .

نتائج هذه المجاعات وأثارها على بلاد الشام بنزوح من نزح اليها من أهل مصر ، بل الذي حدث ان النيل جف في مصر فأدى الى المجاعة التي وصفناها ، ولم تجف المياه في الشام بل تحركت الارض وزلزلت ، زلزلت بلاد الساحل الشامي لا بل زلزلت الشام كما

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه ، (اغاثة) ، ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول البغدادي بأسرها " طولا وعرضا وتعطلت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لاتحصى)[١].

وروى البغدادي انه تلقى بعض الكتب التي وضعت أخبار الزلازل الشامية من دمشق وحماة ، فقد جاء في الكتاب الذي وصل من حماه (ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان (٥٩٧ هـ) حدثت زلزلة كادت الارض تسير سيرا والجبال تمور مورا وماظن احد من الخلق الا انها زلزلة الساعة واتت دفعتين في ذلك الوقت ، أما الدفعة الاولى فاستمرت ساعة أو تزيد عليها ، واما الثانية فكانت دونها ولكن أشد وتأثر منها بعض القلاع ، فأولها تلمسة حماة مع اتقانها وعمارتها ، وبارين مع اكتنازها ولطافتها ، وبعلبك مع قوتها ووثاقتها[٢]) .

ثم استطرد البغدادي فروى ماجاء في نسخة الكتاب الذي ورده من دمشق فوصف آثار الزلازل على المدينة ثم تاق بان مدن بانياس وصفد وتبنين ونابلس وبيت جن وقرى حوران وعكار وصور وصافيتا وغير ذلك من بلدان ومدن الشام وقراه وقد دمر بعضها دمارا كاملا او شبه كامل[٣].

لقد تحدثت كتب الاخبار والمصادر التاريخية عن زلازل أخرى وقعت في بلاد الشام وألحقت أفدح الاضرار بالفلاحين وغيرهم من افراد المجتمع الشامي وجميع الاخبار تتفق على ان السلطات لم تعمل شيئا في سبيل تخفيف وقع الكوارث على الناس وهذا امر بديهي لايبعث على الدهشة فالمملوك حتى وان وصل الى عرش السلطنة لم يتحرر نفسيا مما تركه الرق من عقد وامراض . ولهذا ليس من المدهش ان نجد

---

(١) : البغدادي ، المصدر نفسه ، ص : ١٠٠

(٢) : البغدادي ، المصدر نفسه ، ص : ١٠٠ — ١٠١

(٣) : البغدادي ، المصدر نفسه ، ص : ١٠١ — ١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النظام المملوكي يتهاوى سريعا امام الجيوش العثمانية الغازية ولعل من المآسي والنوازل التي لحقت بالفلاح وغيره من افراد المجتمع الشامي مايعلل بعض اسباب اقدام المنظمات الشامية مثل الزعر والحرافيش وسواهم على محاولة وراثة النظام المملوكي او تبديله ، فلقد كان عامة الناس لايعرفون في غالب الاوقات الا طعم الشقاء والتعاسة ولم يملكوا الوقت للتفكير في غير دفع الضرر الذي تلاحق فكانت ضرباته متوالية وموجعة جعلت من الشامي انسانا شبه غائب عن الوجود ، هو الى الأموات أقرب منه الى الاحياء فهذا حال كل من تحكم بأمره الغرباء .

لهذا اذا انقطع عنه قطر السماء وهو بالاصل لاامل له من في الارض اتجه نحو باريه يدعوه ان يفرج عنه فيما عرف لدى المسلمين باسم صلاة الاستسقاء ولقد رأينا من قبل كيف اجتمع اهل دمشق بما فيهم الحكام والقضاة وخرجوا الى ظاهر المدينة حيث نصبوا منبرا للدعاء ، وعندما لم يستجب الله تعالى الدعاء نفس بعض الناس عن كربهم فاقدم على قتل ابن النشو محملينه جزءا من نشوء البلاء (١) .

وكانت الدولة في بعض الاحيان تجد نفسها مضطرة لاصدار الاوامر بالغاء الاحتكار وارغام الامراء على فتح مخازنهم وبيع الغلال باسعار قد تحددها لهم ؛ لكن مثل هذه الاجراءات غالبا ما كانت موءقتة ليس لها صفة الديمومة (٢) .

---

(١) : انظر ماسلف ذكره ، في الصفحة رقم (١٧٦-١٧٧) .

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه ،(اغاثة) ص : ٤٢ - ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالاضافة الى فتح مخازن الغلال وبيع الحبوب الى الناس كانت الدولة تلجأ الى توزيع الاطعمة مجانا على الفقراء وهو ماعرف باسم اعمال الاحسان ، وقد أطنبت بعض المصادر لدى حديثها عن بعض السلاطين في وصف أعمال الاحسان التي قاموا بها والمسألة لم تعدو مجرد قيام المغتصب برد بعض ما اغتصبه الى اصحابه الاصليين ولأن النازحين من الارياف والناجين من الاوبئة والذين اعتادوا لسنوات على ان يقتاتوا من لحوم البشر ولم يكن بحوزتهم مال لشراء الغلال عندما توفر ووجدت الدولة نفسها مضطرة لايجاد علاج لهذه الازمة المستعصية ، حدثنا المقريزي أن الغلاء بدأ في مصر سنة (٥٩٦هـ - ١٢٠٠ م) واستمر عدة سنوات بسبب توقف النيل عن الزيادة وقصوره (فتكاثر مجيء الناس من القرى الى القاهرة من الجوع ، ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني أدم من الجوع ، فكان الاب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا ، والمرأة تأكل ولدها[1]) .

واستشرى الامر بعدما استمر انقطاع النيل ثلاث سنوات وتجمعت عشرات الالوف من النازحين امام قصر السلطنة ، واضطر السلطان العادل الايوبي لايجاد علاج لهذه الجائحة فأطلق للفقراء شيئا من الغذاء وقسم الفقراء على ارباب الاموال واخذ منهم اثني عشر نفسا، وجعلهم في مناخ القصر وأفاض عليهم القوت وكذلك فعل جميع الامراء واسباب السعة والثراء ، وكان الواحد من اهل الفاقة اذا امتلأ بطنه بالطعام بعد طول الطوى سقط ميتا ، فيدفن منهم كل يوم العدة الوافرة حتى ان العادل قام في مدة يسيرة بمواراة نحو مائتي الف وعشرين الف ميت[2]) .

---

(١) : المقريزي ، المصدر نفسه (اغاثة) ، ص ٢٩

(٢) : المقريزي ، المصدر نفسه (اغاثة) ،ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على هذا جاء العلاج الحكومي متاخرا جدا وأفاد السلطة بأن خلمها ببضع لقيمات من عدة مئات من الالوف من الجائعين الذين تجمهروا امام القصر وملؤا أزقة المدينة وطرقاتها.

وفي أيام السلطان بيبرس غلت الاسعار في سنة ٦٦١هـ - ١٢٦٣م (ووصل الأردب الى قريب المائة درهم نقرة فرسم السلطان بالتسعير طلبا للرفق ، فاشتد الحال وعدم الخبز فأمر السلطان بالنداء لاجتماع الفقراء تحت القلعة وفي يوم الخميس السابع ربيع الاخر نزل الى دار العدل فأول ما تحدث فيه أمر الغلة وبطل التسعير وكتب الى الامراء ببيع خمسمائة اردب كل يوم بما يقدره الله تعالى من ويبتين فما دونهما لئلا يشتري منه الخزان بل يباع على الضعفاء والأرامل) ، وبعد هذا امر بكتابة اسماء الفقراء الذين تجمهروا امام قصر السلطنة ثم راسل مناطق مصر طالبا من النواب كتابة جرائد بأسماء الفقراء ووزع الفقراء على الامراء كل واحد على قدر عدته وامكاناته وأمر باعطاء الفقراء ، مايكفي كل واحد منهم مؤونة ثلاثة أشهر وبهذا استطاع بيبرس تخطي الازمة وقام ابن عبد الظاهر مؤلف سيرته بالمقارنة بين الاجراء الذين اتخذه بيبرس وذاك الذي اتخذه العادل الايوبي ليقول بأن اجراء بيبرس كان اسرع واكثر نجاعة (١).

وكما تشارك الفلاح الشامي مع الفلاح المصري في المعاناة من الازمات والجوائح تعاونا أيضا في سبيل التخفيف من الالام ففي كثير من الاحيان كانت الغلال ترسل من بلاد الشام الى مصر للتخفيف من حدة المجاعة هناك ، وقد تكرر ارسال المساعدات برًا وبحرًا اكثر من مرة (٢).

---

(١) : ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه (الروض) ، ص : ١٨٨- ١٩٠

(٢) : محمد بن علي بن نظيف الحموي ، تاريخ المنصوري ، ط . موسكو ١٩٦٣، ص : ٢٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقدمت الاشارة الى ان الفلاحين تعرضوا لبعض الغارات المدمرة التي قامت بها القبائل البدوية على الرغم من ان الفلاحين في بلاد الشام قد انحدروا من هذه القبائل وانتسبوا اليها وستعرض في هذا الفصل اثناء حديثنا عن القبائل البدوية الي بعض اوجه نشاطاتها ضد الارياف والمدن ، ومفيد ان نشير هنا ان الفلاحين الذين قطنوا في مناطق وسط بلاد الشام والشمال تعرضوا منذ ايام هولاكو وحتى أيام تيمورلنك الى نكبات هائلة على أيدي الغزاة من المغول فلقد دمر تيمور الريف الشامي ثم أقدم كما فعل المغول من قبل على قتل اهل المدن والذين نجوا من سيفه من الحرفيين والشباب ساقهم امامه اسرى ونقلهم الى ديار سمرقند وبخارى وغيرها. فبعدما دمر تيمور معظم أحياء دمشق واحتل القلعة قام جنوده باحداث دمار مريع في الغوطة ، وقلت المؤن في دمشق وانعدمت في الغوطة وشعر تيمورلنك بنقص المواد التموينية وقلة الاعلاف اللازمة لخيول الجند وحيواناتهم فأرسل تيمور قسما كبيرا من قواته الى فلسطين فقتلت الفلاحين وجمعت الاعلاف من فلسطين ثم قامت اثناء عودتها بمصادرة كل ما وجدته في بلاد حوران ومنطقة الحولة وعندما اتخذ تيمورلنك قراره بالانسحاب كان قد جلب اعدادا كبيرا من الخيول والجمال لتحميل الغنائم التي تجمعت لديه في دمشق ومع ذلك كانت هذه الغنائم اكبر من قدرة جيش تيمور وقدرة حيوانات الحمل والنقل لديه ، لقد اتجه تيمور اثناء انسحابه شمالا انما قام اولا باحداث دمار فيما تبقى من الغوطة ومن ثم مر بالنبك فدمرها، وبقاره، وبحمص التي سلمت منه حرمة لقبر خالد بن الوليد فيها ، لكن نواحي حمص وريفها حتى تدمر تعرض للدمار ،فمن ريف تدمر فقط جلب جند تيمور مايزيد على مئتي الف رأس من الحيوانات واستمرت الامور على هذا المنوال حتى غادر تيمور بلاد الشام عبر نهر الفرات ، ومعروف ان السلطان فرج بن برقوق كان قد تخلى عن الدفاع عن دمشق وبلاد الشام وانسحب الى مصر تاركا البلاد طعمة للمغول الذين لم يعرف التاريخ مدمرا يوازيهم او يعادلهم(1).

---

(1) : شهاب ، المرجع نفسه (تيمورلنك) ، ص ٣١٥ - ٣٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مادمنا في حديث تبيان آثار الغزاة على بلاد الشام علينا ان نتذكر اننا مهما وقفنا مذعورين امام الصور التي حكاها المؤرخون عما فعله هولاكو وغارات تيمورلنك بأهل الشام يبقى مافعله الصليبيون افظع ولايمكن للتاريخ ان يمحوه من ذاكرة الانسان العربي .

فعندما وصل الصليبيون الى اطراف الشام دمروا مناطق الثغور الشامية وذهب جماعة منهم نحو الرها فأحدثت ادمارا في الريف الشمالي الشرقي لبلاد الشام ، وقامت الحملة الاولى من الصليبين بالحاق الدمار بانطاكية وريفها ، وقد تم افناء جميع سكان انطاكية ومعظم سكان الارياف من الفلاحين دونما تمييز بالعقيدة ، لقد قتل الصليبيون الفلاح العربي : المسلم والمسيحي واحتلوا ارضه لاقامة مستعمرات صليبية فيها بغية استثمارها من قبل حشود المهاجرين من اوربا فلقد استهدف الصليبيون جعل بلاد الشام وطنا لهم فيما وراء البحار وبعد انطاكية لحق الدمار بريف حلب وغدت منطقة الجزر وريف البارة مناطق تخضع للنظام الاقطاعي الصليبي .

وتحرك الصليبيون نحو معرة النعمان فدمروها وقتلوا أهلها واحدثوا العبث والفساد في ريفها ، فقتلوا سكان القرى حول المعرة جنوبا حتى كفر طاب فريف شيزر فريف قلعة الحصن وريف الساحل الشامي ثم عندما وصلوا الى القدس مدينة السلام قتلوا جميع سكانهما حتى الحيوانات ذبحوها ، ومن ثم اجتاحوا ريف الساحل الفلسطيني وصور حتى اطراف مصر .

لقد اقام الصليبيون عددا كبيرا من المستعمرات طبقوا عليها نظام الاقطاع الاوربي ، كما انهم اقاموا عددا من المستعمرات التي امتدت مابين حلب والرها ، واضطهدوا الفلاح العربي أيما اضطهاد لكن قناة هذا الفلاح لم تلن وعندما نقرأ بعض كتب التاريخ اللاتينية خاصة تاريخ وليم الصوري نجد عبارات كثيرة يستشف منها ان روح المقاومة لدى الفلاح العربي ظلت حية دوما (١).

---

(١) : زكار ، الحروب الصليبية ، المصدر نفسه ،ج١،ص : ١٥٠- ١٦٨،٢١٩- ٢٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان الاراضي التي جرى تحريرها من الصليبيين خضعت حتى بعد تحررها لادارة مستمدة من النظام الاقطاعي الاوربي وهو ما أشرنا اليه من قبل تحت عنوان (الفصل) ، لكن بعض الاراضي الشامية لم يتمكن الصليبيون من احتلالها بشكل دائم وظلت موضع نزاع بينهم وبين العرب خاصة سواد حوران والجولان ، وأديرت هذه المناطق وفق أنظمة ابدعت خصيصا هي انظمة المناصفات والمثالثات ، لقد اشرف على ادارة هذه المناطق جماعة مثلت الطرفين العربي الشامي والفرنجي ، وشمل اقتسام العائدات الزراعية ، فبلدة بانياس قد خضعت لهذا النظام واقتسم العرب والفرنجة مناصفة حاصلاتها الزراعية[1].

ومثل بانياس خضعت مجموعة من القرى والمزارع لنظام المناصفات بل أكثر من هذا يلاحظ ان نظام المناصفات عمل به الفرنجة بين بعضهم بعضا ولاشك ان هذا النظام في ظل الفرنجة قد زاد ضيق الفلاحين الشاميين[2].

اما نظام المثالثات فقد جرى تطبيقه أحيانا بين أتابكة دمشق والملوك اللاتين في القدس فقد تحدث مؤرخ دمشق ابن القلانسي عن اتفاق عقد بين طغتكين اتابك دمشق وبلدوين الاول ملك القدس على ادارة منطقة سواد حوارن وجبل عوف أثلاثا للفلاحين ثلث ، وللفرنج ثلث ، والثلث الاخير لجند الاتابكة[3].

كما ان هذا النظام جرى تطبيقه على بعض مناطق البقاع . فقد حكى ابن القلانسي في أحداث سنة ثلاث وخمسمائة للهجرة (١١٠٩م): " وفيها وصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس وعزم على العبث والافساد في ناحية البقاع،

---

(١) : وليم الصوري ، المصدر نفسه ،ج ٢ ، ص ٨٤٤.
(٢) : وليم الصوري ، المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص ٨٤٤.
(٣) : ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترددت المراسلة بينه وبين ظهير الدين اتابك في هذا المعنى الى ان تقررت الموادعة بينهما على ان يكون الثلث من استغلال البقاع للافرنج ، والثلثان للمسلمين والفلاحين وكتبت بينهما المواصفة بهذا الشرح في صفر من السنة ، ورحل عائدا الى عمله ، وقد فاز بما حصل في يده وايدي عساكره من غنائم بعلبك والبقاع[1].

وتحدث ابن العديم في كتابه زبدة الحلب موضحا ان نظام المناصفات قد سرى على بعض قرى جبل السماق وضياع الجزر وبعض قرى ريف حلب وقد عومل بهذا النظام أيام حكم آق سنقر البرسقي[2] ومن بعده عماد الدين زنكي ، كذلك عومل به في أيام نور الدين فقد طبق أيام نور الدين على منطقة حارم بالاضافة الى مناطق شامية اخرى[3]، واستمر العمل بهذا النظام في العصر المملوكي وحتى طرد الفرنجة نهائيا من بلاد الشام[4].

لاشك ان العرب من سكان أرياف بلاد الشام التي وقعت تحت الاحتلال الصليبي أو كانت مناطق نزاع قد عانوا كثيرا واضطر سكان قرى بمجملها الى الهجرة لسوء المعاملة التي تعرضوا اليهما ، فقد روى ابن طولون الصالحي في مطلع تاريخه للصالحية أسباب مجيء الجماعلة من فلسطين الى الصالحية ان قرية جماعيل وقعت تحت الاحتلال الصليبي فاضطر سكانها بسبب المعاناة الى النزوح من ديارهم والقدوم الى دمشق ، قال الحافظ ضياء الدين المقدسي (وسمعت غير واحد من اصحابنا يقول : ان المسلمين صاروا تحت ايدي الفرنج بأرض بيت المقدس ونواحيها يعملون لهم الارض وكانوا يؤذونهم

---

(١) : ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٣.

(٢) : ابن العديم ، المصدر نفسه (زبدة) ، ج٢ ، ص ٥٩٥ - ٥٩٦.

(٣) : ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ط ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٤٩ .

(٤) : وفاء جوني : الحياة الادارية والسياسية في الامارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٦ - ١٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحبسونهم ويأخذون منهم شيئا كالجزية ، وكان أكثر الفرنج أهون من ابن بارزان (احد قادة الفرنجه) لعنه الله وكانت تحت يده جماعيل قرية اصحابنا ومردا وياسوف وغير ذلك ، وكان اذا اخذ الكفار ممن تحت يده دينارا اخذ هو لعنه الله من كل واحد منهم اربعة دنانير وكان يقطع ارجلهم ولم يكن في الكفار اعتى منه ، ولاأكثر تجبرا اخذاه الله ، وكان جدي الشيخ أحمد بن محمد رحمه الله قد سافر واشتغل بالعلم ورجع الى جماعيل وأقام بها وانتفع الناس به باقرائهم القرآن والعلم ، وكان يخطب أيام الجمعات وتجتمع الناس اليه من القرايا ويقرأ لهم الاحاديث وكان مع ذلك لايرضى بمقامه تحت ايدي الكفار كما بلغني ، وكان اخوته واولاد عمه قد تعلموا منه ومن غيره .

قال الحافظ ضياء الدين وسمعت الشيخ الكبير أبا نجم سعد بن خليل بن حيدرة الحارثي بقرية وجارية قال : كنت اعرف الشيخ احمد من جماعيل وكنت امضي الى عنده كثيرا وكان يخطب يوم الجمعة ويخرج اليه الناس من القرايا يحضرون الجمعة قال فقيل لابن بارزان لعنه الله ان هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين من العمل ويجتمعون عنده قال فتحدث في قتله) فاظر هو وسكان القرية وعدة قرى الى الهجرة وقد عانوا كثيرا اثناء سفرهم من فلسطين نحو دمشق خاصة اثناء عبورهم لنهر الاردن ، والمشير في الرواية ان افراد القبائل العربية كانوا يقدمون المساعدات للنازحين ويتعاونون معهم ويشرفون على أمنهم (١).

تمثل هذه الرواية احدى الوقائع التي وقعت ضد الفلاحين في كل بقعة من بقاع بلاد الشام وفيها استثناء هو ان المهاجرين قادهم واحد من كبار العلماء فاستطاع ان يسكنهم في صالحية دمشق حيث قام اثر ذلك نشاط علمي تميزت به هذه المنطقة فقد خرج من صفوف المهاجرين عدد كبير من أعظم الائمة في حين ان القرى التي لم يجد اهلها من يقودهم اندمج افرادها من النازحين مع البطال والحرافيش وغيرهم .

---

(١) : محمد بن طولون الصالحي ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ط . دمشق ١٩٤٩ ، ص ٢٦ - ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شغلت القبائل العربية دورا عظيما جدا في تاريخ بلاد الشام ، كانت بلاد الشام منذ فجر التاريخ تتلقى موجات المهاجرين من القبائل العربية الصادرة عن شبه جزيرة العرب وتعددت مناحي الهجرة من شبه الجزيرة وتنوعت فقد وصل المهاجرون اما من اطراف شبه الجزيرة الى الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام او هاجروا اولا الى حوض الفرات فاتجهوا شمالا ومن ثم انعطفوا غربا نحو الاجزاء الشمالية من بلاد الشام ، وكانت كلما وصلت الى بلاد الشام موجة من المهاجرين تضغط على القبائل الموجودة في البلاد من قبل وترغمها على الاندماج في الحياة الريفية ، والريف بدوره كان يرسل المهاجرين الى المدن وهكذا انحدر سكان بلاد الشام بغالبيتهم المطلقة من القبائل العربية .

لسنا بحاجة للحديث عن الهجرات العربية الى بلاد الشام ، لكن مايهمنا هو ان نسوق بعض الامثلة التي تعزز ماذهب اليه وتوضحه لنخلص من وراء ذلك انه مادام جميع سكان بلاد الشام قد انحدروا من اصل واحد فقد عرفوا انماطا حياتية اجتماعية واحدة .

ولقد اتضح دور القبائل العربية في تاريخ بلاد الشام وعظم من ذي قبل اثر قيام الفتوحات العربية في القرن السابع للميلاد ، وفي العصر الاموي كانت كلمة القبائل العربية هي الفصل في معظم القضايا وكانت قبيلة كلب ابرز القبائل في الجنوب وكلاب في الشمال ، وظل الحال هكذا حتى انقضاء فترة طويلة من العصر العباسي ففي القرن الثالث للهجرة كان من بين نتائج نشاطات القرامطة في بلاد الشام وشبه جزيرة العرب قدوم موجة جديدة من المهاجرين حملت الى فلسطين قبائل من طيء وكذلك من هلال وسليم وفزاره وحملت الى الشمال قبائل من عامر بن صعصعة في مدارتها عقيل ونمير وقشير وكلاب ، ولقد عاصر ابن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حوقل حركة هذه القبائل وشهد بعض ما احدثته من تغييرات في هجرتها وروى انه قبل قدوم المهاجرين الجدد كان معظم بداة الجزيرة والشام الاعلى شبه متحضرين ، كانوا يمتلكون قليلا من الجمال وقد ارتبطوا بالحياة الريفية اكثر من ارتباطهم بحياة الترحال لدى البداة فكان من نتائج قدوم المهاجرين الجدد ارغام القبائل القديمة على الاخذ النهائي بالحياة الريفية المستقرة (1).

ولم تقتصر نتائج الهجرة الجديدة على هذا ، بل تعدتها الى ماهو أهم فقد استطاعت قبيلة عقيل ان تنفرد بالموصل وتؤسس امارة حاكمة فيها ، واستطاع بنو اسد ان يستولو على الحلة ويؤسسوا امارة فيها ، كما استطاع صالح بن مرداس الكلابي تسانده قبيلته من كلاب ان يستولي على حلب ويؤسس الامارة المرداسية فيها وتحالف صالح بن مرداس مع سنان بن عليان زعيم قبائل كلب وحسان بن المفرج زعيم قبائل طيء واتفقوا على اقتسام بلاد الشام الى ثلاثة مناطق أو لنقل بعبارة اخرى اتفقوا على اقامة ثلاث دول بدوية في بلاد الشام واحدة في الرملة لطيء ، وثانية في دمشق لكلب ، وثالثة لكلاب في حلب ، وخاض الحلف القبلي الثلاثي مدة معارك ضد جيوش الخلافة الفاطمية ، وفقط نجح صالح بن مرداس الكلابي في تأسيس امارة في حلب ، ومع هذا ظلت قبيلة طيء صاحبة الكلمة العليا في فلسطين ولم يضعف نفوذ كلب في دمشق كثيرا (٢).

---

(١) - محمد بن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، ط • ليدن ، ١٩٣٩، ص/٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٨.

(٢) - سهيل زكار ، امارة حلب ،ط • دمشق، ١٩٨٦، ص:٧٦- ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظلت الدولة المرداسية قائمة حتى سقطت بسبب هجرة قبائل الغز التي تواءم قدومها مع قيام السلطنة السلجوقية ولم تلبث الدولة العقيلية ان سقطت بعدها للاسباب نفسها أيضا ، وبعدما عاني الكلبيون من هزائم عسكرية شديدة على ايدي الغز اضطرت بقاياهم الى الهجرة الى ريف مدينة حماة ومن ثم اتجهوا نحو مصياف ، اما بالنسبة لبقايا عقيل فقد احتفظوا بملك قلعة جعبر وشغلت هذه الدولة دورا كبيرا في احداث الشام الاعلى والجزيرة بعيد الاحتلال الصليبي الذي نجم عن الحملة الصليبية الاولى(١).

وكما ضعف شأن قبيلة كلاب اثر مجيء الغز ضعف شأن قبيلة كلب لان نشاط الغز كان واسعا جدا في منطقتي حلب ودمشق وحكم الغز من خلال اسر وراثية هاتين المدينتين ، في حين يبدو ان قبائل طيء في فلسطين لم تعان مثلما عانت كلب وكلاب ومع قيام الدولة الايوبية تدنى شأن وضعف دور القبائل الغزية التركمانية ، فتهيأت الفرصة امام قبائل طيء لتتوسع بنشاطها شمالا باتجاه دمشق ووسط بلاد الشام وساعدها على ذلك اخفاق بني أسد في مد نفوذهم الى بلاد الشام على يد دبيس بن صدقه (٢).

بدأ ظهور قبائل ربيعة بزعامة آل فضل على مسرح أحداث المناطق الجنوبية من بلاد الشام ومنطقة دمشق مع بداية قيام الحروب الصليبية أي منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد ، ففي بداية حكم أتابكة دمشق نشأت علاقات بين طغتكين أتابك دمشق ومانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة ، وبعد طغتكين استمرت علاقاته بحكام دمشق كما نشأت علاقات بينه وبين عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود.

---

(١) - زكار ، المرجع نفسه ، ص: ١٦٠ - ١٩٤

(٢) - ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٣٦٦ - ٣٦٩.

- ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ،ص: ٣٤٧٨ - ٣٤٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وازداد شأن آل ربيعة ارتفاعا في الدولة الايوبية ففي سلطنة العادل أخو صلاح الدين منح هذا السلطان امرة عرب الشام لحديثة بن مانع بن حديثة بن فاضل بن ربيعة[1]، وحين منح العادل امرة العرب لمانع بن حديثة انتزعها من قبائل كلاب، وامرة عرب الشام وظيفة وجدت في أيام حكم الدولة البيزنطية لبلاد الشام، وآنذاك حمل هذه الرتبة امراء قبائل غسان فأمير قبائل غسان كان هو الاول بين امراء القبائل العربية في بلاد الشام ويبدو ان هذا المنصب ضعف شأنه أيام حكم الدولة الاموية وبعث الى الوجود مجددا بعد استيلاء صالح ابن مرداس على حلب وظل بين المرداسيين حتى ضعف شأن قبيلة كلاب وارتفع شأن ربيعة كما رأينا[2].

وقام تنافس بين فصائل قبائل ربيعة حول الامرة ولهذا اقدم الكامل بن العادل على جعلها نصفين، نصف احتفظ به مانع بن حديثة، ونصف آخر منح لزعيم جديد هو غنام بن غنام[3].

كان التنافس مستمرا بين فصائل قبائل ربيعة على الزعامة وغالبا ما استغلت السلطنة الايوبية ومن بعدها سلاطين المماليك ذلك لصالح السلطنة وكان بعض الامراء يتحالفون مع الحكم القائم ويقوم آخرون من ذوي المطامح بالتحالف مع فئات المعارضة، فعندما قدم الظاهر بيبرس فارا الى بلاد الشام أثناء الصراع على السلطة في القاهرة اتصل بأمير قبائل ربيعة علي بن حذيفة وطلب تقديم المساعدة له فرفض

---

(١) - أحمد بن يحيى العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار (جزء القبائل) ط. بيروت ١٩٨٥، ص ١١٥ - ١١٧.
- القلقشندي، المصدر نفسه (صبح) ج ٤، ص: ٢٠٣ - ٢٠٤
(٢) - زكار، المرجع نفسه (امارة)، ص: ٨٥ - ٨٦.
(٣) - العمري، المصدر نفسه، ص ١١٧
- القلقشندي، المصدر نفسه (صبح)، ج ٤، ص: ٢٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاتصل بأمير آخر هو عيسى بن مهنا فقدم له المساعدات وأكرمه غاية الاكرام لذلك عندما تسلم بيبرس عرش السلطنة انتزع الامرة من علي بن حديثه وأضفى رتبة الامارة العامة على عيسى بن مهنا(١).

لقد بات بيت عيسى بن مهنا أبرز بيت بين قبائل بلاد الشام وظهرت لدى أفراد هذا البيت مطامح استقلالية كبيرة، وباتوا يدعون النسب الى العباسة أخت الرشيد . الخليفة العباسي المشهور فقد استغلوا ما روي من ان الرشيد كان قد عقد قران اخته العباسة على وزيره جعفر البرمكي شريطة ان لايدخل بها، ذلك ان الرشيد كان كما قيل لايشعر بالراحة اذا خلا مجلسه من حضور وزيره البرمكي وأخته ، وقيل أيضا ان البرمكي اتصل بالعباسة فأنجبت منه ولدا تم تهريبه وتربيته خفية بين قبائل طيء ، ومن صلب هذا المولود انحدر امراء آل مهنا ، وقيل في تتمة هذه الحكاية لما علم الرشيد . بهذه الواقعة بطش بطشته الكبرى بالبرامكة فقتل جعفر البرمكي انتقاما لشرفه ، وقد ابدى العمري شكوكه في صحة هذه الحكاية وعبر عن دهشته لتبني أمراء آل مهنا للنسب الاعجمي مؤثرين اياه على النسب العربي(٢).

لانعرف بالتأكيد السبب الذي دفع هؤلاء الامراء الى تبني هذا النسب ويرجح أنهم طمحوا بالانتساب للعباسيين ولنتذكر في هذا المقام أنه بعدما انهارت الخلافة العباسية في بغداد ادعى عدد من الناجين النسب العباسي وسعى بيبرس الى احياء الخلافة العباسية ببغداد وعندما اخفقت هذه المحاولة أوجد خلافة عباسية في القاهرة فلعل هذا فيه مايوضح سبب تبني أمراء آل مهنا للنسب

---

(١) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١١٦ - ١١٧
- القلقشندي ، المصدر نفسه ، (صبح) ، ج ٤ ، ص ٢٠٥

(٢) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٣
- ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه (الروض) ، ص : ١١٩، ٢٦٥ - ٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العباسي وهم قد حازوا على منصب الامارة بفضل تحالفهم مع بيبرس . والمثير للانتباه ان قاضي قضاة دمشق ابن خلكان وكان شخصية على درجة عالية من الأهمية أيام بيبرس الى حد ان بيبرس كان يراسل أهل الشام بأخبار انتصاراته العسكرية من خلال ابن خلكان ، فابن خلكان هذا ادعى النسب البرمكي ولاندري فيما اذا وجدت علاقات بين دعوى أمراء آل فضل ودعوى ابن خلكان .

لقد جرى تكليف قبائل ربيعة بخفارة البادية الشامية واستطلاع أخبار نشاط المغول الايلخانيين في العراق وانذار السلطات المملوكية في الوقت المناسب بأخبار الحملات المغوليية ضد بلاد الشام ، كما شاركوا في جميع المعارك ضد الحملات المغولية في العصر المملوكي وكان الأثر البالغ فيها (١).

لقد كان عدد قبائل ربيعة كبيرا جدا وكانوا يمتلكون ثروات واسعة واعتمد تراثهم على الاغنام والجمال والخيول وعلى ماكانوا يحصلون عليه من مغانم الحروب وأعطيات السلاطين فقد كان السلاطين يمنحون أمراء ربيعة الهبات والاقطاعات كما ملكوهم ممتلكات واسعة (٢) .

بعد هذا العرض الذي كان لابد من تقديمه يستخلص من المصادر التي وصفت احوال القبائل الشامية في العصر المملوكي خاصة مادونه المهندار الحمداني الموظف الذي كان مسؤولا عن العلاقات بين السلطنة والبدو في القاهرة ، يستخلص من هذه المصادر أن قبائل ربيعة كانت من حيث البنية الاجتماعية والعادات والتقاليد . مثلها مثل قبائل عرب شبه الجزيرة عند قيام الاسلام مع تغييرات طفيفة في بعض المظاهر انما دون مساس بجواهر الامور (٣).

---

(١) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) - العمري ، المصدر نفسه ، ص : ١٤٠ - ١٤٣

(٣) - العمري ، المصدر نفسه ، ص : ١٣٥ - ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدو ان الضغط التركماني اخذ يضعف بعد مقتل تتش وبدا هذا الضعف واضحا في وسط بلاد الشام وجنوبه، ولم يعط هذا القبائل العربية الفرصة لاسترداد مكانتها فحسب بل لاعادة تشكيل انفسها ، وهكذا امتد نفوذ ربيعة فشمل داخل هذا النفوذ عددا كبيرا من القبائل من اصل غير طائي اي شهدت المنطقة مشروع تنوخ جديد ، وحمل هذا المشروع اسم الموالي [١].

وبات الموالي اشبه بجمهرة كبيرة منه بقبيلة ، ففي هذه الجمهرة وجدت قبائل اصلها من كلب اليمانية وبني خالد التي انتسبت الى خالد بن الوليد أي انها كانت من قريش ومن كلاب القبيلة العدنانية التي شغلت أعظم الادوار في شمال بلاد الشام [٢].

على هذا حوت ربيعة عددا من القبائل ، وكل قبيلة قد تألفت من عدة بطون وأفخاذ وفصائل : وعرف علماء النسب القبيلة على انها الجماعة التي انتمت الى أب واحد ، وقيل سميت قبيلة لتقابل الانساب فيها ، وتجمع القبيلة على قبائل ، وربما سميت القبائل الجماجم ، وكثيرا ما اطلق علماء النسب على مجموعة من القبائل اسم شعب وفي حالة ربيعة آثرنا استخدام كلمة جمهرة لان الشعب يضم عددا من القبائل تنتسب الى جد اعلى واحد وفي حال ربيعة انتسبت القبائل الى عدة أجداد من اصل عدناني وقحطاني ، وحوت كل قبيلة كما قلنا على عدد من البطون ، والبطن ما أضيف الى اسمه كلمة " بنو " مثل بنو خالد وبنو كلب ، وبنو كلاب ، وبنو نفيل ، وبنو رميم ، وبنوحي ،وبنو قمران [٣].

---

(١) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١١٥.
(٢) - العمري ، المصدر نفسه ، ص: ١١٤ - ١١٥
(٣) - أحمد بن علي القلقشندي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان، ط . القاهرة ١٩٦٣ ، ص: ١٤ - ١٥ ، ٧٦ - ٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتألفت كل جماعة من هؤلاء من عدد من العشائر او الافخاذ أضيف الى كل منها اسم آل ، فمثلا كان في بني خالد : آل جناح ، آل الفبيبات ، آل الحبور ، آل المنيجة ، آل تبوت ، آل يزيد وغيرهم (١).

وكل آل حوى مجموعة من البيوت فآل فضل كان فيهم : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى ، وبيت حارث بن عيسى وغيرهم (٢) وكل بيت بدوره تألف من مجموعات اجتماعية أصغر حمل كل منها اسم اولاد مثل : اولاد محمد بن عيسى ، واولاد حدثية بن عيسى وغيرهم (٣).

على هذا انتمى الى جمهرة ربيعة اعداد كبيرة جدا من الجماعات القبلية المتفاوتة الاحجام عاشت حياة التنقل وضربت خيمها في مناطق شاسعة جدا امتدت من أطراف مكة في الجنوب وحتى بادية تدمر في بلاد الشام (٤).

لقد سكن الجميع في بيوت من الشعر الاسود واعتمدوا على التنقل وانتجاع المراعي ، فقوام حياتهم كان الرعي وكانوا يتنقلون بين عدة اماكن توفرت فيها المياه ، ولاندري متى كانت الجمهرة بكامل قبائلها تجتمع في مخيم واحد . ويستخلص من اوصاف المهمندار الحمداني ان امراء ربيعة من آل عيسى كانوا على درجة كبيرة من الثراء امتلكوا مع المواشي بعض الاراضي الزراعية لكن من آدار هذه الاراضي وكيف كانت علاقة أمراء ربيعة بفلاحيهم هذا ما لانعرفه .

---

(١) - القلقشندي ، المصدر نفسه (قلائد) ، ص ٧٧

(٢) - القلقشندي ، المصدر نفسه " قلائد) ، ص ٧٧

(٣) - القلقشندي ، المصدر نفسه (قلائد) ، ص ٧٧ - ٧٨

(٤) - العمري ، المصدر نفسه ، ص : ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اطنب العمري في وصف بيوت الشعر التي عاش فيها الامراء فذكر انها (بطنت بالديباج والحرير والوشم المرقوم وفرشت بالمفارش الرومية والقطائف الكرجيه ، ونضدت بها الوسائد وقامت حولها الولائد ، وشدت بوتد السماء أطنابها ، وأعدت لطوالع النجوم قبابها ، وأرخيت سجفها ، وشرعت أبوابها الى الهواء واستصرخت واستغيث بها لدفع اللأواء ، ورفعت عمدها[1]) .

و استطرد العمري بعد هذا يصف كرم وحجم النيران التي كان يشعلها الامراء في الليل حتى يهتدي اليها الضيوف وأصحاب الحاجات ، ولجأنا الى مواد العمري نتفحصها جملة جملة حتى نعرف كيف كان حال بيوت البداة العاديين من غير الامراء فلم نجد جوابا من أي نوع ، ونفترض ان بيوت البداة العاديين كانت ايضا تصنع من الشعر الاسود لكن أثاثها كان ادنى بكثير من أثاث بيوت الامراء من حيث النوعية والقيمة .

ومن المرجح ان اقامة المعسكرات ومضارب البدو التابعة لآل ربيعة لم تتحكم بها مسألة الكلأ والماء بقدر ما تحكمت بها الحاجات الامنية للسلطنة المملوكية .

يقول العمري (وهؤلاء آل عيسى هم في وقتنا ملوك البر مابعد واقترب ، وسادات الناس ، ولاتصلح الا عليهم العرب ، قد ضربوا على الارض نطاقا ، وتفرقوا فجاجها حجازاً وشاماً وعراقاً . .....

قد داروا على البلاد اسواراً حصينة وسواراً على معصم كل نهر ، وعقدا في جيد كل مدينة ، وأحاطوا بالبر من جميع اقطاره وحالوا بين الطير المحلق وبين مطاره ، وحفظوه من كل جهاته

---

(١) - العمري ، المصدر نفسه ، ص: ١٢٥ - ١٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرسوه من سائر مواقعه وآفاقه ، وصانوه من كل طارق يتطرق وسارق يتسلل أو يتسرق ، فلا تبصر الا مرسى خيام[1]) .

لقد تولى على هذا رجالات ربيعة أمن البادية فكانوا يحرسونها داخليا ويلقون القبض على كل متمرد يسعى الى الفرار عبرها ، كما كانوا يقدمون الملجأ والامن لجميع الفارين من العراق والحجاز وغيرهما ، ولهذا اغدقت السلطنة على منحهم الاقطاعات والأعطيات والمساعدات[2].

ومثل قبائل عرب ماقبل الاسلام ، امتلك أمراء بني ربيعة وغيرهم أعدادا كبيرة من العبيد والجواري ، وفي اخبار ماقبل الاسلام وصلتنا روايات تعلقت بزواج العبيد وانجابهم، وبالزواج من الجواري، ومن ثم المكانة الاجتماعية لابن الجارية ، كما ان اخبار ما قبل الاسلام تحدثت عن وجود جماعة من الموالي داخل كل قبيلة ولنا ان نفترض ان مثل هذا قد وجد لدى قبائل ربيعة وان عددا كبيرا من المشاكل الاجتماعية قد عاشتها القبائل ، انما من المحزن ان مصادرنا اغفلت الحديث عن هذه الامور وفقط أشار العمري الى العبيد والجواري من باب المدح والافتخار ليس أكثر[3] .

ولاشك ان قبائل ربيعة كان لها علاقاتها بسكان المدن والارياف الشامية اقتصاديا وربما اجتماعيا ، لكن مانوع هذه العلاقات ؟ هذا مالانعرفه .

لابد ان تجارا من المدن كانوا يمضون الى مخيمات البداة للبيع والشراء ، وغالبا ماكان التاجر يقوم بأدوار اجتماعية وثقافية أكبر وأمضى تأثيرا من العمل التجاري ، وفصل الربيع كان هو فصل النشاط الأكبر بالنسبة لأفراد القبائل ، ففي هذا الفصل كانت جماعات من مختلف العشائر تنتجع المراعي وتخيم على مقربة

---

(١) – العمري ، المصدر نفسه ،ص : ١٢٤ – ١٢٥.

(٢) – العمري ، المصدر نفسه ، ص : ١٢٥

(٣) – العمري ، المصدر نفسه ، ص : ١٢٤ – ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من بعضها بعضا ، واعتاد الشاميون اطلاق اسم حلة على المخيم ، وكانت تحدث زيارات بين رجالات الحلل ، كما كانت تحدث بعض أعمال السرقة والغارة وغالبا ما أثار الخلافات والحروب مع أعمال السرقة النزاعات على المراعي والمياه ، ونزاعات تعلقت بالحب والزواج والعشق ، فقد . كانت تحدث لقاءات خفية بين فتيان العشائر وفتياتها وكان بعض الفتيان يشببون بالفتيات الامر الذي كان يخلق قصص حب ومشع للاختلاط بين المحب والمحبة وفي بعض الاحيان كانت الامور تطور الى حد الحرب والغارة (١). والحروب شابهت حروب الجاهلية حيث كان الخصوم يصطفون فريقين ويبدأ القتال ببعض اعمال المبارزة وغالبا ما كان المبارزون يرتجزون الشعر عند نزولهم الى ميدان المعركة يفتخرون برجزهم بشجاعتهم وبمآثر قومهم وبمضاء سيوفهم ويتهددون بالموت كل من يتحداهم ، وهنا تنقلب مواجهة القتال الى اشبه بمباراة حيث يكف العسكران عن القتال ويحجمون عنه لمراقبة المتبارزين ، وغالبا ما تستغرق أعمال المبارزة بضع ساعات ، وكان قتل فارس بارز في احد الطرفين كافيا لتحقيق النصر لطرف والهزيمة لطرف آخر (٢). واعمال المبارزة كانت تتم بين الفرسان ، وهؤلاء الفرسان كان سلاحهم الرئيسي السيف ، وكانوا يتدرعون ويضعون على رؤوسهم البيض ويحملون في أيديهم الدرق (٣) وكان الفريق المنتصر يتولى أسرى العدد الاكبر من خصومه من نساء ورجال أحرار وعبيد ، وينتهب مواشي وممتلكات الفريق المهزوم ، وغالبا ما جرى معاملة الاسرى بشكل تمت المحافظة فيه على كرامتهم أي لم يعاملوا معاملة الرقيق واعتني بالنساء وكانت النساء من الاسرى يفرزن جانبا وتوكل امور حراستهن الى نساء من الفريق المنتصر ، وكانت كل امرأة تقع في الاسر تقيد بقيود معدنية توضع في قدميها (٤).

---

(١) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٢- ١٩٣٣

(٢) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٣ - ١٩٣٤.

(٣) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٤

(٤) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٥ - ١٩٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اعتادت النساء البدويات على وضع برقع على وجوههن كنوع من أنواع الحجاب ، وحظيت المرأة بين البداة بمكانة تمتعت في ظلها بشطر كبير من حريتها حيث ماكان بامكان احد حتى أبيها ارغامها على الزواج ممن لاتريد ان تتزوج منه (١).

لقد كان بعض البداة يغتنمون ظلام الليل حيث كان يلتقي المحبون وسواهم ويتصلون ببعضهم كل اتصال(٢).

ولم يكن في مخيمات البداة اماكن خاصة بالاستحمام أو التغوط وغالبا ما كانت النساء يخرجن جماعات في الليل بعيدا من المعسكر للتغوط(٣).

كان مهر العروس يساق من النوق في بعض الاحيان تجاوز العدد مائة ناقة من نوع محدد فاخر واعتبر بداة عصرنا أفخر النوق الحمر فيها(٤).

ان الاسماء التي استخدمها البداة بقيت عربية محضة وقليل جدا منها ماكان قد كسب لونا اسلاميا فقد كان هناك من حمل أسم اسد، وطراد ، والاعسر ، ومهارش ، وخفاف ، وكانت هناك تحالفات موسمية بين بعض رجالات المعسكرات ضد البعض الاخر ، وكان الناس يتزاورون للسمر او لشرب الخمر في الحانات فقد انتشرت الحانات داخل المخيمات(٥) ، واذا لم يتناول الفتيان الخمرة بالحانات كانوا يحملون على الشراب ويخرجون كزمرة للتنزه حيث كانوا يختارون مكانا فيه ماء وظل ، ويبدو انهم كانوا يكثرون من كميات الخمر اثناء

---

(١) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٦ - ١٩٣٧.
(٢) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٨ - ١٩٣٩.
(٣) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ص ١٩٣٩ - ١٩٤٠
(٤) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ص ١٩٤٠
(٥) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٣ - ١٩٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنزههم[1]، ولدى عودة المتنزهين نحو حللهم كانوا يقطعون الطريق وهو يتسابقون برهان او بدون رهان ، فالسباق واعمال الفروسية احتلت دوما مكانا ساميا لدى رجالات القبائل العربية وقد اعتنى العربي عناية فائقة بسلاحه وفرسه[2].

كانت الحياة في كل حلة نشطة فيها تدفق وعطاء وفيها كل ساعة ماهو مثير ، يبعث على تغيير مسار العمل ومناحي النشاط ، فقد ياتي من ينذر الحلة بمغير أو بحادث سطو أو عدو بعض الحيوانات المفترسة على الأغنام او الرعاة[3].

لقد كان البداة مقاتلين بشكل طبيعي واستطاع بعض امراء بني ربيعة ان يحشدوا ما لايقل من أربعة آلاف فارس ، وإذا كان بعضهم قد استطاع ذلك فان المجموع كانت امكاناتهم القتالية اكبر بكثير . وينقل المهمندار الحمداني وصفا لبعض فرسان آل ربيعة حيث جاؤوا ليجري استعراضهم من قبل السلطان بدمشق كانوا (شاكين في السلاح على الخيل المسومة والجياد المطهمة وعليهم الكزغندات الحمر من الاطلس المعدني والديباج الرومي وعلى رؤوسهم البيض مقلدين بالسيوف بأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور وامامهم العبيد تحتل على الركائب ويرقصون بتراقص المهارى ،وبأيديهم الجنائب[4].

ووصفهم ايضا اثناء توجههم للقتال فذكر انهم كانوا يسيرون الظعائن والشيوخ وراءهم وكانت (معهم مغنية تعرف بالحضرمية وكانت لها سمعة طائرة في زمانها رأيتها سافرة من الهودج[5]، وهي تنشد بعض الشعر الحماسي الجاهلي .

---

(١) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ،ص ١٩٣٤- ١٩٣٥.
(٢) - ابن العديم ، المصدر نفسه (بغية) ، ص ١٩٣٥.
(٣) - ابن العديم ، المصدر نفسه ، (بغية)، ص ١٩٣٨- ١٩٤١.
(٤) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢.
(٥) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢.
- القلقشندي ، المصدر نفسه ،ج ٤ ، ص ٢٠٩- ٢١٠
- المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ،ج ١ ، ص ٦٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واعتاد العرب اركاب النساء في الهوادج ايام الحرب ليحرضن ابناء عشيرتهن على التضحية بالنفس والقتال بكل شجاعة ، ففي معركة الجمل وضعت السيدة عائشة ام المؤمنين في هودج على ظهر جمل وظل القتال مستعراً حتى قتل الجمل وأنزل الهودج الى الارض وقد ملىء خارجه بالنشاب والحراب(١). والهودج كان بمثابة حجرة مصنعة من أعواد الخشب أو سعف النخل ، كان يوضع على ظهر الجمل ويشد ويفرش من داخله ويزخرف وتوضع في داخله عدة مزاود فيها حاجات المرأة وهذه المزاود التي تعلق على الطرفين تؤمن الحماية والتوازن(٢).

هذا وان وضع المرأة في الهودج وتسيير الظعائن خلف المقاتلين يذكرنا ايضا بما اعتاده عرب ماقبل الاسلام اثناء المسير الى الحرب فلقد كان العربي يفتخر كثيرا بحفظه للظعائن والقتال دونهن فربيعة بن مكدم خلدته أخبار أيام العرب في الجاهلية ومنحته لقب فارس الظعينة أو حامي الظعينة (٣) .

أضف الى هذا ان دور الظعينة في الهودج التي جلست تنشد الشعر الحماسي للمقاتلين هو استمرار لتقاليد ماقبل الاسلام وفيه شبه كبير بما روته المصادر عن يوم حليمة ففي هذا اليوم التقى المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بالحارث الغساني واشتبك الفريقان في القتال مدة أيام ولما رأى الحارث ذلك بحث عن طريقة يحرض بها جنده ، فدعا

---

(١) - الطبري - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص : ٥٠٨ - ٥٣٤.

(٢) - احمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ط ، دمشق ١٩٨٣، ج١ ، ص ٢٣٤.

(٣) - محمد احمد جاد المولى ورفيقاه - أيام العرب في الجاهلية ، ط ، بيروت دار الفكر ، ص / ٣١٢ - ٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بابنته حليمة وكانت من اجمل النساء واعطاها طيباً وجعلها تحمل علامة خاصة بها وأمرها ان تطيب من مر بها من جنده ثم نادى يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي وبالفعل تدافع المقاتلون بحماس منقطع النظير وتمكن احدهم من قتل المنذر فاجتز رأسه وجاء به الى الحارث فزوجه حليمة (١).

تبرهن معنا حتى الان ماذهبنا اليه من احتفاظ القبائل العربية بعادات ماقبل الاسلام ، ولم تتبدل هذه العادات حتى نهاية العصر العثماني ، ولحسن الحظ قام في مطلع هذا القرن احمد وصفي زكريا وهو مهندس زراعي بالتجول بين قبائل بادية بلاد الشام وارياقها كما زار اليمن وتجول بين قبائلها وكان في الوقت نفسه واسع الثقافة استطاع ان يعود الى عدد كبير من كتب التراث وقد دون مشاهداته في كتاب كبير أطلق عليه اسم عشائر الشام ومن الممكن دمج التفاصيل التي أوردها بالاشارات التي رواها العمري عن المهمندار الحمداني للحصول على تصور لبعض جوانب الحياة الاجتماعية عند بداة بلاد الشام ، انما قبل الاقدام على ذلك يحسن أن نشير الى أن البادية ومضارب البدو لم تعرف الاستقرار وظل المهاجرون يقدمون من شبه جزيرة العرب حاملين معهم تراث الاوائل ودما جديدا ، وكان المهاجرون الجدد يزاحمون البداة الاقدم في البلاد ويدخلون معهم في صراعات عسكرية ، ويضغطون دافعين بالقبائل القديمة للتوجه شمالا ، لقد رأينا قبائل ربيعة تنتقل من فلسطين نحو جنوب دمشق فوسط بلاد الشام وهذه العمليات كانت تزيد من دمج القبائل ببعضها بعضا مما ساعد على توحيد العادات والامثلة التي سنضربها والشواهد التي سنسوقها هي خاصة عامة بالوقت نفسه (٢).

---

(١) – جاد المولى ، المرجع نفسه ،ص ٥٤ – ٥٥

(٢) – المقريزي ، المصدر نفسه (السلوك) ج١ ،ص ٦٧٤ ، ٦٨١ – ٦٨٢
ج٢، ص ٧٩٨ – ٧٩٩
– ابو المحاسن ، المصدر نفسه ،ج ٧ ، ص : ٣٠٠
ج ١٠،ص : ٣٢١
– محمد علي خليل عطا الله ، نيابة غزة في العهد المملوكي ،ط ، بيروت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تعرف القبائل العربية أي نوع من انواع الطبقية فجميع افراد القبيلة يشعرون بالمساواة في الحقوق والواجبات وكان لكل عشيرة من العشائر أو قبيلة مقدم خاص بها أطلق عليه اسم " الشيخ " وفقط حمل سادات ربيعة لقب الامارة وقد اوضحنا سبب حصولهم على هذه المرتبة وما زال سادات قبائل بلاد الشام في أيامنا يحملون لقب شيخ وفقط سادات الموالي (أي ربيعة) يحملون لقب أمراء مع أن هؤلاء الامراء قد يكونون اقل ثروة وأتباعا وقوة من بعض الشيوخ[1]. والمشيخة ليست وراثية بقدر ما ارتبطت بالجدارة والشجاعة والثروة ، فقد سأل أحدهم في عصرنا واحدا من رجالات البدو كيف يصبح بعضكم شيوخا ؟ فأجابه وهو يهز سيفه بالفهم السوي والزند القوي وهذا لايختلف عما ساد في جاهلية العرب قال الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما
وصيرته ملكا هماما

وقال عامر بن الطفيل :

اني وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر من وراثة أبى الله ان اسمو بأم ولا أب
ولكنني احمي حماها واتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب[2]

وكان الشيخ هو الذي يتولى فض الخلافات بين افراد عشيرته وغالبا ماكان بيته اكبر بيوت العشيرة يظل يستقبل الناس ليل نهار من رجالات العشيرة وغيرهم ، والشيخ هو الذي يحافظ بمهابته وقوة نفوذه وثروته على الالفة والوئام بين افراد العشيرة ،يجبر

---

(١) - زكريا ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) - عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، عيون الاخبار ، ط. القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٢٢٧.

- زكريا - المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدخيل ، ويكشف السرقات ويقسم الغنائم بين الغزاة ، ويحمي الضعفاء والفقراء ، ويبارك عقود الزواج ، ويعقد راية القبيلة معلنا الحرب ، واشترط فيه نقاء النسب ، كثرة الاقرباء، الشجاعة والاريحية ورجاحة الفكر وطلاقة اللسان والحلم ورباطة الجاش يقول شاعر بدوي من عصرنا :

الشيخة ماهي بالجوخه	ولابكبر العباية يابنيه
الشيخة صب التهذاوي	زي العيون المروية
الشيخة جر المناسف	في السنين الردية (١)

وهذه المعايير هي نفسها لم تتبدل عما كانت عليه قبل الاسلام يقول الشاعر الجاهلي الافوه الاودي :

لايصلح الناس فوضى لاسراةلهم	ولاسراة اذا جهالهم سادوا
تلفى الامور بأهل الرشد ماصلحت	فان تولوا فبالاشرار تنقاد
اذا تولى سراة القوم امرهم	نما على ذلك امر القوم فازدادوا

وقال شاعر آخر يصف أحد السادة :

يلقى السيوف بوجهه وبنحره	ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف استطرلشبا القنا	فعقرت ركن المجد ان لم تعقر
واذا تأمل شخص ضيف مقبل	متسربل اثواب عيش اغبر
اوما الى الكوماء هذا طارق	نحرتني الاعداء ان لم تنحر

---

(١) - زكريا ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٦- ١٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول الشاعر لقيط بن يعمر في وصيته لقومه من اياد :

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الزراع بأمر الحرب مضطلعا
لامترفا ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
لايطعم النوم الا ريث - يبعثه هم يكاد سناه يقسم الضلعا
مسهد النوم تعنيه اموركم يروم منها الى الاعداء مطلعا
ما انفك يحلب هذا الدهر اشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأي لاقحما ولاضرعا
وليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

وقال شاعر آخر :

لا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد .

وعرف عدي بن حاتم الطائي سيد القبيلة بقوله :

هو الذليل في نفسه ، الاحمق في ماله ، المعني بأمر عامته (١)
وغالبا ماكان الشيخ ثريا ومصادر ثروته أتت من الغنائم ومما كان يجمعه من بيوتات عشيرته ،، وجاء في كتب السيرة النبوية ان قصي بن كلاب بعدما استولى على مكة وأسكن قبيلته من قريش فيها صارت القبيلة تخرج له خرجا تساعد به على الرفادة واطعام الحاج وسقايتهم (٢) . ولم يملك الشيخ حق الامر والطاعة العمياء ، بل اعتمد على اقناع افراد عشيرته بمختلف وسائل الاقناع فاذا ما اخفق هدد بالتخلي عن المشيخة أو بقتل نفسه ، وهذه المفاهيم ظلت قائمة حتى بعد قيام الاسلام فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يندب الناس الى القتال وغير ذلك ندبا (٣).

---

(١) - ابن قتيبة ، المصدر نفسه ،ج١،ص ٢٢٥ - ٢٢٧
- لقيط بن يعمر الايادي ، ديوان لقيط ،ط ، بيروت ١٩٧١،ص ٤٧-٤٩
(٢) - عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ،ط ، القاهرة،١٩٥٥،ج١،ص ١٣٠
(٣) - زكريا ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٨٩- ١٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتأثرت مكانة شيوخ القبائل ومقدميها بثرواتهم وعدد أتباعهم فاذا ما كثر اتباعهم وكبر حجم ثرواتهم ازداد عدد عبيدهم وخدمهم فالعبيد كانوا اشبه برجال الادارة العاملين مع رئيس العشيرة ، والبدوي بطبعه يميل الى البذخ والكرم ، ولهذا كان الشيوخ يضاعفون حجم بيوتهم ، ويتميز بيت الشيخ داخل المخيم لا بأثاثه فهذا لايبدو الا من الداخل ، انما يتميز بموقعه المتوسط وبحجمه الكبير المتميز وبعدد اعمدته وبمظاهر الحياة والحركة حوله وبيت الشيخ مثله مثل اي خيمة بدوية صنع من شعر الماعز الاسود ، يقول الله تعالى في القرآن الكريم واصفا بيوت البدو : " وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكن ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين(١) " .

ولم يتغير حتى الان شكل البيوت البدوية ولا اثاثها ، ومع ان الخيمة البدوية حارة في الصيف ، قارصة البرد في الشتاء لايمنع الرطوبة ولا المطر قد تسقطه العواصف على رؤوس اصحابه ومع ذلك يؤثر البدوي سكناه وحتى ايامنا هذه عندما اقدمت بعض الدول العربية على محاولات تحضير البداة ببناء مساكن حديثة لهم ، آثر هؤلاء الاقامة في خيمهم واستخدموا البيوت الحديثة كزرائب للحيوانات ، لابل ان بعض القادة السياسيين يفخرون في الاقامة بالخيمة واستقبال زوارهم فيها .

الحال لم يتغير منذ الازلفقد بنى معاوية بن ابي سفيان قصر الخضراء في دمشق وجلب اليه زوجته ميسون ابنة بحدل الكلبية .

---

(١) - سورة النحل ، الاية ٨٠

ومع هذا ظلت ميسون لاتشعر بالراحة والغبطة في الخضراء بل كانت تحن الى الخيمة وتقول :

لبيت تخفق الارواح فيه ... أحب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب الي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق دوني ... أحب الي من قط ألوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحب الي من أكل الرغيف
واصوات الرياح في كل فج ... أحب الي من نقر الدفوف
وبكر يتبع الاظعان صعب ... أحب الي من بغل زفوف
خشونة عيشي في البدو أشهى ... الى نفسي من العيش الظريف(1)

وكانت نساء البدو يتولين نسج البيوت واعداد أثاث البيت ، ويقسم البيت الى عدة أقسام : قسم يتصدر مدخله يجلس فيه الرجال ، وقسم مجاور يفصله من هذا القسم هو خدر للنساء ، ثم هناك قسم لمؤن البيت والأثاث الزائد وهناك قسم اخير كانت توضع فيه صغار المواشي ، وحوى كل بيت عددا من قرب الماء المصنعة من جلود الماعز أو غيرها .
وكان البداة وما زالوا يولون العمود الرئيسي في البيت مزيدا من الاهتمام فالى العمود كان يلجأ الملتجئون وطلاب الجوار والأمن ، فاذا ما دخل مستغيث او حتى مقترف جناية الى داخل البيت وأمسك بالعمود الرئيسي عد آمنا له كل الحرمة وحقوق الجوار ، وقديما حين رثت الخنساء أخاها صخرا قالت معتزة بسمو عمود بيته وارتفاعه :

رفيع العماد طويل النجاد ... ساد عشيرته أمردا(٢)

---

(١) - المصدر نفسه ،ج١ ، ص١٩٦ .
(٢) - ديوان الخنساء ، ط . بيروت ،دار صادر ،ص :٣٠
- العمري ، المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعروف ان خيمة البدوي كانت تشد بحبال ربطت الى اوتاد غرزت عميقا في الارض وأطلق البداة على الحبل الممدود الطنب وللطنب حرمته لدى البداة فعندما ينزح بدوي عن ديار عشيرته الى ديار عشيرة أخرى غريبة عنه أو لعمل يقوم به بعد دخوله الى معسكر القبيلة التي قرر الالتجاء اليها الامساك بطنب خيمة احد افرادها أو شيخها وهذا كان كافيا لمنحه الجوار له ولأفراد اسرته واذا سمح له بالسكنى غالبا مايقوم ببناء خيمته الى جوار الطنب الذي التجأ اليه وهذا يعطيه حق الولاء والحماية ، وكان الاعتداء عليه اعتداء على العشيرة التي التجأ اليها ، قد يثير الحرب بين العشائر فهو عند البداة من أكبر الجرائم الجنائية (١) . والمستعرض لأخبار ايام العرب قبل الاسلام يجد حرب البسوس تحتل مكان الصدارة فقد قيل استمرت هذه الحرب اربعين عاما ، وثارت هذه الحرب بسبب اقدام جساس ابن مرة على قتل كليب وائل زوج اخته وسيد قبائل معد في أيامه لانه اعتدى على ناقة امرأة كانت في جوار آل جساس بيتها مقام على طنب بيت خالة جساس (٢) . وحافظ البداة على بساطة ملابسهم بشكل عام ، فاللون الابيض هو المفضل لديهم ، وقد يلبس البدوي كساء واحدا في الصيف والشتاء او يتخذ للشتاء كساء ينسج من الصوف وللصيف آخر تنسج من القطن ، ونادرا ما استخدم البداة السراويل او الملابس الداخلية انما كانوا يستخدمون ما حمل اسم العباءة وهي كساء ملون يصنع من وبر الجمال أو من صوف الاغنام الملون ، وقد يكون مبطنا بجلود الغنم المدبوغة أو غير المدبوغة وقد تكون العباءة من الجلد ويحب البدوي الثوب الفضفاض الواسع الاكمام الطويل ، وطول الثوب وان عده الاسلام من الخيلاء أوجدته الحاجات الامنية فهو كالذيل يعفي أثر الماشي على الارض ، وقد يستخدم البدوي الحزام لحمل سلاحه وليربط به اطراف ثوبه اثناء امتطائه لفرسه واعتاد البداة أن يضعوا قطعة من القماش

---

(١) - العمري ، المصدر نفسه ،ص ١٢٥
- زكريا ، المصدر نفسه ،ج١ ، ص ١٨٧

(٢) - جاد المولى ، المرجع نفسه ، ص ١٤٢- ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القطني مربعة على رؤوسهم وتربط بعقال من الصوف أو من الجلد او من نسيج الليف ، وقد يتأنق بعض البداة في ألبستهم مقلدين بها سكان المدن ورجالات السلطة ، ولم تختلف ألبسة النساء كثيرا عن ألبسة الرجال لكن المرأة اعتادت ان ترتدي عدة أثواب جملة واحدة ثوب فوق الاخر ، والبدويات يمشين حفاة أو ينتعلن نعلا رقيقا صنع من الجلد بكل بساطة (١).

يلاحظ في المجتمعات البدوية ان النساء دوما اكثر عددا من الرجال ذلك ان الرجال بحكم اختصاصهم بمهنة القتال وتعرضهم للمخاطر في مختلف المناسبات وارتفاع عدد النساء جعل البدوي يواجه معضلة صعبة ، وقديما حاول بعض البداة ايجاد حل لهذه المعضلة من طريق التخلص من هذه الانثى بوأدها او بالاخذ بمبدأ تعدد الزوجات وقبل الاسلام كان تعدد الزوجات غير محدد كما كان العرب يعرفون المتعة ويطبقونها ، وبالنظر لمكانة المرأة ولأنها الين جانبا وأرق طبعا احتاجت النسوة الى الحماية ومن هنا ارتبطت بعض صفات الفروسية لدى العرب بحماية الظعينة والنخوة والشهامة والدفاع عن العرض .

واعتادت البدويات على مساندة الرجال حتى في القتال احيانا ، والبدوية على رقتها وسوء معاملتها في كثير من الاحيان من قبل البدوي هي أكثر تعلقا بالبداوة من الرجال ، ومازالت البدويات حتى في ايامنا يرفضن الزواج من رجل من الحضر فاذا ما خطبت احداهن من قبل فلاح او ابن مدنية رفضت قائلة : (مكاك باب ما اريدنه) أي انه جبان اذا نام اغلق باب بيته والجبان لايليق بالبدوية ، ورأينا من قبل ماقالته ميسون بنت بحدل واخرنا الى هنا قولها :

---

(١) - زكريا ، المصدر نفسه ، ص : ٢٠٣ - ٢٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحـزق من بني عمـي نحيـف   أحب اليَّ مـن علـج منيـف(١)

وتعتني البدوية بمظهرها الخارجي بقص الشعر او بتجديله او بابرازه فوق الجبين ، وتتصرف البدوية بكل حرية وبلا قيود ، فالقيود التي وضعت نفسها ضمنها المرأة في المدينة تحررت منها البدوية تمام التحرر وتستخدم البدويات الحلي الفضية وأحيانا الذهبية والحلي الأساسية هي الاقراط والحجل وأحيانا الخزام للانف وقد يستخدمن الاطواق والعقود والقلائد خاصة المصنعة من النقود الذهبية او الفضية القديمة ، والبدوية في الغالب متوسطة الجمال بجاذبية خاصة بشرتها تظل نضرة لانها لم تتعرض للمساحيق ، والبدو بشكل عام لم يعرفوا استخدام الصابون والاغتسال لديهم بالماء فقط ، وهو موسمي في غالب الاحيان ، واعتادت البدويات على استخدام الحناء لتزيين الأكف والاقدام وعلى استخدام الاثمد للتكحيل ولهن ولع متميز بالوشم ويستخدم البدو الوشم على الوجوه كنوع من انواع تحديد الهوية فلكل عشيرة وشمها الخاص(٢)، وتمتاز البدوية بعزة النفس وبالتمسك بالاخلاق والحفاظ على العفة ، وهي مخلصة لأهلها ، نشطة تقوم بأعمال البيت وتنسج النسيج وتساعد في حلب المواشي وتحضير الالبان والسمن ومع هذا يبدي الرجل داخل البيت تبرمه بها انما خارج البيت هي موضع احترام من قبل البدو جميعا لايجوز مسها بأذى ،تعطي حق الجوار وقد تتوسط بين الفرقاء المتصارعين ، والبدوية شجاعة قد تسير وحدها في البراري وقد تقوم بمفردها بالعناية بقطيع من الماشية ، ولاتعرف البدويات الراحة حتى في فترات الحمل أو بعد الوضع مباشرة لذلك غالبا ما يتعرضن للامراض والوفاة المبكرة بشكل مفاجىء ، وعلى العموم لاتستر البدوية وجهها الا احيانا ببرقع بسيط ، وتشكل البدويات في المنزل الواحد رابطة تعتني بالحلة وبتربية الاولاد وباحترام الشيوخ والعجز(٣).

---

(١) - زكريا - المصدر نفسه ،ج ١ ، ص: ٢٠٦،١٩٦

(٢) - زكريا - المصدر نفسه ،ج ١ ، ص: ٢٠٦ - ٢٠٧

(٣) - زكريا - المصدر نفسه ، ج ١ ،ص: ٢٠٨ - ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتحمل البدوي المشاق وهو قليل العرض للامراض بحكم جفاف البيئة وعيشه المستمر في الهواء الطلق واقدام البدوي على استخدام الادوية قليل جدا ومع هذا فالبداة بالعادة الموروثة عرفوا بعض الخصائص الدوائية لعدد كبير من الاعشاب والحشائش ومما يزيد من متانة ومناعة البدوي نوعية الاطعمة التي يتناولها وعفاف البدوي واقدامه على الزواج المبكر وانعدام الهموم ، فطعام البدوي بسيط وقد لاياكل البدوي الطعام المطهو بالسنوات مرة واحدة بل ان بعضهم لم ياكل الخبز قط ، قوام حياتهم اللبن والتمر لذلك لم تتاثر اجسامهم باختلاف انواع الاطعمة المركبة من الحلو والحامض والحار والبارد وعلى العموم مختلف البداة ضعيفوا البصر، ومرد ذلك تعرضهم لوهج الشمس وذرات الرمال الكثيرة ، ولذلك نال شهرة واسعة بينهم من كان حديد البصر ، وهكذا وجد لدى عرب ماقبل الاسلام حكاية زرقاء اليمامة وسجل بعض الرحالة في مطلع هذا العصر ان خير هدية يمكن تقديمها لأمير بدوي هي المنظار المستخدم لأغراض عسكرية ، والانحرافات الجنسية لايعرفها البداة، وتبقى على رأس وسائل العلاج لدى البداة ما اعتمد على قاعدة آخر الدواء الكي ، وبرع بعض البداة في استخدام الكي وحتى في خياطة بعض الجراح(١).

وأشرنا قبل قليل الى ان الزواج المبكر شائع في اوساط القبائل البدوية ويعرف البداة ما اعتاد عليه سكان المدن من طلب البنت (الخطبة) ودفع المهر الذي قد يكون عاليا يتالف من عدد كبير من الجمال والمواشي وفي بعض الاحيان يكون الزواج عبارة من عملية تبادل أختين ، ويحبذ البداة الزواج من الاقارب ، وغالبا لايعمد البداة العاديون الى الاخذ بمبدأ تعدد الزوجات والطلاق أيضا غير منتشر مثل انتشاره في أوساط المجتمعات المستقرة(٢).

---

(١) - زكريا ، المصدر نفسه ،ج١، ص : ٢٠٩ - ٢١١

(٢) - زكريا ، المصدر نفسه ،ج ١ ، ص : ٢١٢ - ٢١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحتفل البدوي بالعرس ويوليه عناية كبيرة ، وقد يشترك بالاحتفال جميع سكان الحلة من رجال ونساء وصبيان ، يتساعدون جميعا في تقديم الهدايا الى العريس لاعداد الاطعمة للمحتفلين ، والاحتفال بالعرس مهرجان تنشد فيه الاشعار ويرقص فيه الرجال والنساء رقصات ايقاعية خاصة (الدبكة) ويتخلل ذلك اعمال الفروسية بمرح الفرسان على ظهور الخيل ولدى احضار العروس يتوجه موكب من الفرسان والنساء على هوادجهن ، النساء يغنين والرجال يقومون بأعمال الفروسية والسباق ، وفي ليلة العرس تلبس العروس اجمل ما لديها وقد تستخدم بعض العطور انما ببساطة ،وعندما تحضر الى بيت زوجها يستمر المهرجان وتقدم الهدايا وغالبا ما ينثر على العروسين الدراهم ، وقد تستمر احتفالات العرس مدة اسبوع وترتبط المسألة بثروة العريسين ووضعهما الاجتماعي .

لم تتغير اوجه النشاط الحياتية عند البداة ومازالت منذ ماقبل الاسلام وحتى الان محافظة على جوهرها ، فالبدوي يشغل وقته بأعمال الرعي والغزو والصيد . والقنص والفروسية من طراد وجلاد وسباق الخيل والجمال ، وتشغل هذه الاعمال غالب أيامه خاصة في الربيع والصيف ، وهو يمضي لياليه امام بيته حيث كان البداة يتحلقون امام بيت الشيخ أو امام بيت من البيوت الكبيرة في الحلة يتذاكرون الاخبار الداخلية والخارجية يتحدثون عن مواشيهم وخيولهم وكل منهم يصف ماولدت مواشيه وما تعانيه من امراض وكأنه يتحدث عن أحد افراد اسرته . ثم يأخذون باستعراض أخبار مختلف افراد العشيرة رجالا ونساء وأطفالا فيصف احدهم حالة مريض من المرضى ، او نزول حادثة او كارثة في أحد افراد القبيلة ، وقد يتحدثون من قصص الحب وسواها داخل حلتهم وخارجها وقد يطرق الحلة ضيف من الضيوف ، او انسان غريب فيتشوق الجميع لمعرفة هوية هذا الضيف وما جاء من اجله ، ذلك عندما يحدث مثل هذا ترى معظم افراد القبيلة يذهبون الى بيت الشيخ أو المقدم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحصل احيانا على كميات من الحبوب وتقوم البدوية بطحن ما تحتاج اعداده برحى بدويه ، وغالبا ما يخبزون الخبز فطيرا واذا لم تتوفر لدى البدوي رحى للطحن هرس الحبوب هرسا باحدي الادوات ومن ثم اعده على شكل قرص شواه على النار واذا ما توفر لديه بعض السمن أو الزيت أو الزبد صب قليلا منه على هذا القرص وتناوله وهو ساخن ، ووصف ابن خلدون حياة البداة في أيامه مقارنا أوضاعهم المعاشية بأوضاع سكان المدن والارياف والبدو عند ابن خلدون (هم المنتحلون للمعاش الطبيعي ... مقتصرون على الضروري في الاقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي او كمالي ، يتخذون البيوت من الشعر والوبر اوالشجر أو من الطين والحجارة غير منجرة انما هو قصد الاستظلال والكن لاماوراءه وقد يأوون الى الغيران والكهوف ،

وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة الا ما مسته النار ... والعرب أبعد نجعة واشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الابل فقط (١)) .

والبدوي بطبعه كريم متلاف الا في استخدام الماء فهو يقتر فيه ولايستخدمه الا للشرب اطفاء للعطش ، او لاعداد طعام ضروري ، اما للتنظيف او لازالة الدهن وغيره من بقايا الطعام فهذا امر غير وارد على الاطلاق اذا مافرغ البدوي من طعامه مال الى الطرف الخيمة فمسح يديه مرارا ومسح وجهه واعتبر نفسه قد حصل على النظافة ، والبدوي متعلق بحياة الشقاء هذه غاية التعلق وغالبا مايرى فيه ذورة النعماء ومنتهى السعادةوالخير ، فقد لقي احدهم بدويا أشعث اغبر فسأله من (أين أقبلت ، قال من هذه البادية أرني لعمر الله ماتريد بها بدلا عنها ولاحولا قد نفحتها القراوات وحضتها الفلوات

---

(١) - ابن خلدون ، المصدر نفسه ، (مقدمة) ، ص ٢١٢ - ٢١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا يملولح ترابها ولايمعر جنابها ، ليس فيها اذى ولا قذى .. ونحن فيها بأرفه عيش وأرغد معيشة ، قلت ، وماطعامكم قال : بخ ... بخ عيشنا والله عيش تعلل جاذبه وطعامنا اطيب طعام واهنئه وامروءه . الفث والهبيد والفطس والصلب والعنكث والظهر والعلهز والذآنين ، والعراجين " كلها(من انواع النباتات الصحراوية) والحسله والضباب وربما والله أكلنا القد واشتوينا الجلد فما ارى أن أحدا احسن منا حالا ولا أرخى بالا ولا اخصب حالا فالحمد لله على مابسط علينا من النعمة ورزق من حسن الدعه أو ماسمعت بقول قائلنا :

اذا ما أصبنا كل يوم مذيقة ... وخمسة ميرات صغار كنائز
فنحن ملوك الناس شرقا ومغربا ... ونحن اسود الناس عند الهزاهز
وكم متمنٍ عيشنا لاينالـه ... ولو ناله أضحى به جد فائز(1)

ولندرة الطعام في البادية ولصعوبة العيش فيها بات قرى الضيف والكرم وحسن الاستقبال والحفاوة امور متلازمة مع حياة البداة وطباعهم ، وهذه امور لامناص منها ولولاها لسكنت الحياة في البادية وانعدمت فيها الحركة حركة التجارة والسفر ونقل الاخبار فالبدوي اسرع خلق الله في نقل اخبار الوقائع من منطقة الى منطقة ، ومن هنا حوى الادب العربي قصصا كثيرة حول قرى الضيف وكرم الكرماء وايثارهم ضيوفهم بأعز ما ملكوا(2).

والسمة الاساسية لحياة البداوة هي عدم الاستقرار والتنقل ، ويغير البدوي موقع حلته في انتجاع طويل أو قصير ، والانتجاع القصير هو الانتقال من مكان الى آخر ، بعد مايكون منزل الحلة قد تراكمت فيه الاوساخ لذلك يتركونه ليتخلصوا مما تراكم ومن الروائح المؤذية التي تنبعث من جوانب الحلة ، اما

---

(1) - ياقوت بن عبدالله الحموي ، معجم البلدان ، ط . دار صادر ، بيروت مادة ضريه .

(2) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١٢٤
- زكريا ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانتجاع الطويل فهو يأتي وراء الكلأ والماء ، فالمواشي دوما بحاجة الى مرتع جديد والى الماء ، وجرت العادة أن يجتمع رجالات العشيرة في بيت الشيخ فيتطارحون الاراء حول الوجهة التي عليهم أن يقصدوها ويدلي كل رجل برأيه بناء على معطيات الاخبار التي لديه حول مساقط الامطار وتوفر المياه والكلأ ، وقد يكون البدوي قد حصل على معلوماته من رصده للانواء ولحركات الغيوم او مما نقله بعض المسافرين والرحالة ، وفي بعض الأحيان قد تكون المعلومات المتوفرة غير كافية لذلك يتخذ قرار باختيار عدد من الرواد يذهب كل واحدمنهم في اتجاه ثم يعودون بعد أيام حاملين تقارير وافية عن مشاهداتهم ، وبناء على هذه المعطيات يتخذ قرارالانتجاع والجهة المقصودة ، ومن ثم تبدأ العشيرة منذالفجر بتقويض الخيام وتحميل الاثقال ، ولدى الانتهاء من ذلك تنطلق القافلة بعدما تتخذ جميع الاجراءات الامنية لحماية المواشي والركب ، وتسير القافلة والرجال والنساء فيها منهم من يسير على قدميه ومنهم من يمتطي جملا او حمارا او يجلس في هودج ، ولدى انتهاء الرحلة تختار المحلة الجديدة وتنصب الخيام حول ساحة مربعة الشكل ، البيوت فيها مفتوحة نحو الداخل وقديما وصف الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة اليشكري اعمال الرحيل بقوله :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما	أصبحوا اصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ	ـهال خيل خلال ذاك رغاء(١)

وقد لايتعدى الرحيل نحو الحلة الجديدة عدة أيام ذلك أن البادية قد اقتسمها العرب فيما بين بعضهم بعضا ، واختصت كل قبيلة بديار منها ومياه في تلك الديار ، وقد تجبر الظروف بعض القبائل على مغادرة ديارها والدخول

---

(١) - زكريا ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى ديار قبيلة اخرى وذلك سلما او حربا . وفي هذه الحالات تنفجر الصراعات وتكون حول الماء ومن يسقي مواشيه اولا وفي ايام العرب وتاريخ مابعد قيام الاسلام حروب كثيرة قامت بين القبائل بسبب الماء ومن اسماء الماء نالت بعض القبائل أسماء جديدة كما الحال بالنسبة لقبائل غسان قبل الاسلام وغيرها وحين ترتحل العشيرة لايبقى من آثارها الا بعض الدمن ووقف الشعراء عند الدمن فهذا زهير بن ابي سلمى يقول :

وقفت بها من بعد عشرين حجة   فلأياً عرفت الدار بعد توهم
أثافي سفعا في معرس مرجل   ونؤياً كحوض الجد لم يتثلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها   الا أنعم صباحا أيها الربع و اسلم

وبعد هذا تخيل زهير قافلة العشيرة وهي مرتحلة نحو الحلة الجديدة فقال :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة   وراد حواشيها مشاكهة الدم
بكرنا بكور واستحرن بسحرة   فهن ووادي الرس كاليد في الفم
فلما وردنا الماء زرقا جمامه   وضعن عصى الحاضر المتخيم (١)

ويطرق حلة البداة بعض الباعة والتجار وأصحاب الحرف ، والبدوي يحب التجارة ويسهم بها . لكنه يمقت الصناعة والزراعة أيضا ويزدريها ، ورأس مال البدوي الاغنام والجمال والخيول ، وقد يمتلكها بمفرده أو شراكة مع سكان المدن وفقا لقواعد يتفق عليها ، وتميزت بلاد الشام في العصرين الايوبي والمملوكي بضرائب تفرض على البداة وتحصل على رؤوس الاغنام عرفت باسم ضريبة (العداد) ، ونظرا لان طبيعة البدوي

---

(١) - احمد بن يحيى ثعلب - شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ط . القاهرة ١٩٤٤ ص ٩ - ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجبولة على التمرد . فغالبا ماكان تحصيل الضريبة وامور اخرى سببا لسوء العلاقات بين السلطات المملوكية والقبائل البدوية وخاصة قبائل ربيعة ، وكانت السلطات تلجأ الى محاولات الايقاع بين زعامات ربيعة أو الى شراء الزعامات بالهدايا واقطاعات مع الاعفاءات من الضرائب (١). ولانعرف فيما اذا كانت قد وجدت آية محاولات للتعاون بين القبائل البدوية وزعاماتها من جانب وزعامات بعض المدن ضد السلطات المملوكية .

وكانت اعمال الغزو تشكل مصدرا من مصادر الرزق لدى البداة وكان الشيخ مع اتباعه يقتسمون فيما بينهم وفقا لنسب متعارف عليها ولقواعد موروثة .

وفي الحقيقة خضعت شؤون البداة جميعا لتقاليد موروثة ، فمع ان بداة بلاد الشام قد دانوا بالاسلام كانوا على قاعدة الاعرابي من اقل الناس تدينا وهذا واضح ليس لعدم الالتزام البدوي بالصلاة والصيام فحسب بل لعدم تطبيقه لقواعد التشريع الاسلامي والتزامه بأعراف وعادات بدوية محضة قد تتفق مع الاسلام او لاتتفق معه ، وشيخ العشيرة هو الذي يتولى في العادة النظر بالخصومات والقضايا وفضها .. واحكام شيخ العشيرة تأتي من بنات افكاره ومما اكتسبه من مواريث وتجارب ، والقضاء البدوي في هذه الحالة سريع عاجل في احكامه وفي التنفيذ بدون استئناف او تمييز او غير ذلك هذا بالنسبة لفض الخصومات الداخلية أما المشاكل التي قد تستعصي على شيخ العشيرة او هي محط خلاف بين بعض العشائر فقد اعتاد البداة على اللجوء الى حكم من بين القبائل الاخرى ، وقد يشتهر بين القبائل بعض الشخصيات التي تتميز برجاحة العقل وسعة التجربة والحنكة والفهم وسداد الرأي فتلجأ اليه العشائر للحكم فيما اختلفوا فيه ومنذ ماقبل الاسلام وحتى الان عرف كل جيل شخصيات تميزت بهذه الصفات ويعرف الحكم في ايامنا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باسم العارفة "او الشيخ العارفة ، وهذا الشيخ العارفة لايختلف ابتداء عن حكام العرب لما قبل الاسلام[١].

وتأخذ الاعراف البدوية بمبدأ العقوبة الجماعية وفي هذا مخالفة للاسلام الذي قضى الا تزروا وازرة وزر اخرى ولايملك الحكم البدوي أية سلطات تنفيذية ، لكن اصداره الحكم يعطي الجانب الذي كسب الدعوى حق اخذ القانون باليد وقد يؤدي هذا الى تعقيد الامور واثارة مشاكل كثيرة ، ويلجأ شيوخ العشائر لدى تحقيقهم في بعض القضايا الداخلية الى وسائل لا انسانية في ضرب المتهم وامتحانه بالقضيب المحمى بالنار بأن يطلب منه لحسه او بتعريضه لمخاطر قد تأتي على حياته والاعراف البدوية بشكل عام مجحفة بحق المرأة فهي تحرم النساء من النصيب الشرعي في الارث وترغم البنت البكر على الزواج من رجل اختاره لها ابوها "او وليها بدون اخذ رأيها وبدون اعتبار للسن او غير ذلك كما ان هذه الاعراف نفسها قد تمنع امرأة من الزواج اذا لم يوافق واحد من ابناء عمها العزاب بصرف النظر عن سنه او وضعه[٢].

ومجلس القضاء البدوي متميز بالرزانة والطرافة فيه اذا تكلم القاضي ساد الهدوء وانقطع الحديث وصمت الجميع ، ويتكلم القاضي وهو ساكن الجأش هادئ البال بمنطق موزون وبحجج عقلية مع ضرب للامثلة وعرض لبعض الحكايات الشارحة وهنا وجه الطرافة فهذا البدوي الذي تخرج من مدرسة الرمال والذي لايعرف القراءة والكتابة يصدر بعض الاحكام التي تلفت الانتباه في دقتها وعدالتها.

ولسوء الحظ ان الذين كتبوا من البدو في العصرين الايوبي والمملوكي لم يقدموا لنا روايات عن احكامهم وحكامهم كما فعل الذين اهتموا بأخبار ماقبل الاسلام ، فابن حبيب صاحب المحبر لم يكتف بتسمية اشهر حكام العرب قبل الاسلام بل عقد فصلا في هذا الكتاب على ما وافق حكم الجاهلية حكم الاسلام[٣].

---

(١) – محمد بن حبيب ، كتاب المحبر، ط. حيدر "اباد الدكن ، ١٩٤٢، ص :١٣٢– ١٣٧
– زكريا – المصدر نفسه ، ج١ ، ص :٢٥٧

(٢) – زكريا ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص :٢٥٨ – ٢٦٠

(٣) – ابن حبيب ، المصدر نفسه ، ص :٢٣٥ – ٢٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختار المتخاصمون اسم الحكم ويشكلون وفدا يسافر اليه لعرض القضية المتنازع عليها ففي بيته يؤتى الحكم وغالبا مايقدم المتخاصمون بعض المال كرسم للمحاكمة وقد يأتي هذا الرسم على شكل عرض من العروض كفرس او سيف او بعير او قماش "او مايشبه ذلك ويلجأ بعض القضاة الى اشتراط تسمية كفيل يتولى التعهد برعاية تنفيذ الحكم وهنا غالبا مايكون هذا الكفيل "اميرا "او شيخا مرهوب الجانب ، و"اثناء النظر بالدعوى يتقدم كل فريق بعرض حججه وبما لديه من شهود وقد يرفض الحكم شهادة بعض الشهود "او يجعلهم يقسمون قسما صعبا بالعرض والمال وبانزال الله الأمراض والعذاب اذا ما كذب وبعد النظر بالقضية قد يصدر الحكم قراره مباشرة او قد يؤجل ذلك لبعض الوقت وفي اغلب الاحيان يلجأ الحكام في اصدار قرارات تسوية وايقاع غرامات مالية وعدم اللجوء الى الحكم بالاعدام او قطع اليد او غير ذلك(١).

وغالب القضايا التي يختلف البداة حولها وينظر فيها القضاء البدوي لها سمة اجتماعية مثل القتل ، والزنا ، والتجاوز على المستجير ، وعدم احترام الضيف ، والخطف ، والاغتصاب والسرقة وما الى ذلك من جرائم اجتماعية ، انما يلاحظ ان البدوي لايلجأ مباشرة الى القضاء اثر تعرضه للسرقة او قتل "احد "اقاربه أو اغتصاب او خطف احدى نسائه او غير ذلك من اعتداءات ، ويلجأ الى القضاء عندما يستنفذ فرصه في الانتقام واخذ القانون بيده ، فاذا ماقتل احد اقرباء البدوي وجب على عشيرة المقتول الثأر من القاتل ومن اقربائه على قاعدة المسؤولية الجماعية ، وقد لايستطيع البدوي الثأر فورا فهو

---

(١) - زكريا ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص:٢٦٢- ٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينتظر وقد ينتظر سنوات طوال حتى يتمكن من الثأر، ولدى عمليات الثأر يقوم البداة المعتدى عليهم بنهب واحراق ممتلكات فئة المعتدي وغالبا ماتقود مثل هذه الاعمال الى تمزيق القبائل بجلاء فرقة من الفرق والتحاقها بقبيلة اخرى طلبا للحماية أو سعيا وراء التحالف ومع ان عادة الانتقام عادة بشعة مرفوضة حقوقيا واجتماعيا وانسانيا الا ان بعض الناس يرون ان سنة الدم بالدم تصد المجرمين والاشرار وتردعهم وتجعل البداة يتجنبون القتل حتى في الغزوات واعمال الغارات، ومن هنا نجد البدوي اذا ماقطع الطريق يسلب المسافرين اموالهم وثيابهم ودوابهم لكنه لايهدر دمهم خشية الانتقام، وعندما تتطور عمليات الانتقام وتتعقد الامور وتتعب الاطراف المتنازعة هنا يميلون الى الصلح والتسوية فيتدخل بعض الوسطاء بين المتنازعين وتتحقق القناعة باللجوء الى القضاء أو الى الصلح وحمل الديات والتعويضات واعمال التوسط تميز بها دوما في المجتمع البدوي بعض الاثرياء والعقلاء من الرجال ذوي الحزم والكرم ومنذ ايام داحس والغبراء لم تتبدل سمات الوسطاء(١) وأعمال التوسط والصلح تجري بين الجماعات وبين الافراد . بين الافراد قد يجريها شيخ العشيرة اما بين القبائل فقد يتولى امرها بعض مشايخ العشائر وهؤلاء قد يتحملون نفقات التسوية او بعض هذه النفقات ، وكما اخذ البداة بالمسؤولية الجماعية تجاه ماينزل بهم طبقوها أيضا على الغرامات، فعشيرة القاتل هي التي تجمع من افرادها الدية لتدفع الى اهل المقتول ، وكذلك يقتسم اهل المقتول حسب درجة قرابتهم منه الاموال المجموعة كدية له .

---

(١) - العمري ، المصدر نفسه ، ص ١١٨ - ١١٩

- زكريا ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٤- ٢٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي حالات جرائم الزنا فاذا ماتعرض احد البداة لامرأة وافترسها غصبا وهي في المرعى او ذاهبة لجلب الماء او الاحتطاب وهنا اذا رجعت نحو حلة اهلها تصرخ وتستغيث وتستثير حميتهم وكانت دلائل الاعتداء ظاهرة عليها ، وآنذاك يهب أقارب المرأة فيلاحق فريق منهم المعتدي لقتله ويتوجه فريق آخر نحو أسرة المعتدي فيقتلون من يصادفوه ويقومون بتخريب اموال الجاني واهله ، وفي حال ثبوت ان المرأة زنت بالرضا يعتبر الزاني غير مسؤول عن فعلته ويقتص اهل المرأة منها بقتلها جهارا ، واذا ما هربت يقومون بملاحقتها وقتلها . ففي كثير من الحالات قد تفر هاربة مع رجل بعدما اتفقت معه على الزواج ومع ما اقدمت عليه وهي راشدة ليس فيه اي خروج على احكام الشريعة الاسلامية ، لكن البدوي يعتبر ذلك نوعا من انواع الزنا وعارا عليه ان يغسله بسفك دم هذه المرأة ولو بعد سنوات ، والتعنت في الزواج غالبا مايكون وراء الاقدام على الفرار او مادرج البداة على تسميته باسم الخطف ومع هذا قد يتدخل بعض الوسطاء فيتم التوصل الى تسوية بدفع بعض التعويضات المالية ، فغالبية قضايا الخلاف في المجتمع البدوي يجري حلها عن طريق المال ذلك ان القضاء البدوي والوسطاء لايملكون سلطات تنفيذية تقتص من الجناة بالقتل او القطع أو المصادرة ومثل الزنا تجري معالجة بعض الاعتداءات الاخرى لاسيما الاعتداء على المستجيرين بالقبيلة او قطع الطريق او التشويه اثناء شجار ما او السرقة .

ان قوام الحياة في البادية والناظم للشؤون الاجتماعية هو ان الضعيف يحتاج دوما الى قوي لحمايته ، والقوة في العرف البدوي مصدرها المال والرجال وهذا حال لم يتغير فقديما اعتدت قريش على عبد المطلب عندما كان وحيدا لكنه بعدما ملك عددا كبيرا من الاولاد صار بامكانه ليس رد المعتدين فحسب ، لابل التباهي بأنه يستطيع ان يقدم واحدا من اولاده ضحية للرب لما انعم عليه (١)

---

(١) - ابن هشام ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص: ١٤٣ - ١٥٣
- زكريا ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص: ٢٨٠ - ٢٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ومن المفيد ان نشير في خاتمة هذا الفصل الى ان النظام القبلي حمل استثناء بالنسبة لبلاد الشام ، فهو قد ساد في بلاد الشام وغيرها من البوادي ، وفي البادية اكتسبت تسميته والاستثناء الشامي هنا ان هذا النظام ساد في العصرين الايوبي والمملوكي في معظم مناطق جبل لبنان ولاحاجة بنا هنا لاستعراض العادات والتقاليد والبنى الاجتماعية لهذه القبائل فهي نفسها ، ذلك ان قبائل جبل لبنان جلها قبائل جاءت الى هذا الجبل لتقوم بأعمال التصدي العسكري للصليبيين والمتعاونين معهم وقام صالح بن يحيى بالتأريخ لهذه العشائر في كتابه تاريخ بيروت[1].

---

(١) - صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت وهو اخبار السلف من ذرية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت ، ط ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٣٣- ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" خاتمـــــــة "

يحتل العمران الايوبي والمملوكي حسبما اتضح في الفصول السالفة من الرسالة مكانة متميزة في تاريخ بلاد الشام وفي تاريخ مصر أيضا ، ففي ظل التحديات الخارجية الهائلة وطغيان الحكام الاجانب من الجند ، استطاع المجتمع العربي ان يثبت ملامح هويته ويبرهن على تجذره وأصالته ، وفي هذه الفترة الخطيرة والطويلة جدا أكمل هذا المجتمع أعمال ترسيخ عاداته الاجتماعية وتقاليده وبالتالي أخذ المجتمع شكله وظل محافظا على هذا الشكل حتى مطلع العصر الحديث ، ذلك ان هذا المجتمع لم يشهد تغيرات تذكر في ظل الحكم العثماني ، فالذي رسم في العصرين الايوبي والمملوكي ظل على حاله اثناء الحكم العثماني ، كل هذا يصب في قناة واحدة تدلل مجددا على أهمية ماحدث في العصرين الايوبي والمملوكي .

ان هذا ماسعيت الى دراسته من الجانب الاجتماعي ذلك ان الجوانب السياسية قد درست من قبل أكثر من باحث ، وستظل الحاجة قائمة مع الدراسة الاجتماعية القيام بدراسات اقتصادية وادارية وثقافية علمية حتى تستكمل صورة هذين العصرين.

وقمت في الفصل الاول من رسالتي بدراسة الاطار السياسي للحكمين الايوبي والمملوكي في بلاد الشام ، فتناولت أصل الاسرة الايوبية ونشأتها وعلاقتها المبكرة مع اسرة عماد الدين زنكي وانتقالها من العراق الى الشام ، وبروز ايوب بن شاذي واسد الدين شيركوه على

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأس هذه الاسرة التي يبدو أنه عاش تحت لوائها أعداد من المرتزقة الاكراد ، واثر هذا تناولت بالحديث حملات اسد الدين شيركوه بامر من نور الدين على مصر والظروف التي قادت الى ظهور صلاح الدين ، وقاد هذا الى الحديث عن العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين وعمل صلاح الدين من أجل وراثة دولة نور الدين بعد وفاته (١).

ودخل صلاح الدين دمشق وبعد حروب استغرقت وقتا طويلا واحتاجت الى موارد وطاقات بشرية كبيرة صار صلاح الدين سيد بلاد الشام مع مصر بلا منازع ، ومن ثم التفت الى القتال ضد الفرنجة فكانت معركة حطين ونتائجها الكبيرة في تحرير القدس ومعظم الاراضي التي كانت محتلة من قبل الصليبيين (٢).

ومن المعروف ان منجزات صلاح الدين كانت من الاسباب التي أثارت مايعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة التي تصدى لها صلاح الدين ولم يعش صلاح الدين طويلا بعد فراغه من مواجهة قوى هذه الحملة (٣).

وبعد وفاة صلاح الدين تمزقت دولته ودخلت بلاد الشام ومصر في دوامة الحروب والمنازعات الداخلية بين ابناء صلاح الدين واخوانه والرباشه ، وتعرضت الى الاثار المدمرة للنزاعات الايوبية والى عجز الايوبيين من مواجهة الصليبيين حتى ان بعضهم سلم القدس الى فردريك الثاني قائد الحملة الصليبية السادسة ، وفي هذه الآونة كان المغول قد ظهروا على مسرح الاحداث في المشرق

---

(١) - انظر ماتقدم ص (٥٥ -٦٠)

(٢) - انظر ماتقدم ص (٦١) .

(٣) - انظر ماتقدم ص (٦٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العربي الاسلامي ، وحلت الفوضى وانعدم الاستقرار وجاء نحو اطراف الدولة الايوبية بقايا الخوارزمية واستخدم بعضهم كمرتزقة لدى الايوبيين ، وتمكن الصالح ايوب بمساعدتهم في استرداد القدس مما أثار الحملة الصليبية السابعة ، ويرتبط الصراع ضد هذه الحملة باستيلاء المماليك على السلطة في مصر وصراعهم مع افراد البيت الأيوبي في الشام الى ان تمكن المغول من اجتياح هذه البلاد ومن ثم طردوا في معركة عين جالوت ، وأدخلت معركة عين جالوت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي[1].

وتحدثت هنا الى الحديث عن حكم السلطان بيبرس وأهم الانجازات التي تمت في عصره وعلى رأسها احياء الخلافة العباسية في القاهرة وتمتين التحالف بين المماليك ورجال الدين المسلمين ومتابعة أعمال تحرير المتبقي من الاراضي الشامية من الصليبيين مع التصدي للمغول وأوضحت ان الحكم في الدولة المملوكية قد آل بعد وفاة بيبرس بفترة وجيزة الى قلاوون ، وأسس قلاوون اسرة حاكمة تقلب عدة أفراد منها على عرش سلاطين المماليك لفترة طويلة جدا ، وفي ظل حكم هذه الاسرة اكمل العرب تحرير أراضيهم من الصليبيين وانزلوا ضربات قاصمة بالمغول ، وشهدت البلاد بعض الاستقرار السياسي والامني[2].

لقد تألفت بلاد الشام أيام المماليك من ثمان نيابات بعضها كان قائما من قبل ، واستحدث بعضها الاخر وهذه النيابات هي : دمشق - حلب حماة ، الكرك ، صفد ، طرابلس ، القدس ، وغزة ، وعرفت بتاريخ كل نيابة من هذه النيابات وبأهم الاحداث التي شهدتها والادوار التي قامت بها مع اوضاعها الادارية وامكاناتها الاقتصادية ولقد كان للحياة الادارية والاقتصادية انعكاسات واسعة على الحياة الاجتماعية تحدثت اولا عن اقامة نيابة

---

(١) - انظر ماتقدم ص (٧٢- ٧٤)

(٢) - انظر ماتقدم ص (٧٤ - ٧٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفسد من قبل السلطان بيبرس وبنيت حدود هذه النيابة وما امتلكته من موارد وامكانات(١).

وبعد ذلك تحدثت عن نيابة غزة مبينا تضافر موقع غزة والنشاط البدوي في منطقتها مما ادى الى تحويلها الى مركز نيابة جديدة وفصلها عن دمشق ، وما ان فرغت من الحديث عن نيابة غزة(٢) حتى انتقلت للحديث عن الاسباب التي دعت الى تأسيس نيابة القدس والى أهمية هذه النيابة والدور الذي شغلته بالنسبة لفلسطين في العصر المملوكي(٣).

وبعد نيابة القدس أرخت باختصار لنيابة طرابلس التي حررت من الصليبيين في العصر المملوكي ، واستعرضت أهم ما شهدته من حوادث وذلك بعدما بنيت حدودها وما ملكته من امكانات اقتصادية والى آثار موقعها على البحر المتوسط عليها وعلى بلاد الشام(٤).

ثم كان ان انتقلت الى الحديث عن نيابة الكرك والدور الخاص الذي شغلته في العصر المملوكي كاهراء للمماليك ومنفى وسجن للعصاة والمتمردين وميدان تدريب للفرسان وبعض ابناء المماليك(٥).

ومن نيابة الكرك انتقلت للحديث عن نيابة حماة التي تمتعت بوضع خاص هو انها ظلت تحكم في العصر المملوكي من قبل افراد البيت الايوبي كان ابرزهم واكثرهم شهرة أبو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور(٦).

---

(١) - انظر ماتقدم ص (٧٩).
(٢) - انظر ماتقدم ص (٨٥).
(٣) - انظر ماتقدم ص (٨٧).
(٤) - انظر ماتقدم ص (٩١).
(٥) - انظر ماتقدم ص (٩٦).
(٦) - انظر ماتقدم ص (٩٩).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن حماة انتقلت للحديث عن نيابة دمشق التي كانت أعظم نيابات الشام وأهمها ، فدمشق مثلت الشام في العصر المملوكي من جميع الجوانب ، فما شهدته دمشق من احداث سياسية انعكس على جميع بلاد الشام ودمشق هي التي حظيت بالتاريخ من قبل أعظم مؤرخي العصر المملوكي ، والدراسات الاجتماعية عن بلاد الشام هي بالدرجة الاولى من دمشق(١).

لقد بينت انه تقلب على حكم دمشق عدد من النواب كان أبرزهم تنكز الذي حكم البلاد قرابة ثلاثة عقود من الزمن وجمع من الثروات ماقدر مجموعه بحوالي تسعة ملايين دينار ذهبي ولاشك ان جمع الثروات هذه قد جاء على حساب الشعب مما كان له أسوأ الآثار على الحياة الاجتماعية ، فنواب دمشق اهتموا بجمع الثروات وملكوا نزعات استقلالية ، ودخلوا في صراعات ضد السلطنة المركزية وهذا ايضا بدوره انعكس سلبيا على حياة الشعب (٢).

وكانت نيابة حلب تماثل نيابة دمشق من حيث المكانة والاهمية والادوار لذلك استعرضت تاريخ هذه النيابة ، وبها ختمت العرض السياسي الذي أوضح أن البلاد الشامية خضعت لعدة ادارات وارادات مملوكية ، وانها لم تعرف الاستقرار والامن بشكل دائم ، لكن التمزق الاداري والاضطرابات الامنية والتهديد الخارجي لم يؤثر على وحدة المجتمع وقوة بنيانه وتفاعله من جميع الجوانب (٣).

وأثرت في مطلع الفصل الثاني مسألة المنهج الذي ينبغي ان يعالج به تاريخ المجتمع الشامي وبعدما فرغت من هذه القضية الاساسية .

---

(١) - انظر ماتقدم ص (١٠٣) .
(٢) - انظر ماتقدم ص (١٠٥) .
(٣) - انظر ماتقدم ص (١٠٧) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوضحت ان بلاد الشام عرفت فئة اجتماعية واحدة هي ما اطلق عليه اسم العامة ، وقد كان للعامة تنظيماتهم الداخلية للدفاع عن مصالحهم وكان ابرزها الزعر والحرافيش ، ولقد تهيأت الفرص امام التنظيمات الشعبية شبه العسكرية لوراثة النظام المملوكي لكنها اخفقت لاسباب كثيرة تعدرها دور العلماء ورجال الدين وتحالفهم المصلحي مع النظام المملوكي ، فلقد جاءت المؤسسات الدينية في المرتبة الثانية بعد المماليك في تملك الاراضي الزراعية والدور والحوانيت والموارد المالية وشكل رجال الدين السلطة الفعلية الثانية بعد المماليك ، وكانوا بالفعل هم السلطة التنفيذية الداخلية صاحبة التأثير الواسع على جماهير الشعب ، وكان بامكان هؤلاء العلماء القيام بأدوار كبيرة لصالح الشعب لكنهم آثروا مصالحهم الذاتية فتعاطفوا مع السلطات المملوكية ، وهذه قضية على درجة عالية من الخطورة التي لم أدع جانبا من جوانبها الا وحاولت معالجته (١).

ونشط اهل الشام في الاسواق والاحياء والمساجد والساحات العامة وكانت اتصالاتهم برجال السلطة المماليك المباشرة شبه منعدمة ولم يدع الناس فرصة الا وحاولوا اهتبالها للثورة ضد المماليك ،ومن العصر المملوكي وحتى ايام قريبة مافتىء الشاميون يرددون عبارات تدلل على عدم ثقتهم بالسلطة وكراهيتهم لرجالها أبسطها عبارة حاكمك ظالمك (٢).

لقد تميز الحكم المملوكي بعدم الاهتمام بالشعب وكان ادارته مقامة لتقديم الخدمات له وايجاد سبل جديدة لاستغلال الشعب والقساره والحاق الظلم به وهذا فيه تعليل لاقامة ديوان البذل والبرطلة وانتشار بيع المناصب الدينية والقضائية والادارية (٣).

---

(١) - انظر ماتقدم ص (١٢٣ - ١٤٩).
(٢) - انظر ماتقدم ص (١٦٣).
(٣) - انظر ماتقدم ص (١٣٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعاشت جماهير الشعب في ظل الحرمان والاستغلال البشع وبذل المماليك والمتعاونون معهم كل جهد ممكن في سبيل تمزيق الشعب واثارة الصراعات الداخلية بين الاحياء والتنظيمات وافتعال الاحداث بشكل متواصل كي لاتتجمع جهود وطاقات الجماهير ضد المرتزقة الارقاء ولعل من الآثار السلبية لهذا كله انتشار الطرق الصوفية وانضواء المهاجرين من الارياف وممن لاعمل له تحت ألوية الزوايا الصوفية التي شهدت انحرافات خلقية وسلوكية كبيرة من شذوذ جنسي وتعاطي للحشيش وغيره (١).

وسعيت في الفصل الثالث الى تصوير اوجه النشاط الاجتماعي في المدن الشامية فلقد نشط الشاميون في الاسواق ، ذلك ان الاسواق شغلت حيزا خاصا في المدينة الشامية بعيدا عن احياء السكن وكان كل سوق من اسواق الشام مختصا بصناعة وبيع بعض السلع أو المصوغات وفي الاسواق خاصة في فترات الاستراحة تناقش الناس في قضاياهم وتحاوروا حول شؤون حياتهم وكانت الاسواق ايضا ساحات لبعض الانشطة الاجتماعية الاخرى خاصة اسواق بيع الجواهر والاقمشة الحريرية والألبسة (٢).

وبما أن المدينة الشامية لم يكن فيها ساحات عامة ومسارح فان الحمامات شغلت ادوارا متميزة في جميع أوجه النشاطات الاجتماعية مما تعلق بامور النظافة والطهارة للعبادة والتداوي والاحتفالات قبل الاعراس وبعدها وغير ذلك .

ولقد تميزت حياة الشاميين باحتفالات موسمية وأعياد اشتركوا فيها جميعا بصرف النظر عن معتقداتهم وكان لهم عاداتهم في الزواج والافراح والاتراح ، وكانوا يزورون القبور ويهتمون بتوديع الحجاج

---

(١) - انظر ماتقدم ص (١٣٦-١٤٠).

(٢) - انظر ماتقدم ص (١٦٣-١٧٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستقبالهم ، واذا ما توقفت الامطار يتجمهرون للاستسقاء كما كان لديهم طرائق للطعام والشراب واللباس خاصة بهم.

لقد كانت الحياة تدب في أوصال المدينة الشامية ليلا نهارا ففي الليل كان الشاميون يعقدون مجالس للسمر و لقراءة بعض الملاحم الشعبية او للذكر في الزوايا الصوفية حيث الصفاء الروحي والاطعمة اللذيذة والأصوات الشجية (١).

وكان كابوس الحكم المملوكي ثقيلا مرعبا لم يعرف الشفقة ولا الرحمة تفنن في وسائل القصاص والتعذيب الجسدي فأنزل بالناس عقوبات الشنق والتوسيط ، والصلب ، والتشهير ، والسلخ وغير ذلك مما يتنافى مع تعاليم الاسلام والديانات ومع أبسط قواعد التعامل الانساني .

وبعد الفراغ من رسم أوجه النشاطات الاجتماعية اليومية عرفت ان سكان بلاد الشام عاشوا اما في المناطق الجبلية او في السهول ، خاصة السهول الداخلية او في البوادي والارياف ، وفي الحقيقة ان الذين عاشوا في البوادي والارياف شكلوا أكثرية الشعب ، لكن هذه الاكثرية لم تحظ بالاهتمام ولم تنل من اهتمام المؤرخ الا القليل القليل .

ومع هذا عرفت ان الفلاحين عانوا من الظلم أضعاف ماعاناه سكان المدن ، لقد كانوا أشبه بالاقنان يباعون ويشرون مع الارض وينتقلون من مقطع الى مقطع يتعرضون للظلم في الداخل ولكوارث الطبيعة ومآسي الفتن وغزوات الجيوش المعادية من المغول والصليبيين .

ودفعت سوء الاوضاع بالفلاحين الى هجر قراهم والذهاب الى المدن مما ولد اضطرابا اجتماعيا مستمرا ، وقاد بالتدريج نحو الانهيار الاقتصادي

---

(١) - انظر ماتقدم ص (١٤٩- ١٥١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاشك ان الانهيار الاقتصادي انعكس على السلطات المملوكية وعلى الشعب فعجل في ظهور معالم الضعف وملامح الانهيار الكبير[(١)].

ولاشك ان قضية الانهيار هذه هي من أخطر القضايا وأكثرها تعقيدا وتحتاج الى وقفة خاصة وسأفعل ذلك في نهاية هذه الخاتمة بعدما أشير الى ان هجرة قبائل الغز مع احداث الحروب الصليبية وغزوات المغول انعكست بشكل مباشر على أوضاع القبائل العربية التي سكنت في بوادي بلاد الشام سياسيا وسكنيا واقتصاديا ، فلقد تضاءل دور عدد عدد من القبائل القديمة مثل قبائل كلب وكلاب في دمشق وشمال بلاد الشام وتعاظم دور قبائل طيء في ظل أمراء آل ربيعة وانتقل نفوذ هذه القبائل الطائية من فلسطين نحو دمشق فوسط بلاد الشام وتمت عمليات اعادة تكوين للقبائل حيث ظهرت مجموعات قبلية جديدة أهمها قبائل العوالي[(٢)]، وحافظ رجالات القبائل العرب على التقاليد والعادات التي عرفوها منذ ماقبل الاسلام فلقد كانوا من أقل الناس تدينا وكانوا يهتمون بالكرم والشجاعة وتقديم المأوى للمستجير وتقاضوا حسب اعراف متوارثة وليس حسب احكام الشريعة الاسلامية ولم يتوقفوا عن اعمال الغزو والقتال وسعوا مجددا الى استرداد أدوارهم السياسية فكانت علاقاتهم بشكل عام سيئة مع السلطات المملوكية التي حاولت استرضاءهم وشراء زعاماتهم او ايقاع العقوبات بهم والبطش بقواهم لكن بحدود ، فالنظام المملوكي عاش مهددا من الخارج وغالبا ما جاءت التهديدات عبر البادية ، والقبائل البدوية وحدها هي التي استطاعت حراسة البادية[(٣)].

---

(١) - انظر ماتقدم ص (٢٣٢ - ٢٣٥).

(٢) - انظر ماتقدم ص (٢٥٧ - ٢٥٩).

(٣) - انظر ماتقدم ص (٢٦٢).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد انتشرت في جميع اطراف وسبل البادية ، كما انها امتلكت امكانات قتالية كبيرة ، وطبيعة الحياة البدوية فرضت عليها التنقل من مكان الى آخر انتجاعا للماء والكلأ ، وهذا الانتجاع كان وراء الصراعات بين القبائل مثلما كان الحال ماقبل الاسلام ، وتمتعت المرأة في الحياة البدوية بكيان خاص وشغلت ادوارا لها أهميتها في البيت وداخل حلبة القبيلة وأحيانا في الوساطات بين المتنازعة .

ونعود الان حول معالجة مسألة الانهيار التي سلف وأشرنا اليها اكثر من مرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدت آثار ضعف النظام المملوكي تظهر للعيان من جميع الجوانب مع نهاية فترة حكم المماليك الاتراك أي قبيل استيلاء المماليك الجركس على السلطة ، فقد ألم الضعف بأسرة قلاوون وتجددت الصراعات حول العرش وتواصلت ، وتزامن هذا مع نقص الموارد المالية للدولة بسبب تردي الاوضاع الداخلية اقتصاديا وأمنيا وزراعيا وتجاريا مع أسباب خارجية كثيرة .

ومعروف ان تاريخ المماليك الاتراك ارتبطت بدايته بموجة الحملات المغولية الاولى والمثير للانتباه ان سلطان هؤلاء المماليك انحسر وحل محله مماليك من اصل جركسي مع وصول الموجة المغولية الثانية بقيادة تيمور ورأينا قبل ان السلطة المملوكية قد اخفقت في التصدي لتيمور ولم يكن هناك أي نوع من الانتصارات يشبه جولة من جولات معركة عين جالوت بل هزائم وتخاذل كله خزي وعار ودمار ألم بالمدن الشامية الرئيسة يذكر بما فعله هولاكو ببغداد ، وبعد تيمور تعاظمت الضغوط على السلطنة المملوكية برا وبحرا وأخفق المماليك في درء الخطر عن بلاد الشام خاصة المخاطر التي صدرت من قبرص (١).

هذا وكانت حملات تيمور المختلفة قد حركت بعض قبائل تركستان وغيرها ، ودفعت بقبائل تركية جديدة نحو المناطق الحدودية ببلاد الشام في الشمال وكان من بين أهم القبائل الجماعة التي حملت اسم الشاة البيضاء (الآق قونيلو) واضطرت السلطنة المملوكية الى تجريد الحملات شمالا وجاء هذا بمثابة مقدمات جرت الى الصراع مع السلطنة العثمانية فيما بعد ، ذلك ان المماليك سعوا الى وضع بعض الدويلات التي ظهرت في آسيا الصغرى تحت حمايتهم مثل دويلة (دلغادر) ، وأملت السلطنة المملوكية في ان تكون الدويلات الصغيرات حاجزا بينها وبين الدولة العثمانية التي تنامت قواها واتسعت

---

(١) - صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

املاكها في آسيا الصغرى و أوروبا الشرقية و أخفقت سياسة المماليك وعندما جاءت ساعة الحسم في مواجهة العثمانيين هزمت جيوش السلطنة المملوكية في معركة مرج دابق بتاريخ (٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ آب ١٥١٦م[1]).

لم تنعم بلاد الشام بشيء من الهدوء خلال فترة حكم المماليك الجراكسة ، فأثناء محاولات برقوق للاستيلاء على السلطنة سادت الفتن واضطربت الاحوال وسالت الدماء بغزارة وعانت بلاد الشام كثيرا ، وتوفي برقوق في سنة (٨٠١هـ /١٣٩٩م) ، وولي السلطنة بعده ابنه فرج ومع ذلك استمر الاضطراب وأخفق فرج في مواجهة تيمور كما رأينا ، وبعد انسحاب تيمور عاد فرج لاستلام السلطة في الشام وفي هذه الآونة واجه أعمال تمرد مملوكية وكادت بعض المحاولات الاستقلالية أن تنجح في الشام مثل محاولة جكم وشيخ المحمودي وسودون المحمدي .

وتورطت القبائل البدوية (العشير) في الصراع وأخيرا آلت السلطنة الى شيخ المحمودي[2].

---

(١) - ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٥ ، ص ١٥
- محمدبن محمود الحلبي ، العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ، ط . دمشق ١٩٨٦ ، ص ٢٤٨- ٢٥٦.
- شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ترجمة عربية، ط . دمشق ص ١٤١- ١٤٢.

(٢) - ابن الفرات ، المصدر نفسه ، ج ٩ ، ق ١ ، ص ١٠٧، ١٥٥ ، ١٨٣.
- المقريزي ، المصدر نفسه ج٣، ص ٦٣٢، ٦٤٧، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٩٥، ٧١٢، ٧١٤، ٩٨٣ ، ٨٩٦ ، ٩٩٠- ٩٩٣، ١٠٠٧ - ١٠١٢ ، ج٤ ، ص ٣١- ٣٩، ٤٦- ٤٧، ١٠٩- ١٢١ ، ٢٥٧- ٢٥٨ - ٢٦٨
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج١١، ص ٣٢٨، ٣٥٨، ج١٢، ص ٣١١- ٣٢١، ج١٣، ص ٥٨
- الصيرفي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣، ص ٣٠٢.
- ابن قاضي شهبة ، ج١ ، ص ٢٩٧- ٢٩٨ ، ص ٣٢٨- ٣٣٥
- العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ط . القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٤٤- ٤٥ ٢٤٧ - ٢٤٩ .
- عبد السير ، المرجع نفسه ، ص ٧٧- ١٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاول السلطان شيخ المحمودي اعادة تنظيم السلطنة وبعث الحياة فيها وجلب الاستقرار الى بقاعها ، وقد حقق بعض النجاحات المؤقتة وأخفق مثلما اخفق من سبقه ، فلم تتوقف اعمال العصيان والصراعات في الشام واستمر الوضع بالتدهور وعانى أطراف الصراع من قلة الموارد المالية فزادوا من اعمال المصادرة وفرض الضرائب والتلاعب بالنقود ، وأكثر بعضهم من تجنيد بعض السكان المحليين والتعاون مع العشير (١).

و أشرت قبل قليل الى معركة مرج دابق وهذه المعركة حسمت الصراع بين الدولة العثمانية والسلطنة المملوكية ، وقد نشبت قبلها معارك كثيرة بين هاتين القوتين خلالها زاد المماليك من تجنيد السكان المحليين مع اعمال المصادرة ففي سنة (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) مثلا ارسل نائب حلب يخبر السلطنة ان عساكر ابن عثمان قد استولت على اطراف بلاده ، وجمع السلطان جيشا كبيرا ، واحتاج هذا الجيش الى نفقات مالية وكميات كبيرة جدا من حيوانات الجر والركوب ولجأ المماليك الى المصادرة والسلب حتى انهم صادروا اموال القضاء والعلماء وحيوانات ركوبهم (٢) .

وأدت اعمال التجنيد والمصادرات الى ردات فعل عنيفة لدى الشعب وكانت اعداد كبيرة من العساكر المجندة تهرب وتعود الى بلادها مع اول فرصة ، وعلى هذا ازدادت كراهية سكان بلاد الشام للحكم المملوكي وبات المتحكمون من المماليك لايحظون الا

---

(١) - المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥٧ - ٢٦٨ ، ٦٥٧ - ٧٦١ - ٧٦٢.
- ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١١ ، ج٤ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠.
- الصيرفي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٥٠٩ ، ج٣ ، ص ٨ .
- ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣٨
- البدر العيني ، المصدر نفسه ، ص ٣١٤ - ٣٢٧
- البدر العيني ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ظطر ، ط . القاهرة عام ١٩٦٢ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٢) - الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٥ ، ٣٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالمقت الشعبي ، ويبدو ان نوعية رجالات المماليك وقدراتهم الادارية والسياسية وثقافتهم قد تدنت الى الحضيض ، وكان ينتظر ان تحاول السلطنة المملوكية تحويل نفسها الى حكم محلي شامي مصري أو بعبارة اخرى لم يحاول أحد من سلاطين المماليك معالجة الازمات الحادة وازدياد اللاشعبية بتأسيس اسرة حكم تصبح اسرة محلية ، فقد قدم لنا المؤرخون روايات وصفت نوعية الحكام المماليك في هذه الفترة يقول الحنبلي اثناء عرضه لحوادث سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م ، (وفيها تزايد ظلم دقماق نائب القدس الشريف وكثر طمعه وتلاشت احوال المعاملة واختل نظامها وكثر السراق وافحشوا في قطع الطرق وقتل الانفس وبقي الناس في شدة لذلك[1].

لقد أخفقت السلطات المملوكية في التصدي للازمات الاقتصادية واكتفت باعتماد التلاعب بوزن العملة وعياراتها أي أنه مع الايام تضاعف حجم التضخم النقدي الى درجات جعلت معظم الناس يعيشون شبه متسولين ومعهم أجناد الحلقة أي القاعدة الاساسية والقوة البشرية الضاربة في الجيش المملوكي .

وكان المقريزي على رأس العلماء الذين حاولوا التصدي لمعالجة هذه المحنة فكتب كتابه " اغاثة الامة بكشف الغمة " وبعدما وصف المقريزي أسباب التضخم النقدي ألح على ان اللجوء الى استخدام الفلوس بدلا من الدنانير والدراهم قد سببت الفقر والخسارة لمعظم الناس من تجار وجنود وسواهم .

قال المقريزي : ان الناس في أيامه باتوا على سبعة أقسام : أهل الدولة وأهل اليسار من التجار مع أولي النعمة من ذوي الرفاهية والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب

---

(١) - الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البز وهم السوقه ، ثم اهل الفلح من سكان القرى والريف ويليهم الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ومعهم الكثير من أجناد الحلقة ويليهم أرباب الصنائع والاجراء ، وأخيرا ذوو الحاجة والمسكنه وهم المتسولة ، وبعد هذا التصنيف الاجتماعي الاقتصادي تولى المقريزي شرح أوضاع كل فئة من هؤلاء مبينا أن كميات الفلوس مهما عظمت لاتساوي ماكان يدخل من قبل من ذهب او فضة ، ولتسمعه وهو يقول : (فأهل الدولة لو الهموا رشدهم ونصحوا أنفسهم لعلموا انهم لم ينلهم ربح البته بزيادة الاطيان ولابغلاء سعر الذهب الذي كان أصل هذا البلاء وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون[1].

ومفيد ان ننقل كلام المقريزي في وصف أحوال الاقسام الأربعة الأخيرة في تصنيفه ، لأن هؤلاء شكلوا أركان المجتمع وافراده وكان انهيارهم يعني انهيار المجتمع ، ولايمكن لدولة ان تستمر بالبقاء ومجتمعها منهار واقتصادها مفلس " يقول المقريزي : (و أما القسم الرابع وهم اصحاب الفلاحة والحرث فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالي المحن بقلة ري الاراضي ، وفيهم من اثرى وهم الذين ارتوت اراضيهم في سني المحل ، فنالوا من زراعتها أموالا جزيلة عاشوا بها هذه الازمنة ، على ان فيهم من عظمت ثروته وفخمت نعمته ونال ما اربى على مراده وزاد على أمله والله يقبض ويبسط واليه ترجعون .

واما القسم الخامس فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ومن يلحق بهم من الشهود والكثير من أجناد الحلقة ومن شابههم ممن له عقار أو جار من معلوم او سلطان أو غيره فهم مابين ميت او مشتهي الموت

---

(١) - المقريزي ، المصدر نفسه (اغاثة) ، ص ٧٢ - ٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لسوء ما حل بهم فان أحدهم اذ أتتسه مائة درهم مثلا فانما يأخذ عنها فلوسا أو ثلثي مثقال ، ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهما من فضه فلحقهم من أجل ذلك القلة والخصاصة وساءت أحوالهم . وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير .

وأما القسم السادس فهم أرباب المهن والاجراء والحمالين والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم ، فان اجرهم تضاعف تضاعفا كثيرا الا انه لم يبق منهم الا القليل لموت أكثرهم بحيث لم يوجد منهم الواحد ، الا بعد تطلب وعناء ولله عاقبة الامور ، واما القسم السابع فهم أهل الخصاصة والمسكنة فنى معظمهم جوعاً وبرداً ولم يبق منهم الا أقل من القليل)(١).

اذا كانت الامور قد تردت في مصر الى هذه الدرجة والبلاد لم تعان من غزو تيمور وفتن حروب المماليك وغارات العشير والاضطرابات الدائمة مع التهديد الخارجي من كل مكان ، فلنا ان نتصور والحال هكذا ان الاقتصاد والمجتمع في بلاد الشام عاشا في حالة هي الموت عينه ، ومن غير الممكن للحياة الاجتماعية ان تزدهر في ظل أوضاع اقتصادية متردية ذلك ان الاقتصاد اصل الحياة ، والحدث الاقتصادي ينجم عنه نتائج اجتماعية وسياسية وعسكرية وثقافية .

ويسترعي الانتباه في وصف المقريزي أوضاع الفقهاء وهم مشايخ علماء المستقبل مع طلاب العلم ، فسوء اوضاع هذه الفئة يفسر لنا التدهور الهائل الذي ألم بالحركة الثقافية التي تمت الاشارة الى بعض ملامحها لدى الحديث عن الاوضاع قبل مجيء المماليك الجراكسة الى السلطة .

---

(١) ــ المقريزي ، المصدر نفسه ، (اغاثة) ص ٧٤ ــ ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن المقرر انه لايمكن لانسان ان يوقف نفسه على طلب العلم وهو جائع لايشعر بالامن والرعاية والعناية ، ولعل هذا فيه تعليل لبعض الاسباب التي جعلت بوادر النهضة التي اتضحت مع ابن خلدون ، والمقريزي ، والسيوطي ، ويوسف بن عبد الهادي ، وابن طولون ، وغيرهم كثير لم تتح لها السبل للنمو والترسخ ومن ثم ادخال العرب الى عصر نهضة حقيقي .

خلاصة القول لقد تضافرت عوامل وقوى كثيرة قادت بشكل أو بآخر المجتمع نحو الدمار ليدخل في ظل العثمانيين وليعش عدة قرون في سكون بلا حياة .

لقد كانت هذه القوى هي النظام المملوكي والاقطاع الديني المتعاون معه والمخاطر الخارجية المستمرة وآفات وكوارث الطبيعة ولقط جماعات التصوف والعقلية الغيبية لم تتضرر بل حالفها الحظ فسيطرت على حياة الناس ، وظلت مسيطرة حتى جاءت بوادر النهضة العربية الحديثة .

ولابد من ان نقرر في نهاية هذا البحث ان عددا كبيرا من القضايا التي اثيرت تحتاج الى تعمق في دراسة مجمل جوانبها واستهدفت فتح ملف هذه القضايا وطرح الأسئلة فالطريق العلمي السليم يبدأ دوما بالسؤال السليم .

فالسؤال يشكل النصف الاساسي من العلم ومحاولة الاجابة قد تغطي بعض النصف المتبقي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جريـــدة المصـادر والمراجـع

١)- ابراهيم علـي مهـــدي
- ادارة القدس في عهد المماليك ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب الجامعة اللبنانية ١٩٨٢.

٢)- ابراهيم مدكـــــور
- معجم العلوم الاجتماعية ، ط . القاهرة ١٩٧٥.

٣)- ابن الأثير الجزري علي بن محمد بن الاثيـــر

٤)- احمد بن ابراهيم الحنبلي .
- شفاء القلوب في مناقب بني ايـــوب ، ط . بغداد ١٩٧٨.

٥)- احمـد البديري الحلاق
- حوادث دمشق اليومية ، ط . القاهرة بلاتاريخ

٦)- احمد بن حجلة المغربـــي
- ديوان الصبابـة ، ط . بيروت ١٩٧٣.

٧) - احمـد دراج
- وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ط . القاهرة ١٩٦٨

٨)- احمد عبد الرزاق احمـــد .
- دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ، ط . القاهرة ١٩٧٤.
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ط . القاهرة ١٩٧٩.

٩) - احمد بن عبدالله القلقشـــندي
- صبح الأعشى في صناعة الانشاء . القاهرة ١٩١٣- ١٩١٨.
- مآثر الانافة ، الكويـت ١٩٦٤.
- قلائـد الجمان ، القاهرة ١٩٦٤.

١٠)- احمد بن عبد الوهاب النويري
- نهاية الارب في فنون الادب ، القاهرة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

١١)- احمد بن علي بن حجر العسقلاني
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . طبعة مصورة دار الجيل ، بيروته
- انباء الغمر بأنباء العمر ، القاهرة ١٩٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٢) - احمد بن علي المقريزي

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣.
- الخطط ، ط . مطبعة احياء العلوم بيروت
- اغاثة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٥٧.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ١٩٥٥.
- شذور العقود بذكر النقود - النجف ١٩٦٧.

١٣) - احمد غسان سبانو

- مملكة حماة الايوبية ط . دمشق ١٩٨٤.

١٤) - احمد بن فضلان

- رسالة ابن فضلان ط . دمشق ، ١٩٦٧.

١٥) - ابن قاضي شهبة

- الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ط . بيروت ١٩٧١.
- تاريخ ابن قاضي شهبة ط . دمشق ١٩٧٧.

١٦) - احمد بن محمد الحموي

- النغمات المسكية في صناعة الفروسية ، ط . بغداد ١٩٥٠.

١٧) - احمد بن محمد بن خلكان

- وفيات الاعيان ط . دار المأمون ، القاهرة .

١٨) - احمد بن محمد الدمشقي بن عربشاه

- عجائب المقدور في نوائب تيمور ط . بيروت ١٩٨٦.

١٩) - احمد مختار العبادي

- قيام دولة المماليك الاولى ، بيروت ١٩٦٩.

٢٠) - احمد النراقي

- ولاية الفقيه ، ط بيروت ١٩٩٠

٢١) - احمد وصفي زكريا

- عشائر الشام ط . دمشق ١٩٨٦.

٢٢) - احمد بن يحيى ثعلب

- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ط . القاهرة ١٩٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٣)- احمد بن يحيى بن فضل الله العمري

- التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ

- مسالك الابصار في ممالك الامصار (قسم قبائل بلاد الشام) بيروت ١٩٨٥.

٢٤) - احمد اليونيني البعلبكي

- ذيل مرآة الزمان ، حيدر أباد الدكن ، الهند : ١٩٥٤.

٢٥) - ادريس بن بيدكين التركماني

- اللمع في الحوادث والبدع ، ط . القاهرة ١٩٨٦.

٢٦)- اسامة بن مرشد . بن منقذ

- الاعتبار، برنستن ١٩٣٠.

٢٧)- اسماعيل بن علي (ابو الفداء صاحب حماة)

- المختصر في آخبار البشر ، ط . مصورة دار المعرفة ، بيروت

- تقويم البلدان - باريس ١٨٤٠.

٢٨ - اسماعيل بن عمر بن كثير

- البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٢.

٢٩- أكرم حسن العلبي

- دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ط . دمشق ١٩٨٢.

٣٠ - امينة بيطار

- تاريخ العصر الايوبي ، دمشق ١٩٨٢.

٣١ - انور زقلمة

- المماليك في مصر ، ط . القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة

٣٢ - ابن اياس الحنفي = محمد بن احمد .

٣٣)- ايرامارفين لابيدوس

- مدن الشام في العصر المملوكي (ترجمة عربية) دمشق ١٩٨٥.

٣٤) - ابو البقاء العكبري

- شرح ديوان ابي الطيب المتنبي ، طبعة مصورة ، دار الفكر بيروت

٣٥)- بنيامين التطيلي

- رحلة بنيامين (ترجمة عربية) ، بغداد ١٩٤٥.

٣٦) - ابن تغري بردي = ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٧) - جعفر خصباك

- العراق في عهد المغول الايلخانيين ، ط . بغداد ١٩٦٨.

٣٨) - جوزيف نسيم يوسف

- العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى بيروت ١٩٨١.

- العدوان الصليب على مصر ، بيروت ١٩٨١

- العدوان الصليبي على بلاد الشام ، بيروت ١٩٨١.

٣٩)- جوناثان / ايلي سميث

- الاستباريه (ترجمة عربية) دمشق ١٩٨٤

٤٠) - حاجي خليفة

- كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون ، حققه غوستاف فلوجل ، لايبزغ : ١٨٣٧.

٤١) - ابن حبيب الحلبي - الحسن بن عمر بن حبيب

٤٢) - ابن حجر العسقلاني = احمد بن علي بن حجر العسقلاني

٤٣) - الحسن بن عمر بن حبيب

- تذكره النبيه في أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٧٦.

٤٤) - حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الايوبيين، القاهرة ١٩٦٤.

٤٥) - حكيم أمين السيد .

- قيام دولة المماليك الثانية ، ط . القاهرة ١٩٦٧.

٤٦)- حمزة بن أسد بن علي القلانسي .

- كتاب تاريخ دمشق ، ط . دمشق ١٩٨٣.

٤٧) - حياة ناصر الحجي

- احوال العامة في حكم المماليك ط . الكويت ١٩٨٤.

٤٨) - ابن خلدون = عبد الرحمن بن محمد

٤٩) - خليل بن أيبك (الصلاح الصفدي)

- الوافي بالوفيات ، بيروت ١٩٤٩ - ١٩٧٩

- أمراء دمشق في الاسلام ، دمشق ١٩٥٥.

٥٠)- خليل بن شاهين الظاهري

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ١٨٩٤.

٥١) - خليل طوطح

- الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ط . بيروت ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٢) - الخنســـــاء

- ديوان الخنساء ، ط • بيروت - دار صادر

٥٣) - خير الدين الزركلـــي

- الاعلام ط • بيروت

٥٤) - داوود الانطاكـــــي

- تزيين الاسواق في اخبار العشاق ط • بيروت ١٩٧٢•

٥٥) - الذهبـي = محمد بن احمد بن قايماز

٥٦) - ر • سي • سميل

- فن الحرب عند الصليبيين (ترجمة عربية) دمشق ١٩٨٢•

٥٧) - رشيد الدين فضل الله الهمذانـــي

- جامع التواريخ ، ط • القاهرة ١٩٦٠•

٥٨) - رينيه فروسيـة

- جنكيز خان ، ترجمة عربية ط • دمشق ١٩٨٢•

٥٩) - زكـي مبارك •

- التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ط • القاهرة ، ١٩٥٤•

٦٠) - سامح عبدالرحمن فهمي

- القيمة النقدية في الوثائق المملوكيـة ط • مكة ١٩٨٤•

٦١) - ستيفن رنسمـان

- تاريخ الحروب الصليبية ، نقله الى العربية د • السيد البـاز العريني ط • دار الثقافة - بيروت •

٦٢) - سعيد عبد الفتاح عاشـور

- مصر في عصر دولة المماليك البحرية - القاهرة ١٩٥٩
- الظاهر بيبرس - القاهرة ١٩٦٣
- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ١٩٧٦•
- الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٦٣•
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، بيروت ١٩٧٢
- المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية - بحث في موسوعة الحضارة العربية الاسلامية ، بيروت ١٩٨٧•

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٣) _ سهيل زكـــار

_ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ١٩٧٤

_ حطين دمشق ١٩٨٤.

_ الحروب الصليبية ، دمشق ١٩٨٤

_ امارة حلب دمشق ١٩٨٦.

٦٤) _ السيد الباز العريني

_ المماليك، ط بيروت _ دار النهضة العربية

٦٥) _ شاكر مصطفى

_ الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق ، مجلة كلية الاداب والتربية جامعة الكويت ، ١٩٧٣.

٦٦) _ صالح بن يحيى

_ تاريخ بيروت ، بيروت ١٩٦٧

٦٧) _ صلاح حسين العبيدي

_ الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي ط . بغداد ١٩٨٠

٦٨) _ طه ثلجي الطراونة

_ مملكة صفد في عهد المماليك ، ط . بيروت ١٩٨٢

٦٩) _ ابن طولون الصالحي = محمد بن علي بن احمد

٧٠) _ عارف العارف

_ المفصل في تاريخ القدس ، ط . بيروت ١٩٦١

٧١) _ عادل زيتون

_ العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب في العصور الوسطى دمشق ١٩٨٠

٧٢) _ عبد الحي بن العماد الحنبلي

_ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ط . بيروت ، المكتب التجاري

٧٣) _ عبد الرحمن بن اسماعيل (ابو شامة)

_ الروضتين في أخبار الدولتين مع الذيل ، بيروت _ طبعة مصورة

٧٤) _ عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي

_ تاريخ الخلفاء _ القاهرة ١٩٦٤

_ حسن المحاضرة في آخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٣٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٥) — عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

— التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، القاهرة ١٩٥١

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٨.

٧٦) — عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي

— الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ١٩٧٣

٧٧) — عبد الرحمن بن نصر الشيزري

— نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بيروت ١٩٦٩

٧٨) — عبد الرحيم بن الفرات

— تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ ، ١٩٤٢، بغداد ١٩٦٧

٧٩) — السيد عبد العزيز سالم

— طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ط ، الاسكندرية ١٩٦٧.

٨٠) — عبد القادر بن محمد النعيمي

— الدارس في أخبار المدارس ، دمشق ١٩٤٨

٨١) — عبد القاهر بن عبدالله السهروردي

— عوارف المعارف ، ط . بيروت ١٩٨٣.

٨٢) — عبد اللطيف البغدادي

— الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ط . دمشق ١٩٨٣.

٨٣) — عبدالله بن أسعد اليافعي

— مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ١٩٧٠.

٨٤) — عبدالله بن محمد البدري

— نزهة الانام في محاسن الشام ، ط . القاهرة ١٣٤١ هـ

٨٥) — عبدالله بن مسلم بن قتيبة

— عيون الاخبار ط . القاهرة ١٩٦٣.

٨٦) — عبدالملك بن هشام

— السيرة النبوية ط . القاهرة ١٩٥٥.

٨٧) — عبد الوهاب السبكي

— معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ١٩٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٨) - عبد الوهاب الشعراني

- كشف الغمة عن جميع الأمة ، طبعة مصورة ، دار الفكر ببيروت
- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ط. بيروت ١٩٨٦.
- لطائف المنن والأخلاق بيروت ١٩٨٥
- الطبقات الكبرى ، طبعة مصورة - دار الفكر بيروت.
- الطبقات الصغرى ، طبعة مصورة - دار الفكر - بيروت

٨٩)- عدنان البخيت

- مملكة الكرك في العهد المملوكي عمان ١٩٧٦

٩٠)- ابن عربشاه = احمد بن محمد الدمشقي

٩١) - عطاء الملك الجويني

- تاريخ فاتح العالم ، ترجمة عربية ، ط . دمشق ١٩٨٥

٩٢) - علي احمد

- الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع (رسالة ماجستير في التاريخ) كلية الآداب جامعة دمشق ، ١٩٨٣.

٩٣) - علي بن ابي بكر الهروي

- الاشارات الى معرفة الزيارات ط . دمشق ١٩٥٣

٩٤) - علي بن الحسن بن عساكر

- تاريخ دمشق - مخطوطة الظاهرية ٣٦١٦ عام ٢٠٥ ط . دمشق المجلدة الاولى والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد: ١٩٥١ المجلدة العاشرة ، تحقيق أحمد دهمان : ١٩٦٣.

٩٥) - علي بن داود الصيرفي

- نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ١٩٧٠.

٩٦) - علي بن القلقشندي

- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩٦٣
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ١٩٦٣.

٩٧) - علي بن عبد الكافي السبكي (تقي الدين)

- فتاوى السبكي ، ط بيروت ، دار المعرفة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٨) - علي بن عطيــة الحموي

- مصباح الهداية ومفتاح الولايــة ، مكتبة الاسد الوطنية رقم ٦٦٥٥
- نسمات الاسحار من مجلة مجمع اللغة العربيةبدمشق ، ج٢ ، المجلد ٣٢ ، ١٩٥٨ .

٩٩) - علي بن اللبودي

- فضل الاكتساب واحكام الكسب وآداب المعيشة ، نسخة خطية مصورة مكتبة الدكتور سهيل زكار.

١٠٠)- علي بن محمد بن الأثير الجزري

- الكامل في التاريخ ، القاهرة : ١٣٤٨ هـ
- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيــة : القاهرة ١٩٦٣.

١٠١)- علي بن محمد بن حبيب البغدادي الماوردي

- الاحكام السلطانية والولايات الدينية ط . القاهرة ١٩٦٠.

١٠٢) - عمر بن احمد بن العديم

- زبدة الحلب في تاريخ حلــب ، دمشق :١٩٥١، ١٩٥٤، ١٩٦٨
- بغية الطلب في تاريخ حلب ، دمشق ١٩٨٨

١٠٣)- عمر بن علي بن الملقن

- طبقات الاولياء - ط . القاهرة ١٩٧٣.

١٠٤)- عمر موسى باشا

- تاريخ الادب العربي في العصرين الايوبي والمملوكي ، ط . بيروت١٩٨٩

١٠٥) - عمر بن الوردي

- تتمة المختصر في "اخبار البشر، طبعة مصورة دار المعرفة - بيروت
- رسالة السيف والقلم في مجلة المورد البغدادية، المجلد الثاني عشر العدد الرابع ١٩٨٣.

١٠٦)- فايد حماد عاشـــور

- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، القاهرة ١٩٧٤.

١٠٧) - الفتح البنداري

- سنا البرق الشامي ط . بيروت ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٩.

١٠٨) - ابن الفرات = محمد بن عبد الرحيم بن الفرات المصري

١٠٩) - ابن فضل الله العمري = احمد بن يحيــى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١٠) - فضل الله بن ابي الفخر الصقاعي

- تالي كتاب وفيات الاعيان ط ٠ دمشق ١٩٧٤

١١١) - فهمي عبد الرزاق سعد

- العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع ط ٠ بيروت ١٩٨٣٠

١١٢) - فؤاد عبد المعطي الصياد

- المغول في التاريخ ط ٠ القاهرة ١٩٦٠٠

١١٣) - فولفغان مولرفيز

- القلاع ايام الحروب الصليبية (ترجمة عربية دمشق ١٩٨٢)٠

١١٤) - قاسم غني

- تاريخ التصوف في الاسلام ط ٠ القاهرة ١٩٧٢

١١٥) - ابن قاضي شهبة = احمد بن قاضي شهبة الاسدي الدمشقي

١١٦) - القلقشندي = احمد بن علي بن عبدالله القلقشندي

١١٧) - ابن قيم الجوزية = محمد بن ابي بكر الزرعي

١١٨) - كامل حسني الغزي

- نهر الذهب في تاريخ حلب ط ٠ حلب ، المطبعة المارونية

١١٩) - كلود كاهن

- الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الاسلامية خلال القرون الوسطى ، مجلة الاجتهاد ، العدد السادس ، بيروت ١٩٩٠

١٢٠) - ل ٠ آ ٠ ماير

- الملابس المملوكية - ترجمة عربين - القاهرة ١٩٧٢

١٢١)- لقيط بن يعمر الايادي

- ديوان لقيط ط ٠ بيروت ١٩٧١

١٢٢) - مجير الدين العليمي الحنبلي

- الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ط ٠ عمان ١٩٧٣

١٢٣) - محمد بن احمد بن اياس

- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٨٢٠

١٢٤)- محمد بن أحمد بن بسام المحتسب

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بغداد ١٩٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٢٥)- محمد احمد جاد المولى
- ايام العرب في الجاهلية
- طبعة مصورة - دار الفكر بيروت

١٢٦)- محمد بن احمد بن جبير الاندلسي
- رحلة ابن جبير، القاهرة ١٩٥٥

١٢٧) - محمد احمد دهمان
- ولاة دمشق في عهد المماليك ، دمشق ١٩٨١.

١٢٨) - محمد بن احمد بن قايماز الذهبي
- دول الاسلام ، القاهرة ١٩٧٤
- العبر ، ط . الكويت ١٩٨٤

١٢٩) - محمد بن احمد القرشي (ابن الاخوة)
- معالم القربة في أحكام الحسبة ، القاهرة ١٩٧٦

١٣٠) - محمد بن ابي بكر الزرعي
- الفروسية ط . بيروت دار الكتب العلمية

١٣١) - محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي
- مضمار الحقائق وسر الخلائق ط ، القاهرة ١٩٦٨.

١٣٢) - محمد بن جرير الطبري
- كتاب تاريخ الرسل والملوك ط . دار المعارف ، القاهرة

١٣٣) - محمد جمال الدين سرور
- دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٠
- دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧

١٣٤)- محمد بن حبيب
- المحبر ، حيدر آباد الدكن ١٩٤٢

١٣٥) - محمد بن حوقل النصيبي
- صور الارض - ليدن ١٩٣٩

١٣٦)- محمد بن خليل الاسدي
- التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار، القاهرة ١٩٦٧

١٣٧) - م . دنلوب
- تاريخ يهود الخزر - ترجمة عربية ط . بيروت ١٩٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣٨) - محمد بن رافع السلامي

- الوفيات ، بيروت ١٩٨٢

١٣٩) - محمد رجب النجار

- حكاية الشطار والعيارين في التراث العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٥، ط . الكويت ١٩٨١.

١٤٠) - محمد بن سالم الحموي

- مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، ط.القاهرة ١٩٥٧

١٤١)- محمد بن شاكر الكتبي

- فوات الوفيات ، القاهرة ١٩٥١

١٤٢) - محمد بن الشحنة

- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ط . دمشق ١٩٨٤

- البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي (ينسب له) بيروت ١٩٨٣.

١٤٣) - محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي (شيخ الربوة)

- نخبة الدهر في عجايب البر والبحر، بطرسبرج ١٨٦٥.

١٤٤) - محمد بن عبد الرحمن السخاوي

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت (طبعة مصورة دار الحياة)

- الذيل على رفع الاصر القاهرة ١٩٦٦

- التبر المسبوك في ذيل السلوك ط . القاهرة ، مكتبة الكليات الازهرية .

١٤٥)- محمد بن عبد الرحمن العثماني

- تاريخ صفد ، قطعة منه دورية ، معهد الدراسات الشرقية والافريقية - جامعة لندن ١٩٥٣.

١٤٦) - محمد بن عبد الرحيم بن الفرات المصري

- تاريخ الدول والملوك ، ج٩ ، ط . بيروت ١٩٣٦ ، ج٤، بغداد ٦٧- ٦٩
ج ٨ ط . بيروت ١٩٣٨ ج٥ ، بغداد ١٩٧٠
ج ٧ ط . بيروت ١٩٤٢.

١٤٧) - محمد العبدري الحيحي

- رحلة العبدري أو (الرحلة المغربية) الرباط ١٩٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤٨) - محمد عبد العزيز مرزوق

- الناصر محمد بن قلاوون ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي

١٤٩) - محمد بن عبدالله اللواتي (المعروف بابن بطوطة)

- رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ١٩٥٨.

١٥٠) - محمد عبد المنعم السيد راقد

- الغزو العثماني لمصر ط. القاهرة ١٩٧٢

١٥١) - محمد عدنان البخيت

- مملكة الكرك في العهد الايوبي ط. عمان ١٩٧٦

١٥٢)- محمد بن علي بن احمد بن طولون الصالحي الدمشقي

- اعلام الورى ، بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، دمشق ١٩٦٤.

- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية - دمشق ١٩٤٩

- قضاة دمشق ، دمشق ١٩٥٦

- مفاكهة الخلان ، القاهرة ١٩٦٢

١٥٣) - محمد علي خليل عطا الله

- نيابة غزة في العهد المملوكي ، ط. بيروت ١٩٨٦

١٥٤)- محمد بن علي بن شداد .

- تاريخ الملك الظاهر، بيروت ١٩٨٣

- الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة دمشق ١٩٦٢

١٥٥)- محمد بن علي بن نظيف الحموي

- التاريخ المنصوري دمشق ١٩٨٢.

١٥٦)- محمد ابو الفضل ابراهيم

- ايام العرب في الاسلام ، دار الفكر - بيروت

١٥٧)- محمد فهمي عبد اللطيف

- الفتوة الاسلامية ، القاهرة - دار الزيني للطباعة والنشر

١٥٨)- محمد كرد علي

- خطط الشام ١٩٨٣

١٥٩)- محمد ماهر حمادة

- الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي ط. بيروت ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٦٠) - محمد بن محمد الاصفهاني العماد الكاتب

- الفتح القسي في الفتح القدسي ط . القاهرة (بلاتاريخ).

- خريدة القصر وجريدة العصر ، دمشق ١٩٥٥ - ١٩٥٩

١٦١) - محمد بن محمد بن صصرى

- الدرة المضية في الدولة الظاهرية ، لوس انجلوس ١٩٦٣.

١٦٢) - محمد بن محمد الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ط.بيروت ١٩٤٥

١٦٣)- محمد بن محمد بن محرز الوهراني .

- منامات الوهراني ط . القاهرة ١٩٦٨

١٦٤) - محمد بن محمد بن نباته المصري

- السيف والقلم ، رسالة نشرت في مجلة المورد البغدادية ، المجلد الثاني عشر - العدد الرابع ١٩٨٣.

١٦٥) - محمد بن محمود الحلبي (الملقب بابن آجا)

- العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ، دمشق ١٩٨٦

١٦٦)- محمد بن محمود بن خليل الحلبي

- تاريخ الامير يشبك الظاهري ، القاهرة ١٩٧٣

١٦٧) - محمد بن ناصر الدين الانصاري بن الزيات

- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ، طبعة مصورة ، مكتبة المثنى بغداد .

١٦٨) - محمد بن ابي المكارم بن المعمار الحنبلي

- الفتوة - بغداد ١٩٦٠

١٦٩)- محمد بن يحيى بن الجيعان

- القول المستظرف في سفر مولانا الملك الاشرف ، بيروت ١٩٨٤

١٧٠) - محمود بن احمد البدر العيني

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد (شيخ المحمودي) القاهرة ١٩٦٧

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر ، القاهرة ١٩٦٢

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (ثلاثة اجزاء) القاهرة ١٩٨٧- ١٩٨٩

١٧١)- محي الدين بن عبد الظاهر

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، الرياض ١٩٧٦

- تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور القاهرة ١٩٦١

- الالطاف الخفية ، لايبزغ ١٩٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٧٢) - المرتضى الزبيدي
- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني ايوب ط . دمشق ١٩٧١
١٧٣) - مصطفى طه بدر
- مغول ايران بين المسيحية والاسلام ط .القاهرة - دار الفكر العربي
١٧٤) - مظهر شهاب
- تيمورلنك ، رسالة دكتوراه غير منشوره- الجامعة اليسوعية ، بيروت ١٩٨١.
١٧٥)- المقريزي = احمد بن علي المقريزي
١٧٦) - منصور بن بعرة الذهبي
- كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ط .القاهرة ١٩٦٦
١٧٧) - ابن منظور
- لسان العرب المحيط ، ط . بيروت - دار لسان العرب
١٧٨) - مورخ شامي مجهول
- حوليات دمشق ط .القاهرة ١٩٦٨.
١٧٩)- مولف مجهول
- السيف والرمي ، رسالة نشرت في مجلة المورد البغداديه ،
المجلد الثاني عشر ، العدد الرابع ١٩٨٣.
١٨٠) - نجم الدين الغزي
- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، بيروت ١٩٤٥
١٨١)- نقولا زيادة
- الجغرافية والرحلات عند العرب ط . بيروت ١٩٦٢
- دمشق في عصر المماليك ط . بيروت ١٩٦٦
١٨٢)- ابن واصل الحموي = محمد بن سالم الحموي
١٨٣)- وفاء جوني
- الحياة الادارية والسياسية في الامارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام
رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة دمشق ١٩٨٩.
١٨٤)- وليم الصوري
- تاريخ اعمال انجزت فيما وراء البحار (تاريخ الحروب الصليبية)
ترجمة عربية - بيروت ١٩٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٨٥) - ياقوت بن عبدالله الحموي

- ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء) القاهرة ٩٠٧- ١٩٢٧

- معجم البلدان- بيروت - دار صادر

١٨٦)- يوسف بن اسماعيل النبهاني

- جامع كرامات الاولياء ، ط . بيروت - دار صادر

١٨٧)- يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،القاهرة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) .

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، القاهرة ١٩٥٦

١٨٨) - يوسف درويش غوانمة

- امارة الكرك الأيوبية ، عمان ١٩٨٢

- تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، عمان ١٩٨٢

- تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ط .عمان ١٩٧٩

١٨٩)- يوسف بن رافع بن شداد

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ط .القاهرة ١٩٠٣

١٩٠)- يوسف بن عبد الهادي

- ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ط . دمشق ١٩٤٢

- رسائل دمشقية ط . دمشق ١٩٨٨ .

- آداب الحمام - مكتبة الاسد الوطنية رقم ٤٥٤٩

- ذم الهوى والزمر في احوال الزمر والعصبيات ومايحصل في ذلك من السيئات - مكتبة الاسد الوطنية رقم ٣٢٤٣.

١٩١)- يوسف بن قزا اوغلي

- مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ط . حيدر اباد الدكن - ١٩٥١

Join Ville, the life of saint Louis - LONDON 1963 P.P 206 - 264. -(١٩٢)

- Margaret Wadl , saint louis LONDON 1968 P.P 113-131

K.M. setton, A histoby of the crusode, Philadebhia 1962 - VOL . 2 PP 487521 - (١٩٣

THE World of Islam By Xavierde Planhol New uork 1959 -(١٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفهـــــــرس "

١- الاهـــداء ١

٢- شكـــــر ٢

٣- مقدمـــة ٣

٤- المصادر (دراسة وتعريف) ١٣

٥- الفصل الاول :

بلاد الشام في العصرين الايوبي والمملوكـــــي

(عرض عام للاوضاع السياسية) ٥٤

٦- الفصل الثاني :

طوائف الشعب وتنظيماته (العلاقات مع السلطة) ١١٠

٧- الفصل الثالث :

من مظاهر الحياة الاجتماعية واوجه النشاط في المدن الشامية ١٥٢

٨- الفصل الرابع :

الفلاحـــون - البـــدو ٢٢٧

٩- خاتمـــة ٢٨٩

١٠- جريدة المصادر والمراجع ٣٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

INTRODUCTION

Researches in social history are considered to be one of the most recent and most difficult branches of history. Not only do difficulties stem from the non-agreement of the social research schools, but also from the scarcity of materials with social contents in the sources. To be added to this is that the knowledge brought forward by Ibn Khaldoun is very recent for the Arab researchers, both historians and others. This recency or novelty is confusing from many aspects. This is because the few Arab researches, and like many researches in the Arab history, remained within the boundaries of non-conscious imitation of the pure European socio-historical researches, and the Orientalistic historical researches. It has become apparent that the course of Arab history is quite different from that of European history. Arab history has completely independent character and identity. At the time when Europe was living in the darkness of the Middle Ages, the Arabs were living in the outstretching light of learning and civilizational "donation". Moreover, the stages of the development of European history are not only economically, socially, administratively, dogmatically and politically different from the stages of Arab history, but also in every other respect. Therefore, the rules of academic research and adherence to the Arab identity have decreed the necessity of assiduous and perspicacious search for rules for research in the social history of the Arab nation at the various stages and regions.

I put this fact before my eyes as I set about the attemps to write the First Chapter of my dissertation. During my collection of the materials for the dissertation, I acquainted myself with a number of historians who had a pioneer social sense, such as Al-Makrizi, Al-Kalkashandi, Ibn Abdul-hadi, Al-Sayouti, Ibn Tolon, and of course on top of the list, the great Arab authority and sociologist Ibn Khaldoun.

I have availed myself of what those pioneers had written, but I dealt with their descriptions as any contemporary historian would deal with the different historical accounts regarding a certain military, dogmatic, political or historical event. In other words, I have considered their descriptions as historical accounts concerning a certain event, and dealt with these

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

accounts in accordance with the recent historical research methods. This procedure has anew confirmed my commitment to the necessity of investigation and searching for an Arab course of action that fulfills the pursued goal of establishing original Arab academic schools for exploring the different aspects of Arab history.

This commitment involves a high degree of difficulty, and is a course of action fraught with dangers. But the most difficult task of all is the researcher's attempt to make his way for the first time. And I declare here, quite clearly and honestly, that I have derived great benefit from what I have been taught and learned during a political carreer as old as the Revolution in this country.

I have been mostly influenced by the Baath Arab Socialist School and its doctrine, principles and goals as embodied by the struggle, methods, and values of the fatherly commander, the militant Hafez Al-Assad. I have been inspired by the Leader Hafez Al-Assad's school of thought, and I followed his guidance in my research till I attained what may be called a new course for exploring the Arab social history, especially during the Ayyubite and Mameluke ages in Greater Syria (AL-SHAM). Most writers set out from an old postulate saying that the Islamic Arab society was composed of two social blocs (factions): The Elite and the Populace. Arab and non-Arab historians adhered to this concept. I have examined this concept very accurately and posed several questions, one of which is: Did the Elite in the Ayyubite and Mameluke ages or other ages ever constitute a social group? Or, in other words, were the sultans and mamelukes a deeply-rooted, distinct and stable social group which confronted the basic social group which was known as the Populace and which was characterized by stability and perpetuity?

The answer to this question was deduced from reviewing processes of the political history, particularly of the Ayyubite and Mameluke ages from the beginning to the end. The people of authority among the Ayyubites, and then the Memelukes, were essentially mercenaries and slaves who had been brought in for military and other purposes. When these held the reins of power,

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

antipathy, suspicion, doubt, laceration, and destructive conflict were the norms of life among them, or even between a husband and his wife, and within the Ayyubite household in Syria and Egypt. The Ayyubite sultans fought among themselves and some of them made truces with the Latins and gave Jerusalem up to them, so they would be free to wage war on their kith and kin. There is ample clarity in the relation between Izzed-Aybak and Shajarat-Addur, between Kutz and Baybars, between Kalwoon and Baybars' sons, or even between Kalawoon and his own sons.

The majority of the sultans and mamelukes, who did not die in the battlefield, were assassinated or died in prison or in exile. During the centuries of their history, the Ayyubite Sultans and the Mameluke Sultans after them, were never able to form a social unity with the least degree of accord, harmony and cooperation.

They all continued to live in isolation from one another and remained estranged from the people they governed, and were a mere despotic military junta. For that reason, when they were uprooted, they left no roots at all behind them. And when an Ayyubite or Mameluke sultan deposed another, the whole operation did not leave behind it anything other than a kind of military fight over power. The Turk Mamelukes held power for a long time, and Barkook managed to replace them by the Circassians without any significant consequences even on the political level. When the Ottomans came, they as the new aliens replaced the old aliens in power with ease and no mentionable difficulty. And when Mohammed Ali annihilated the remainder of the Mamelukes, there was left nothing of them in the minds of the people except gloomy memories.

In contrast with the history of the Arabs and Islam we notice that after Mu'awiya took over the reins of the Caliphate, the family of the Prophet (Alul-Bayt) continued to enjoy a greater status among the masses than that which they enjoyed when they had been in power. After the termination of the Omayyad Caliphate, poets kept for centuries elegizing that Caliphate and many people believed in the idea of "The Expected Sufiani".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Research in history is not the material itself, but the nature of dealing with the historical material and the methods of looking into it. Thereupon, we cannot postulate that the society in the Ayyubite and Mameluke ages consisted of two social groups: the Elite and the Populace. The Elite were never a social group; they were but an erratic gathering of mercenaries and slaves who pursued and monopolized military work. This monopoly, characterized by tyranny and despotism, prevailed over the destiny of the people for several centuries.

The Ayyubite and Mameluke ages knew only one social group which was known as the Populace. This group lived and was active in most fields ignoring the authority, and even was all set waiting for the appropriate opportunity to overthrow it. It expressed its aspirations and social activities through some phenomena in the form of coalitions and organizations and groups, or in the form of daily and seasonal activities. The inhabitants of Syria lived in towns, villages and the desert, and they all had descended from one Arab origin, and had mutual relations among themselves. They intermingled and no class barriers existed among them. The beginnings of the roots of the Arab society structure in Syria and other Arab countries were with the beginnings of history, and remained as such through the ages. Had it not been for the Arab character of this society, the Omayyads would not have been able to make Syria the seat of an Arab state which dominated most of the Old World. And had it not been for the toughness of those roots and the strength of the society, it would have been blown away by the winds of racial discrimination as a result of the conquest of the Ghaz, the Latins, the Mongols, and others.

My dissertation has come in four main Chapters, an introduction and a conclusion. In the Introduction, I critically studied the most important sources I referred to. After I had defined ech of the sources, I clarified its characteristics and the amount of benefit I derived from it. The Mameluke age, and the Ayyubite age before it, were characterized by the abundance of historical output. There came into being a good number of chroniclers, historians of places and provinces, historians of special subjects, and biographers. But, unfortunately, the benefits which could be obtained from the sources did not rise to

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

the required standard and the desired hope. Therefore, I referred to the works of Arab travellers and derived great benefit from them. I even derived more benefit from books of legal opinions, preaching, and mysticism (sufism). In short, I went back to solve the numerous and diverse contents of the Arab library on the Ayyubite and Mameluke Ages. I examined and read each and every book, whether in print or in manuscript, looking within its folds for a material I could use. I declare here that the number of books I read and referred to is far greater than the number of books listed in the Bibliography at the end of this dissertation. I listed only the books mentioned in the footnotes. This means that a great portion of my time has been wasted with no immediate benefit. Since 1984, I have read and referred to sources and reference material, and found myself with meagre and insufficient material.

I derived indirect benefit from my readings, and my knowledge of the Ayyubite and Mameluke ages became firmly established. Undoubtedly, this will come in handy in future time. After finishing studying the sources, I began writing the First Chapter which bore the title: "Syria in the Ayyubite and Mameluke Ages - A General Survey of Political Situations".

In this Chapter I reviewed with unimpairing brevity the history of the Ayyubites since Saladin till after the Battle of Ain Jalout and the disappearance of all Ayyubite petty states except the Kingdom of Hama, which became a Mameluke "deputydom" ruled by an Ayyubite king.

I was encountered with a good deal of difficulty trying to survey about four centuries in less than sixty pages.

I highlighted the most prominent events of the Ayyubite history during the days of Saladin, the founder of the State, and after him. I dealt with the Ayyubite conflicts and explained their consequences and negative effects. Then I discussed the rise of the Mameluke State in Egypt and the transfer of its sovereignty to Syria in the wake of the Battle of Ain Jalout. I discussed the history of each of the eight

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"Deputydoms" in Syria during the Mameluke age. My principal aim in this general political survey was to orientate its materials in a course which would serve the purpose of social research. Had it not been for this, the full coverage of the research from the military or political aspects would have required several volumes.

The Second Chapter bore the title: "The Factions and Organizations of the People - Relations with the Authority".

At the outset of this Chapter I posed the question of the methodology of research in the Arab social history, and this is what I hinted at the synopsis of which earlier. After dealing with the question of methodology, I surveyed the general conditions of the society in the living quarters, suqs, places of worship, and the centres of trades and managements, and the other sectors. I clarified that the Ayyubite and Mameluke regimes had recruited all the administrations for the service of the interests of the Authority, and no administration had been assigned to look after the welfare of the people. The people looked at those governments as tyrannical and despotic. As a result, they resorted to defend their interests in many forms and ways most significant of which were the popular and and paramilitary organizations composed of Za'ar, Harafeesh and others.

Thus, I studied the conditions of the Za'ar and Harafeesh and all the popular organizations, and concentrated my efforts on the role of the Scholars (Ulama) and men of religion as an intermediary force between the Authority and the people, and came to the conclusion that the role of the men of religion had most often negative effects on the people.

I distinguished, to a lesser degree, between the Sufist Movements and the roles of the Scholars and Judges, and dealt with sufism as a social phenomenon, and tried as far as possible to avoid tackling the religious and theological issues.

I have always sought, throughout the research, to quote sufficient examples to cover the whole of Syria, but have not

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

always been successful in this pursuit. Historians were interested in Damascus and Aleppo and neglected the other cities. Nevertheless, I believe that Damascus was the best representative of the Syrian society. Besides, there were full harmony, homogeneity and interaction between the Syrian society and the Arab society in Egypt. The peoples of Syria and Egypt are part of the Arab nation, and the heart of the nation, and are the best to represent it.

I devoted the Third Chapter for research of the Phenomena of Social Life and Aspects of Activity in Syrian Towns.

The places of activity were the residential quarters, suqs, squares, public bath-houses, recreational sites, mosques, hospices, and hospitals. I stopped at each of the phenomena of social activities and discussed the festivities, feasts and social occasions, and ways of expressing joys and misfortunes. I paid special attention to the Hajj (Pilgimage) Season and marriage ceremonies, festivities, circumcision customs, recreational methods, and some positive and passive customs, such as wine-drinking, Hashish-smoking, and homosexuality. I concluded the Chapter with depiction of punishment methods and execution and the social indications thereof. At last, I did not omit to talk about the garments and costumes, but discussed them in a way of service to the course of this dissertation.

In the Fourth Chapter I talked about the greater sector of the popular masses in Syria, i.e. the peasants and the nomads. The inhabitants of Syria were distributed among the towns, villages and the desert. The inhabitants of the villages and the desert received the least amount of attention on the part of modern researchers and earlier historians. I exerted all possible effort till I was able to write some pages in which I first gave a depiction of the status of the peasants under the rule of the alien military. In collaboration with the religious feudality, the military feudality greatly tyrannized the Syrian peasants and deprived him of his land and the fruits of his toiling efforts, and turned him into a serf owned and his family with the land by the feudal lord.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The Syrian peasant lived in sheer unhappiness and suffered from injustice and deprivation. Nevertheless, he remained a true Arab, clinging to his land, and resisted the Crusader Latins and fought the Mongols. He undoubtedly participated in the revolts against the Mamelukes and others; but the sources omitted to talk about him. It was the peasant who constantly supplied the veins of the Syrian towns with young Arab blood, enabling them to stand fast and maintain their pure Arab identity. This was because the Arab society did not know any rules restricting the inhabiting of towns and the movement from the countryside to the towns. In addition, the peasants' experience and their transfer to urban life were quite different from what feudal Europe had known and the birth of the bourgeois class.

The nomads were more fortunate than the peasants. The has been available more news material about them, and fortunately the material available about them is authentic and documented. After discussing the role of the Arab nomads in the making of historical events of Syria, I touched upon the effects of the Ghaz peoples in the eleventh century on the tribes of the Arab Peninsula and north of Syria. Then I clarified how the tribes of Teiyiite Banu Rabi'a emerged and marched from southern Syria towards the middle region, forming a new nomadic gathering.

I studied the customs and traditions of the nomads from all the internal and other aspects, and was able to prove that the social and other customs of the Arab nomads remained essentially the same as they had been before Islam.

The backbone of the nomadic life was pasturage and roving in quest of pasture. The nomads did not discontinue acts of marauding and raiding, and at the same time took over the role of defending the Syrian borders against the Mongol Elikhanians governing Iraq. These nomads were neighbourly and generous to anyone who passed through their domains or came to them appealing for help. Women had a role in the nomadic household. The nomads were composed of groups of families, phratries, clans and tribes. Each group had its own sheikh, and the Banu Rabi'a had a number of princes.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The nomads remained least observant of the religious teachings, and therefore they resorted to customs and traditions in their judicial matters and in the settlement of their disputes, instead of applying the rules of Islamic Law. The nomads were a constant human supply to villages. Additionally, the nomadic system dominated people in the countryside and in towns, and the inhabitants of the mountainous regions, particularly Mount Lebanon, lived under tribal conditions which were not different from the nomadic tribal conditions.

In the Conclusion, I included the summary of what I was able to attain in the four Chapters, and added to it a talk in which I dealt with the disintegration of social life and the decline of order and disturbance of the political and economic situations. These factors have together hindered the investment of some indications of the revival which appeared at the end of the Mameluke age, and in some way facilitated the mission of the Ottomans in becoming heirs to the Mameluke regime.

٢٩٧٧٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit